

تأليف
القاضي إبراهيم عبد الحميد قطيش الفاعوري

قصة تافيج

قصة إبن البادية أو اليتيم تافيج وهي واقعية جرت حوادثها في بادية البلقاء وأن تغيرت اسماء أشخاصها

في زمن الحكومة التركية وقبل الحرب العالمية الأولى، كانت أراضي البلقاء في الجهة الوسطى من بلاد شرق الأردن أراضي معمورة، وأراضي غير معمورة. فالمعمورة بها ما كان غربي "قصر المشتى الأموي" من الجنوب و"الموقر" و"زملة العليا" في الوسط و"الأزرق" من جهة الشمال. حيث أنها أراضي زراعية يسكنها الحضر والفلاحون في المدن والقرى. كل يشتغل بأشغاله فالحضر منهم يتعاطون التجارة والصناعة والآخرون يتعاطون الزراعة وغرس الأشجار المثمرة وتربية بعض المواشي والحيوانات والطيور الداجنة. والأراضي الغير المعمورة يقال لها البادية التي يكثر فيها الغزلان والأرانب البرية وبقر المها وطيور الحبارى والقطاء والجوارح كالنسر والعقاب وبعض النعام، وعندما ينعم الله عليها بالأمطار الغزيرة في المواسم الشتوية تملأ أخاديدها وغدرانها وبركها التي صنعتها الطبيعة بأرضها من الماء، ويكثر ظهورالكمأة فيها فيلتجئ إليها البدو والرحل من عشائر بني صخر والبلقاء بمواشيها وانعامها وإبلها كل من جهة أراضيه المعمورة، حيث ينعمون هناك بالدفء والماء والكلأ لماشيتهم من شجيرات الحمض والأعشاب الأخرى، ويتغذون بالكمأة وما يصطادونه من الغزلان والأرانب والطيور ولا يعودون الى المعمورة إلا بعد البرد وتنعم بلادهم بالدفء والربيع.

وفي شرقي البادية تقع الصحراء الممتدة شرقا بسهولها والروابي والتلال حتى حدود البلاد العراقية، وجنوبا البلاد النجدية، وعلى ما يوصف فإنه لا يطرقها إنسان، ولا يسكنها أحد لشدة حرها وشمسها المحرقة، وخلوها من المياه والأشجار، إلا السراب الذي تخدع العين به وكل من تسول له نفسه دخول هذه الصحراء فإنه لا يعود، حتى أن بعض القصاصين من البدو نقلوا شائعات عن أن جماعة من بدو الشرق غرهم طمعهم بغزو هذه البلاد لكسب ما يقدرون على كسبه من الأبل، فحاق بهم مكرهم السيء، وجاءت طريقهم الى هذه الصحراء، وفقدوا في جوفها اجسامهم بين ضلوعها وصاروا عبرة لغيرهم.

ومن العربان التي كانت منازلهم أراضي الموقر وباديتها يقال إليهم بدو الشمال. جماعة يسكنون صيفا وشتاء في خيم، تنسجها نساؤهم بأيديها من شعر الماعز الأسود فيها الخيم الكبيرة والصغيرة، كل على قدراستيعاب أفراد عائلته ومن يلوذ به متنقلين بها وبما لديهم من الابل والغنم وباقي الحيوانات والمواشي التي يقومون على تربيتها في الأراضي المعمورة بمواسم الربيع والصيف والخريف. وفي البادية بأيام الشتاء تنتشر في السهول الواقعة هناك بقرب بعضها بعضاً، مما يتجاوز المائتي خيمة ولسواد لونها في موقعها يخيل الى الرائي كأنها جرة سوداء فصلت من بركان عظيم. ويتوسط هذه الخيم بيت زعيم العشيرة "حمد الجبوري" الذي استحق الزعامة باقتداره على تصريف أمور العشيرة بما جبل فيه من رجاجة عقل وفهم، والسهر على راحتهم واحتياجاتهم، والمحافظة على أعراضهم وأموالهم، ومساعدة الضعيف منهم والإشفاق عليه وانصافه من ظالمه مهما كان الظالم قوياً، لا يهمه في الحق لومة لائم، وبرغم شجاعة رجال هذه العشيرة وقوة بأسهم فإن الزعيم كان أفرسهم ولا يهاب الموت عند اللقاء في حرب الأعداء لاعتقاده بأن الموت لا يأتيه إلا بعد انقضاء الأجل.

وعلى ذلك الزعم والاعتقاد فانه ما دخل معركة في الحروب التي يحضرها الا عاد منصوراً. ويعود من يناوئ عشيرته العداء خائباً مدحوراً. ومن ارشاداته لقومه نصحه اليهم ان يوحدوا كلمتهم وان لايتخاذلوا عن مساعدة قومهم وان يكونوا صفاً واحداً ويداً واحدة كالبنيان المرصوص محافظين على الشرف والنخوة وصيانة الأعراض والأموال وبث المحبة والبعد عن الفرقة والبغضاء حتى لا يطمع بهم العدو وينالهم دون ان يقدروا على مجابهته ويوصيهم ايضاً بالاتكال على الله مطيعين لأوامره عبيداً مخلصين لجلالته مثابرين على عبادته وتسبيحه وتقديسه ولا تتخذوا غيره ساعداً ونصيراً ويختم ارشاداته بقوله:

"اننا لا نضمر السوء لمن لا يعادينا فنصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا والنصر من الله يهبه لمن يشاء من عباده انه نعم المولى ونعم النصير".

اما البيت الذي يسكنه هو وزوجته "حمده" التي هي على جانب عظيم من الجمال وتتلائم صفاتها مع صفات زوجها واخلاقها مع اخلاقه تشاركه السراء والضراء وهي القائمة بنفسها على خدمته ولا تركن لأحد على القيام في هذا الواجب سواها وفوق ذلك فانها الراعية لشؤونه وبادئة النصح ومرشدته لجمع كلمة قومه واكرام عشيرته وكانت تقوم بهذه

المهام لإكرام الضيوف والخطار حال غيابه حفظاً لسمعته وسمعة عشيرته مما جعل العشيرة باجمعها تلهج بذكراها وتحترمها كاحترامها لزوجها ومعهما خادمتها العجوز التي حضرت معها وقت زفافها لأنها كانت هي القائمة على تربيتها وخدمتها منذ كانت طفلة. ويسكن معهم ايضاً شقيق الزعيم المدعو "جرو" وزوجته "سلمى" وابنيهما سعد وسعيد.

وهذا البيت هو من شقاق الشعر الأسود التي تنسجه ايدي النساء البدوية، ويرتفع على اربعة اعمدة طويلة من الخشب بارتفاع اربعة امتار، ويقسم هذا البيت الى قسمين القسم الأيمن وبوسطه عمود ما بين الجناح، وعامود قسم الحريم الذي يرتفع عليه الستار الفاصل بين القسمين ويقال لهذا الستر "الساحة" وهذه الساحة منسوجة من شعر الماعز الأسود والقطن الأبيض كل على حدة، ومزخرفة بنقوش ورسوم هندسية يعجز الرسام عن تصويرها بهذه الزخرفة العظيمة واما مساحة الطول لهذا البيت فهو سبعة امتار بين العامود ومقابله والعامود الأخير والجناح وكل عامود في قسم الحرم يرتفع عليه ستاراً منسوجاً من الصوف والشعر حتى يستر به محل النوم، ويستر هذا البيت من الخلف رواق يشبه الاستار الموضوعة في داخل الحرم وبه الفرش والبسط والسجاد لما يحتاجه أهل البيت والضيوف بمجالسهم ونومهم.

كما وان هذا الزعيم مهما كانت البداوة مؤثرة في تربيته إلا انه كان من صغره لا يجالس الا الرجال قادة الفكر والتعقل، وقد اخذ عنهم ما كانوا يتخلقون به من الأخلاق الحسنة الباهرة، وكان يحضر مجالس قضائهم فتخلق بأخلاقهم وقبس بما كانوا يتحدثون به والاعمال في سمرهم وما يشرعون به في قضائهم، حتى عظمت نفسه وحجته في المعرفة وحسن الرأي فصار هو القاضي الوحيد لعربانه وغيرهم، حتى انه لقب بالقاضي العادل لأنه لا يعير اذنه لأحد ولا يؤثر على وجدانه عندما يقع على الحق أي مؤثر ولا يغفل عن اتخاذ الطرق الحاسمة لايصال صاحب الحق لحقه مهما اعترضه من صعوبات.

أما كيفية قضائه، فإنه عندما يأتي إليه المتخاصمان في أي قضية ما يستقبلهم في بيته ويجلسهم على الفرش والأبسطه الممدة على أرض المضيف مرحبا بهم وسائلاً عن أحوالهم، وفيما هم به متنازعون وذلك بعد شرب القهوة كالعادة المتبعة بين العربان، فيعرضون عليه قضيتهم ويسمع لأقوالهم في كل أناة وصبر وجلد حتى يستوعب كل ما افضوا به إليه من الأدعاء والدفاع إن كان من أفواههم، أو من أقوال وكلائهم الذين يوكلونهم عنهم، وبعد ذلك يقوم بتعديل حججهم بأن يسرد عليهم وعلى جميع حضور المجلس ما قاله الطرفين والوكلاء من الادعاء والدفاع حتى لا يقال بأنه أغفل بعض مما ذكروه وإطمئناناً لنزاهته. وبعد تلاوته ما سمع من الطرفين وبعد التصديق عليه من قبلهم، يكلفهم لإجراء الصلح لأن الصلح سيد الأحكام وقد يشاركه في هذا الأمر الحاضرين، فإن وفق لصلحهما فيكون ذلك غاية ما يتمناه ولو كلفه الأمر لدفع بعض الشيء من جيبه الخاص، وأن أخفق فيفصل بينهم بما أتاه الله من فهم ومقدرة، بعد أن يقدموا كفلاء أكفاء يضمنون تنفيذ حكمه إن كان لصالح المدعي أو تبرئة ساحة المدعى عليه، ويغادرون منزله قانعين في هذا الحكم متعهدين في تنفيذه ويزول من بينهم العداء ويحل محله الوفاق والوئام.

أما الأخ جرو فإنه قابع بهذا البيت، لا يسأل ولا يُسأل ولا يهمه من الأمر شيء سوى الأكل والشرب والنوم والتسكع في نزل العشيرة عاطلاً عن كل عمل، دون أن يجهد نفسه ولو على الأقل مراقبة الرعاة والخدم، وأعظم شيء عنده هو مرافقة الجهلة والعاطلين والتحدث في أعراض القوم وتوجيه الانتقادات المزرية اليهم بسبب او بلا سبب، بصورة جعلت بعض رجال العشيرة يشمئزون منه، فشكوه إلى أخاه واوقفوه على جميع أفعاله الخبيثه، وأعلموه بإنه لم يبق بالإمكان الصبر على هذه الحاله ولولا احترامهم لشخصه وحبهم إليه لأهانوا هذا الجرو الخليع وادبوه حتى يقلع عن أعماله المنكره ويعود إلى رشده ويتخلق بالأخلاق الحسنه. فخجل هذا الأخ الكريم منهم وطيب خاطرهم، وأوعد أن يقوم بتعديل إعوجاجه ورجاهم أن يسامحوه ويعفون عنه حتى لا تسيء الحالة ويدب الخلاف والشقاق بين أفراد العشيرة، وقد اجتمع به وعنفه على فعله وردعه عن كل ما يسيء للعشيرة، وأن يترك رفقاء السوء مرشداً إياه أن يتخلق بأخلاق الرجال ذوى الناموس والشهامة، ولجبن هذا الجرو فإنه لا يقدر على مجابهة أحد إن كان الحق له أو عليه، وكل ما في أمره عندما يصدر منه إي شيء

يوجب مسؤولية يتذلل لأخيه باكياً معتذراً لجهله في الأمور وقلة من ينصحه من الرفقاء متعهداً بإنه سيقلع عن نزواته، ومرافقة الجهلة وأهل السؤ ويسير في الطريق المستقيم راجياً منه العفو والغفران.

فاكتفى حمد بهذا الاعتذار وصار يراقبه بنفسه وهو لا يشعر، حتى لا يترك له الحبل على الغارب ويعود إلى سيرته الأولى، فقام هذا الجرو في تصنعه وخداع أخيه بالنفاق وإن كان يضمر السوء في قلبه لهذا الأخ الكريم للانتقام منه ومن الجماعة الذين سببوا لإذلاله، إلا أنه أقلع عن أعماله الشائنه وسار سيراً حسناً وبدا لأخيه أنه صار رجلاً صالحاً، وقينا به أن يتبوأ المقام الأول في العشيرة، فيما إذا تغير الزمان وزال أخاه حمد من الوجود، وان يكون قائدهم العظيم ومدبرها الفهيم لاسيما ولم يكن لأخيه وارث قريب غيره حتى لا تزول هذه الزعامة عن هذا البيت.

الفصل الأول

النفس الزكية ترزق وريثاً

مضى على زواج حمد بزوجته حمده عشرة سنوات، لم ينجبا خلالها أطفالاً فضاقت الدنيا بحمده، واستولى عليها الحزن والكآبة، وصار الألم يحز بقلبها كلما تذكرت أن ليس لها ولد تقر به عين أبويه من أجلها وأجل زوجها الطيب الحنون، والذي دخل في عقده الخامس من العمر محروماً من وريث يرثه في هذه الدنيا، متصوره باعتقادها بإنها السبب في هذا الحرمان، إذ لربما أن تكون هي العقيم ولا يجوز إليها أن تحرم زوجها من الأطفال. ففكرت بذلك كثيراً وأخيراً عن لها أن تقوم بزواجه مرة أخرى من امرأة، عسى الله جل شأنه أن تأتي بالوريث لإحياء ذكره، وقد قررت إطلاعه على ما فكرت به وعزمت على القيام بهذا المشروع، إذ لربما أن يكون له رغبة في الزواج ولكنه يكتم هذه الرغبة في صدره حتى لا يؤلمها، فعليها أن يكون لها السبق في هذا الأمر صابرة على كل ما يؤذيها ويجلب رضاء زوجها وسعادته، دون أن تعلم أن ما فكرت به برغبة هذا الزوج بالزواج من امرأة ثانية هو بعيد كل البعد عن حمد، وكل ما يريده من دنياه دوام الحب بينهما دون إشراك ثالث معهما.

وتوالت الأيام ولم يفارقها وسواسها، وكلما طال الزمن زادت الآمها حتى باتت ضعيفه الجسم واصبحت كأنها في العقد السادس من العمر، مع أنها لا تتجاوز الثلاثين، أو مصابة بداء ليس له دواء، فقل أكلها وشحب لونها حتى بدا وجهها اصفراً بعد ذلك الإحمرار.

فتنبه إليها زوجها يوماً وهاله شحوبها، وسألها عن ما أصابها وما تشكو منه وهل بها من مرض، فلم تنبس ببنت شفة، فضايقه صمتها وحزن لحالها، ولما أعياه أمرها ولم يتمكن من إطلاق لسانها في أمرها وسبب ضعفها، طلب إليها أن تتهيأ غداً للسفر معه لإحدى المدن كي يعرضها على أحد الأطباء لفحصها وعلاجها.

فردت عليه بكلام عذب فرجت به عن نفسها الكرب قائلة: حبيبي ونور عيني إني والله لا أشكو مرضاً ولا أشعر في جسمي ألماً، وكل ما في الأمر أن سبب شقائي وضعفي واصفرار وجهي كله لإجلك لإنك أيها الكريم دخلت العقد الخامس من العمر ولم ترزق وريثاً يحيي ذكرك بعد موتك.

واعتقد يا سيدي أن لا فائدة ترجى مني، ولربما أن أكون عقيماً وغير صالحة للحمل، ويؤيد حدسي هذا هو تأخري عن الحمل كل هذه المدة التي مضت من زواجنا حتى الآن، فبحق الحب الذي بيننا أن لا تحرمنا من نعمة الأطفال وأن تقضي لي حاجة أريدها منك، ولا تخيب لي مطلباً لأن بقضائها ستعود صحتي إلى ما كانت عليه قبلاً.

فأجابها زوجها قائلاً: إكراماً لك ولحبنا الطاهر أعاهدك بإن لا أعصي لك أمراً، ولا أرد لك طلباً ولو كان به ذهاب حياتي، إلا أمر واحد لا يمكنني قضائه، إذ أني قرأت ضميرك وما في نفسك من شوق إلى زواجي في امرأة ثانية طلباً لجلب الأطفال، فاتركي هذا الأمر إلى الله العلي العظيم وتوكلي عليه تعالى ولا تيأسي من رحمته، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

أما ما تحدثه نفسك به بإنك عقيمة قبل أن تتحققي منه، فهذا كفران بالنعمة وموجب للنقمة، لأن الله جل وعلا لم يطلع أحد على غيبه وكم مرة تلوت أمامك قوله تعالى في القرآن الكريم: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام" إلى آخر ما جاء في الآية. ومع هذا فما يدريك أيتها الحبيبة أن العقم بعيد عنا، وأن الوقت لم يحن بعد لقوله عز من قائل: "لكل أجل كتاب".

فيجب علينا أن نسلم أمورنا لحكم القدر طائعين راضين، وإن كان لنا نصيب في أطفال فلا يمكن لأحد من الناس أن يحرمنا منه، فأملي بك أن لا تتألمي ولا تحزني لأن حزنك وألمك يشقياني فاشفقي على زوجك وعلى نفسك.

والأولى بنا أن نتوجه بقلوبنا لربنا، ونشكوه مصابنا، وندعوه أن يرحمنا، ويشفق علينا، ويسعدنا بأعطائنا مطلوبنا، لقوله جل شأنه: "ادعوني استجب لكم"، وعلينا في سحر هذا الليل أن نصعد الى تلك الرابية، قاصدين ربنا الكريم دون أن يعلم بنا غيره نطلب بدعائنا اليه تفريج كربنا وإعطائنا سؤالنا أنه سميع مجيب.

فإجابته: إنك ياسيدي أزحت عني بقولك هذا كابوس الهم، وارحت ضميري من جميع الوساوس التي حاقت بي، وزالت به جميع الغمم، فنعم ما نطقت به، وها أنا مستعدة لمرافقتك لنطرق باب هذا الكريم وندعوه ونتوسل إليه، وما عساه الا قابلنا وسامع لدعائنا ومجيبا لسؤالنا فإنه جواد كريم.

في سحر تلك الليلة غادرا البيت بعد ان تطهرا، دون أن يشعر بهما أحد، وصعدا إلى أعلى الرابية الواقعة في جنوب المنزل، وحال وصولهما استقبلا الكعبة وصليا وقاما بالدعاء إليه تعالى اثناء سجودهما وركوعهما متوجهان بقلوبهما الجريحة إليه، يذرفان الدموع الهتونة من ماقيهما بكل انكسار، ويعلم الله كم من الوقت بقيا في خلوتهما، وعند الفجر الأول عادا إلى البيت والناس نيام وكلهما آمال بإن الله استجاب لدعائهما وانه لا يفشلهما. وستنعم الزوجة بالحمل، ويرزق الزوج بالطفل، وتنفرج الأزمة وتزول الغمة، وما مضى الا الوقت اليسير حتى ظهر الحمل على حمده، وشكرت ربها على هذه النعمة، ففرحت بحملها وازدادت سروراً على ما حباها الكريم من إجابته طلبها وإنعامه عليها. فذاع الصيت بين العرب، وابتهجت لهذا الحمل وصارت تقوم بمنازلها بالمهرجانات والغناء، تقترن بحداء الرجال وزغاريد النساء لهذا الحدث الذي اعتبروه حادثاً عظيماً، ويدعون الله في سرهم ونجواهم أن يأتي هذا المولود ذكراً تقر به أعين والديه والعشيرة معاً، وصار الوالد يقيم في بيته الدعوات، وينحر الجزر ويذبح الأغنام لقومه، ويفرق الصدقات للفقراء والمحتاجين، والكل في هذه العشيرة ينتظر ميعاد الولادة ليتم الفرح بقيام الأم سالمة وبحملها غانمة.

ولما جاء ميعاد الولادة، أصاب حمده بعض الآلام التي تسبق الولادة ابتداء من الهزيع الثاني من الليل، وزاد الطلق في احشائها، واجتمعت الدايات وبعض نساء العشيرة التي منازلهن بالقرب من بيت هذا الزعيم، وحينئذ قام حمد من فراشه الذي ينام فيه بالمحرم ودخل إلى الشق المعد للضيوف وأوقد النار به وجاءه الخدم بالحطب والقهوة والدلال "إي أباريق القهوة" المعمولة من النحاس والمحمصة وباقي الأدوات وجيء بالجرن الخشبي لدق القهوة بعد حمصها به، ولما سمع رجال العشيرة صدى صوت الجرن الذي يقال له المهباج أو المهباش قاموا من نومهم مسرعين للشق جماعات ووحدانا ليقفوا على السبب الذي ادى بدق الجرن وعندما وصلوا وبلغهم الخبر جلسوا في الشق يسمرون منتظرين مجيء البشير إليهم كالعادة المتعبة في عشيرتهم وعند ملامح الفجر من الشرق وإذ بالزغاريد ترن في الحرم وإذا بالبشير يأتي ويبشر جميع الموجودين في الشق بميلاد المولود الذكر في صحته تامة وكذلك والدته. فتجددت الافراح وصارت الرجال تغني بالأهازيج البدوية وجددت القهوة ثانية ونحر جزوراً من النياق السمينة إكراماً لهذا الضيف العزيز حتى اضحت الشمس ونضج الطعام فتواردت العربان على بيت زعيمهم وباركوا له في هذا الغلام وبعد أن طعموا وشربوا القهوة طلب من الوالد أن يؤتى بالمولود لتراه رجال العشيرة ويباركونه ويقومون بتسميته بصفته زعيمهم المرتقب فجيء به تحمله العجوز التي صارت مربية له وقدمته إلى أكبر شخص في الموجودين وهو شيخ جليل يتجاوز الثمانين من العمر فكشف الغطاء عن وجهه حتى شاهده الجميع ووضعه في حضنه وقال لهم هذا ابن زعيمكم الحالي وزعيمكم في المستقبل إن شاء الله فاتفقوا على تسميته واختاروا له اسماً لائقاً به وبوالديه فأجابوه بلسان واحد أنت أكبرنا سناً واعلانا مقاماً وفهماً فلا يحق إلينا التجازو عليك ونطلب منك أن تختار له الأسم بما يهبك الله به من الفكر والخير.

وعندما سمع هذا الشيخ ما قاله رجال العشيرة لثقتهم به صمت قليلاً وقال: أيها الأبناء البررة أن غلامنا هذا ولد عند فجر النهار ولم يصب بأذى وقامت والدته من وضعها سالمة وإني أرى الخير في وجهه وسيحمد بإعماله وأفعاله فاشير عليكم أن تسموه "تافيج" هذا بلغة البدو أي توفيق بلغة الحضر حتى يكون فريداً بعشيرتنا وحينا في هذا الأسم ويكون لأسمه هذا فالاً حسناً.

فانشرحت صدور الحاضرين لهذا الأسم ووافقوا عليه وقد شاع في الحي تسميته في هذا الأسم، وبعد أن قام رجال العشيرة في تقديم "النقوط" الهدايا حسب العوائد المتخذة فيما بينهم أعيد لوالدته بمعرفة المربية المذكورة.

زادت الآلام في قلب الجرو لهذا الحدث الذي لم يكن بانتظاره ولا خطر لباله بإن أخاه سيرزق وارثاً من صلبه فاشتعلت نيران الغيرة والبغضاء في قلبه وكاد الحقد واللؤم يفتكان به ويااليتهما فتكا. ضاقت الدنيا عليه بما رحبت ولم يجد له خلاً يبثه آلامه وأحزانه إلا زوجته سلمى الذي يعقتد بان لا ناصر له في العشيرة إلا هذه الزوجة لاسيما وهو بعلها والفائدة مشتركة بينهما وما عليه الا ان يشكو اليها أمره ويعرب لها عما في ضميره ويطلعها على ما تخفيه سريرته إذ لربما أن يجد عندها الدواء الشافي لجراحه وتخرجه من مأزقه الحرج ومن ضيقه مخرج وقد صمم على مفاتحتها بأمره عساها أن تفرج همه وترشده إلى رأي يسدد به خطاه. وذات ليلة بعد التفكير حادثها بهذا السبيل وشكى إليها ما ينعم به أخوه من الأمر والنهى وبُعد الصيت بينما هو خامل للذِكر ومهان في العشيرة وطلب اليها أن تهديه الى طريق يسلكها تفرج بها عنه كربه قائلاً:

"اعلمي يا زوجتي الحنونة ها أنتِ تنظرين تصرف أخي حمد بالبيت والأموال وما يبذله من العطاء والكرم للعشيرة ولمن يأتيه سائلاً من الخارج حباً في ظهور اسمه ويشار اليه بالبنان ولهذه الأسباب فإن العشيرة وغير العشيرة اجمع على حبه واحترامه وانا قابع في عقر الدار لا سائل ولا مسؤول بل متروك في زوايا الأهمال والنسيان لا فائدة لي ولا مكسب إلا الكسوة والطعام مع إني شريكه في البيت والحلال ولي الحق التصرف بحقوقي في هذه الشركة ولما لم أقدر على تحمل هذه العيشة الذليلة وما اجده من اخي وغيره من الاهانات فقد صممت على مطالبة هذا الاخ الأناني بحقوقي من الثروة حتى لا أبقى خاملاً في هذه الحياة واضحوكة بين الناس، وعندما تخرج حصتي من يده يخيم الفقر عليه ويضطر للتقتير على نفسه وعشيرته وتضعف قوته ويسقط مقامه وتنفر العشيرة منه.

أما نحن فإن أحوالنا ستتحسن بعد استقلالنا في بيت على حده ونعيش بما لدينا من الثروة عيشه رخية وعندما ترانا العشيرة قد اصبحنا احراراً وبثروة طائلة فإنها تتجه بأنظارها إلينا ونشكل منها نزلاً كبيراً فاسود على اخي وافوز بالزعامة والرياسة فماذا أنت قائلة؟.

وما أن سمعت سلمى حديث زوجها الذي لم تسمعه منه فيما سبق كادت تطير فرحاً لأنها تريد أن تستقل في بيت لوحدها وتكون ذات إبل وغنم وسيدة تأمر وتنهى كزوجة شقيق زوجها حمد غير أنها لا تعتمد على زوجها سيما وهي تعرفه بأنه يهرف بما لا يعرف ولا يجرأ على مجابهة أخيه أو التفوه أمامه بما سمعته منه وكذلك معرفتها بتصرفاته الخليعة وبغض العشيرة إليه كل ذلك اثباتاً لحدسها بعدم الاعتماد عليه.

وشكت في أمره إذ لربما أن يكون هذا الخليع بشكواه هذه أن يقف على دخيلة نفسها وما تضمره في قلبها نحو أخيه والتفريق بينهما فاتخذت الحيطة لنفسها فاخفت ما يكنه قلبها من المكر وأظهرت إليه إشارة التعجب لهذه الفكرة وضحكت في وجهه ضحكة مغتصبة كأنها تقول له إنك غير محق بهذا الطلب.

ثم قالت: أي زوجي العزيز إياك أن تنسى إجماع العشيرة على حمد فانه لم يك من أجل العطاء كما تقول فحسب، بل من أجل شجاعته وأدبه ومحافظته على قوميته وخدماته الصادقة التي يقوم بها نحو هذه العشيرة وغيرها، والتي يقدرها له القريب والبعيد ممن عرفه، وبالفرض إنه صار فقيراً أو معدماً كما ذكرت فإن العشيرة لا تتركه ولا تخذله بل العكس فإنها تناصره وتساعده وتفديه بالنفس والنفيس.

ومع هذا وإن كنت أتألم لألمك واغتبط لسرورك وسعادتك فإني أريد لك الخير والرقي في المقام، إلا أنني أرى بإنك غير محق بما تضمره، ويكفينا ما نحن فيه من العز والهناء ورغد العيش وأجمل صفاء بظل هذا الأخ الحنون الذي أجد فيه النخوة والشهامة وجدير بنا أيها الحبيب أن نحترم هذا البطل ونجله ونأتمر بأوامره لأنه أكبر منك سناً وقد رباك صغيراً وعطف عليك كبيراً، ويجب أن يكون معززاً ومكرماً فأبعد عنك هذه الوساوس واحترم أخاك كما يحترمه باقي الناس، وإياك أن يتسلط الوهم عليك وحبه كما تحب نفسك وأبذل قصارى جهدك أن تترك ما أنت عليه من الخفة وأكتم ما في نفسك ولا تظهر عليه أحد واستعن على قضاء حاجتك بالكتمان واظهر أمام القوم بمظهر الرجال الأخيار وصادق الاطهار وتحبب

إلى أهلك وعشيرتك وأبذل الخير والعون لمن يقصدك حتى تجد من ينصرك على أخيك فيما إذا بقيت مصراً على فكرتك لتنال المعونة في الحصول على حقوقك وحينئذ تستقل في بيتك وتحصل على رغبتك والأيام كفيلة لتنال مطلوبك وهذا ما أشير به عليك وأسأل الله تعالى أن يرعاك.

فلما سمع هذا الإرشاد قال إنه نعم الرأى ووجدتُ لقولك هذا حكمة وسأبذل كل جهدي للقيام بنصحك وتنفيذ ما أرشتدني إليه وسأصبر حتى يحين الوقت المناسب للوصول فيه إلى حقوقنا إن شاء الله.

إغتبطت سلمى لانقياد زوجها لارادتها وعدت ذلك فاتحة لسيطرتها وتحقيق ما تأمره به فيما بعد. وأبعدت فكرة شكوكها في أمره من الأستدراج وهيأت نفسها لأن تكون في المستقبل مرشدة إليه وراعية لشؤونه وتجبره على أن تجعل جل أعتماده عليها للمجابهة وهي بعيدة كل البعد بنظر العشيرة وزعيمها وغير معاتبه على أعماله. فقالت: يا أبا سعد أرى أنك أصبحت خليقاً بأن تكون للعشيرة سيداً وقائداً ولعهودهم حافظاً وأميناً وستكون بنظر غيري جليلاً وعظيماً، فاحرص على ما نصحتك به وأصبر فإن الدهر لا يصبر.

فقبل قولها وحياها على هذه الفكرة العبقرية التي اسدتها إليه من النصائح والإرشادات وتعهد إليها بإنه سيكون للدهر صابراً ولأرائها الثمينة قانعاً ومنفذاً.

الفصل الثاني

وفاة الزعيم حمد وتولي جرو الزعامة

في عام 1322هجرية أصيب الشيخ حمد بالنزلة الصدرية الحادة الزمته الفراش مدة غير يسيرة. ولما اشتد به المرض وعجز عن مقاومته، وأصبح في خطر منه وأن أجله قد دنى ولا فائدة ترجى من شفائه طلب إلى أهله أن يجتمعوا عنده ويحضر رجال قومه لمجلسه وبعد أن تم مجلسهم طلب إليهم أن يجلسوه ويسندوا ظهره، وبعد ذلك رجاهم أن ينصتوا إليه ويعوا قوله وقال:

إخواني وأبناء عشيرتي ها أنا الآن على فراش الموت لا حول لي ولا قوة وبعد قليل سأفارقكم وهذه الدنيا الفانية قرير العين لاعتقادي في حبكم إياي حباً صادقاً كحبكم أنفسكم وإني أريد أن اتحدث إليكم حديثاً أحببت فيه إرشادكم إلى ما فيه صلاحكم فأقول إني أستودعكم الله وأوصيكم بتقوى الله وطاعته والدوام على الصلة الطيبة فيما بينكم وتعاضدوا بعضكم بعضاً وتكونون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص وتبثون المحبة والسلام بينكم، ولا تجعلوا لأهل الشقاق والنفاق سبيلاً لبث الفرقة والعداوة، وأوصيكم بأخيكم جرو ومساعدته كما ساعدتموني من قبل وسودوه عليكم إذا وجدتم به خيراً لتحفظون لهذا البيت حرمته الذي قام أهله بخدمتكم بكل جد وأمانة وإخلاص.

وأنت يا جرو أوصيك بتقوى الله والرفق بنفسك وأهلك وعيالك وأفراد العشيرة صغيراً كان أم كبيراً، وارأف بهم وأحترم كبيرهم وأرحم فقيرهم وساعد عاجزهم وأجعل نفسك خادماً أميناً إليهم وأباً رحيماً بهم وأحفظ عهودهم وأعراضهم وأموالهم واوفي بالوعد الذي به توعدهم وأحرص على حفظ القلوب من الآسى فإنها يا جرو مثل الزجاجة كسرها لا يجبر.

ثم شاورهم في الأمر ولا تبث به إلا بعد التمحيص وموافقة ذوي الرأي منهم حتى لا تقع في غلطة تسيء بها إلى قومك فتندم على ما وقعت به حيث لا ينفعك الندم. ولا أرى لزاماً لاوصيك أنت وجميع أهل العشيرة بولدي وأمه لعلمي بأنكم ستكونون إليهما خير عون ولا يشعران بفقدي ويتجرعان مرارة الذل بعدي بعد أن كانا عزيزين.

وإني لأرجو الله العلي القدير أن يوفقكم جميعاً للقيام بما أوصيتكم به وتكونوا خير أمة أخرجت للناس، فعاهدوني أيها البرره "يقصد رجال العشيرة" أمام الله بأن لا تنكثوا لي عهداً وتنفذوا كل ما أردته منكم وأبغاه في كل شهامة وصدقاً. فقام جرو واقفاً والناس في صمت كأن على رؤوسهم الطير وعبرات النفاق تذرف من عينيه، وقال: إن الموت بعيد عنك يا حمد وستبرأ بعون الله من مرضك هذا وتعيش إن شاء الله طويلاً وتبقى زعيماً وقائداً لنا وحامي حمانا فدعك يا أخي من هذا الوهم ولا تجعله يتسلط على أفكارك ومع هذا فإذا لا سمح الله تعالى وجرى لك بما تتوهم به فإني أقسم بالله العظيم لك ولعشيرتنا معاً بأني سأقوم بتنفيذ وصيتك التي أوصيتنا بها وسأسير على منهاجك الذي انتهجته نحو العشيرة وسأكون راعياً لولدنا تافيج العزيز ومربياً له تربية صالحة وسأحترم والدته الأحترام الذي يليق بها ولن ترى مني إلا ما يسرها ويعزها فكن مطمئن البال وحسبي الله ونعم الوكيل.

فلما سمع العليل مقالة أخيه ظهر السرور على محياه وقال بورك فيك يا جرو وأسأل الله أن يوفقك بجميع شؤونك وأن يهديك لأن تكون في عهدك صادقاً وفياً.

ثم قام رجل من وجوه العشيرة طاعن في السن وهو الذي قام بتسمية تافيج والألم يحز في نفسه والحزن بادٍ على وجهه والدموع تترقرق في عينيه وتكلم قائلاً: إني وأبناء عشيرتك نعاهدك يا حمد أن ننفذ وصيتك ولا ننكث لك عهداً ونكون لأخيك جرو خداماً اوفياء ولأمره وأقواله سامعين وإلى ركابه تابعين ما دام وفياً لأهله والينا وصادقاً فيما تعهد به إليك ومنفذاً وسنحافظ على ولدنا تافيج ووالدته ونكون إليهما أباءً وإخواناً ونسهر على راحتهما وما يحتاجان إليه وثق أيها الكريم أننا لا ننسى أيادي حمده البيضاء علينا ونطلب الى الله أن لا يفجعنا بك ولا يحرمنا إياك.

فابتسم العليل لما سمعه من هذا الشيخ الجليل لاعتقاده بأن قوله هذا صادر عن صدق وإخلاص وحسن طيبة وقال: مرحى لكم أيها الأحباء وأقول إليكم هاأنا أديت الأمانة التي حملتها حال حياتي وحملتكم إياها وأكتفيت بما عاهدتموني عليه وسألقى وجه ربي مطمئناً فارجوكم أن تسامحوني فيما إذا قصرت بواجبكم حال حياتي مع الدعاء الى الله لي بالرحمة والغفران.

وهنا عجز عن التكلم والإشارة حيث دخل في دور الاحتضار والنزع الأخير ولم يمكث إلا برهة قصيرة حتى لبت روحه نداء باريها.

انتشر خبر وفاة هذا الراحل الكريم في حي العشيرة وتوافد الرجال ممن لم يحضروا ساعة الوفاة ليزدادوا من رؤية وجهه ووداعه قبل مواراة جثمانه القبر وجاءت النسوة للمحرم للاشتراك في المأتم وتبدلت الأفراح أتراحاً وعم الحزن الجميع وشمل الكبير والصغير وارتفع صوت النحيب والعويل وما عدت ترى إلا أصواتاً صاعدة وعيوناً باكية وقلوباً يتفطر لفقده اسىً وحزناً.

واستولى الذهول على الجميع حتى أن البعض منهم يكذب ما أشيع عن وفاته بهذه السرعة لأنه كان قبل قليل يحادثهم ويسامرهم وكانوا يقولون لا تتطيروا يا جماعة فإن حمد لم يمت ولربما أنه أغمي عليه من شدة المرض فرشوا وجهه بالماء ونشقوه بالروائح العطرية عساه أن يصحوا من غيبوبته ولكن أنى لهذه الروائح أن تعيد إليه الحياة. مضت تلك الليلة والناس تنعيه وتنتحب لفراقه وتبكيه لفقدهم إياه وفي صباح اليوم الثاني لوفاته غسل وكفن ووري التراب عليه الرحمة والرضوان.

تصدر مجلس الفقيد أخيه جرو يستقبل وفود المعزين من العشائر المجاورين مظهراً لمن وفد عليه شدة حزنه عليه وشقائه بعده حتى ليبدوا للناظر إليه والسامع لهرجه بأنه لابد وأن يصاب بمرض يلحقه قريباً بأخيه أو أن يفقد عقله لعظم مصابه به غير عالمين بأنه يضمر غير ما يظهر وما صدق أن جاء هذا الحدث واستراح من زعامة أخيه ليقوم مقامه ويشبع نهمه من حب الرياسة وينادى به زعيماً للعشيرة وقائداً إليها غير حاسب للمثل العربي الذي يقول:

ومن طلب العلا بغير كدٍ   أضاع العمر في طلب المحال

ومضت مدة الحداد أربعون يوماً وتفرق الناس لأشغالهم وأعمالهم والعم جرو يزعم بأنه تم له ما أراد وملك الدهر وحكم في العباد فترك الحزن ونسي الفقيد وانغمس في اللهو والخلاعة وصار يجالس في مجلسه بدل الرجال المحترمين وذوي الرأي المشهورين حفنة من الرعاع والمنافقين وترك حبل العشيرة على غاربها لا يسأل عنها ولا يقوم باودها ولا يقضي حاجة لمن كان منهم محتاجاً للمساعدة واستبدل وجوهها وشيوخها ببعض شبان خاملين الذكر يشاركونه لهوه وطيشه ويصورون له السواد بياضاً والبياض سواداً، فيقبل منهم أقوالهم بلا ريب ولا شك وقد اتخذهم خلاناً يعتمد على نصرتهم ويعتز بهم ومايشيرون به عليه هو الصواب مهملاً رجال العشيرة وشأنهم لأنهم أنصار أخيه واعتقاده بأن لا فائدة له منهم وقد صمم أن يجافيهم بما يبديه لهم من الحطة في قدرهم ليكونوا اذلاء صاغرين لأوامره مطيعين راضخين.

وقد غاب عنه أن هؤلاء الآباء لا ينامون على ضيم ولا يخضعون لعاهر ولولا العهد الذي قطعوه لفقيدهم والمحافظة على زوجته وولدها لخلعوه من الرئاسة وطردوه من الحي فصبروا على مضض إذ لربما أن يعود ويثوب الى رشده ويراعي الذمام ويحفظ العهود. تركوه وشأنه وتجنبوا مواجهته وعدم زيارته في بيته وألفوا لهم مجلساً يضمهم في سمرهم وشوارهم في بيت من هو أكبر سناً بينهم.

تزعمت سلمى زوجة هذا الذليل الذي ترك لها تصريف الأمور بحسن إرادتها لاهياً عن أعماله التي توجب الاهتمام على الأقل في حفظ ماشيته وحلاله في مرافقة خلانه واتباعه وصارت هذه الزوجة تقرى الضيف بغيابه وتوصل من تريده وتمتنع عن مساعدة من تقطعه مهما كان قريباً أو بعيداً والحل والربط بيديها تأمر وتنهى بلا معارض ولا منازع حتى ذاع صيتها بين صويحباتها المغمورات بعطائها وخيراتها من نساء حيها وزاد في زعامتها انقياد زوجها لها واطاعته إياها إطاعة عمياء ولا يسألها عن أعمالها ولا يقبل عليها شكاية من أحد ولا يقدر أحد ممن حولها أن يخالفها أو أن يشكو منها ولو كانت ظالمة.

أما حمده الحزينة التي هي بعد فقدها فارسها صارت قابعة في عقر دارها تشكو همها الى الله وتبث حزنها إليه وقد تغافلت عن كل ما تراه أمام عينيها من الخراب والدمار الذي أحاط بهذا البيت وإن دام فسوف يهدم أركانه ويزول عنه

عزه وسعادته واكتفت بالقيام على خدمة وليدها الذي هو قطعة من كبد المرحوم حبيبها وتربيته تربية صالحة حتى يخلد ذكر والده ويبقى لها ذخراً وسنداً ولا تريد من دنياها إلا أن تضم وليدها لصدرها وتحنوا عليه وتتسلى بوجوده قربها ويسرها أن تلتصق به وإذا مشى مشى قلبها معه أو ضحك رقصت جوارحها له وإذا تكلم كلها أذاناً صاغية لأقواله حتى لا يفوتها شيء منه لعله يلتمس منها شيئاً يسره ولو كان في ملمسه هذا ما يزيد بشقائها حتى ينال مبتغاه وينعم في سروره في دنياه وركزت همتها على خدمته وتربيته واضفت عليه حبها وحنانها. ولا يزعجها في دنياها إلا غيابه عنها لأن غيابه بصرها ولو قليلاً يعاودها حزنها وبكائها ويتصور أمامها ذكرى الراحل الكريم.

ويزيد في حزنها وإيلامها الوحدة التي هي فيها وعدم إشراكها في أمور البيت وعدم احترام النساء الزائرات للبيت إليها وأصبحن يتوجهن بمدحهن الى سلمى وزاد إيلامها عدم وفاء شقيق زوجها المدعو جرو بالذي عاهد عليه زوجها الراحل أمام رجال العشيرة وبدلاً من أن يكون لها ولولدها الصديق الشفوق قد تركهما في ذلهما ولا عاد يفكر بهما أو أن يسأل عنهما وقد تجنب مواجهتهما والانقطاع عنهما وجعل أمرهما الى زوجته تحكم فيهما كيف تشاء وزاد في ظلمه أن اوكلها بأمورها وكل أمر فيه إهانتهما والإسائة إليهما ولو عن طريق اللؤوم والخبث دون رحمة ولا شفقة معتقداً أن ذيك يعرضهما للأمراض الوبيئة والموت السريع وبذلك يتخلص ويستريح من مضايقتهما ويصفى الجو إليه ولزوجه وولديه وينعم هو وذويه في هذه الثروة والموال. كل ذلك كان يصل الى مسامع حمده فيزداد ألمها ولا تجد فرجاً من هذا البؤس وازدياد ذلك الظلم إلا البكاء وذرف الدموع والشكوى الى الله.

صبرت هذه الحزينة على هذه المعاملة القاسية التي كاد أن ينوء بها ويجعلها فريسة للأمراض الذي كان جرو ينشده لها ولولدها والعجوز خادمتها حتى يبلغ به وطره وبرغم شدة هذا العذاب الذي يعجز عن تحمله كل جبار فاق عقلها السليم آنار اليها طريق السلامة وأرشدها الى التفكير فيما إذا بقيت على حالتها من الحزن فإنها سوف تمرض وتموت ويلحقها ولدها وعليها أن تترك ما هي فيه وتصبر على هذه الرزايا وتتحمل كل ما يقابلوها به هولاء القساة قساة القلوب وتعود لتربية ولدها والمحافظة عليه ولا تجعله يشعر بما يصيبهم عسى أن يجعل الله لهم فرجاً قريباً ويحن اليهم بالسعادة الأبدية والرشاد الى الخير والصلاح.

نقضت حمده العاقلة الكريمة الحزن عنها وتركت البكاء وارضت نفسها بالرضاء عن ما تقابل فيه من ظلم واستبداد وقبعت على تربية ولدها وحبيبها ولا تهتم بغيره وصارت تحدثه عن طريق الخير والابتعاد عن الشر وأن يحب للناس كما يحب لنفسه حتى إذا كبر يصير رجلاً كفؤاً للقيام بمقام والده وتزول عنها مصائبها وتتبدل اتراحنا أفراحاً والمآسي مسرات وأن الله جل شأنه لا يتركنا وسنصرنا على القوم الظالمين وأظهرت كل فرح وسرور عندما شاهدت ولدها يصغي الى أقوالها ويسألها بعض الأسئلة عندما يحتاجه لزيادة فهمه ووعده إياها بأنه سيقوم بتنفيذ كل ما اهدته اليه فقبلته بين عينيه ودعت الله الكريم بالتوفيق له وكررت القول له بأنها الآن صارت راضية عنك وسأجعل عيشك هنيئاً حتى لا تبقى في حياتك بائساً حزيناً.

وعلى هذه الفكرة دأبت على خدمته وتربيته وغرست خوف الله في قلبه والإجماع على محبته للناس عامة وأفراد عشيرته خاصة مظهرة اليه السرور فتضحك أحياناً لما يبديه من الأفعال والأقوال الصبيانية وتحثه على أن يقوم في الصباح مبكراً ويذهب الى الشق "محل المضيف" ويحيي الرجال ويقبل يد عمه ويجلس بينهم عسى أن يحن هذا العم عليه ويحبه مثل أولاده.

وكان تافيج ذا خلق حسن مطيعاً لأمه وعندما ترشده لشيء فيه صلاحه يلبي طلبها ولا يخالف لها أمراً فيذهب الى الشق في الصباح وعندما يدخل يقدم لعمه وللحاضرين التحية والسلام يجلس بينهم بكل هدوء وأدب ينصت لأحاديثهم في سمرهم مما جعل الرجال يعلنون حبهم اليه وامتداحه لأخلاقه ويدعون الله بطول العمر والنجاح.

أما العم جرو وإن كان ضميره غير حي ولا يهتم لأمر هذا الغلام ويتمنى له اللحوق بوالده إلا أنه خاف الانتقاد فصار يهش له تارة ويبش في وجهه تارة أخرى وعندما يخلو الشق من الرجال يأمره بالعودة لوالدته بطريقة غلظة. فينصاع لأمر عمه ويعود حزينا الى امه ويعلمها بما جرى له من عمه فتتظاهر بعدم الاكتراث وتجبر قلبه وتعتذر له عن غلظة عمه حتى لا يتالم ولا يحزن. وهكذا صار دأبها في تربية ولدها صابرة على كل بلاء الى ان يأتي الله بالفرج.

الفصل الثالث

والدة تافيج تلحق بزوجها

توفي حمد وترك زوجته حمده في أول حملها وكانت مغتبطة لهذا الحمل عساها أن تلد غلاما آخر يكون ساعداً قوياً لأخيه تافيج وخلفاً ثانياً لفقيدها المرحوم وبأواخر شهرها التاسع وفي ليلة شديدة البرد جاءها المخاض واشتد الآلم في أحشائها فصبرت على أوجاعها فلا تشكو ولا تتكلم حتى لا تضايق سكان البيت وأهل الحي فتركت الاضطجاع وجلست على الفراش تشكو الى الله همها وضعفها وتدعوه أن يلطف بها ويخفف عها ما يؤلمها وان يقيمها من هذه الشدة سالمة لتكمل ما تعهدت به لنفسها من تربية ولدها والذي ستضعه من حملها لكن ازدياد أوجاعها الشديدة والتي تكاد تمزق احشائها من الالم ترجح لديها أن الموت أقرب اليها من الحياة وانها ستكون لاحقة بزوجها بالقريب العاجل لانها تمثلت أمام عينيها شبح زوجها وكأنه يقول إليها: "هيا تعالي الي ايتها الحبيبة لاضمك بين جوانحي وتستريحي من آلامك وهمومك التي خلفتها اليك واتركي هذه الدنيا الفانية وستسعدي في دار الآخرة التي أعيش أنا فيها في بحبوحة من السعادة والهناء لأن وجودك في دنياك وانت بهذه الحالة من الذل والألم يزعجني في الدار الباقية.

أسرعي ايتها العزيزة اسرعي باللحوق بي وأنا الضامن اليك بأن الله جل وعلا سوف يعطيكي العطاء الاوفر لحسن ما قمت فيه من خدمة زوجك وولدك والخدمة الصادقة للعشيرة ويدخلك الجنة وتسكني فيها بجواري ولا تخافي ولا تحزني واتركي تافيجنا الى ربه وهو الذي يحفظه ويرعاه في دنياه ويشمله بكرمه وجوده ولا يجعل لاحد عليه سبيلا وثقي يا عزيزتي فإن ولدنا ينجح في حياته ويعلو مقامه في دنياه وسيصبح رجلاً عظيماً وشهماً كريماً. لا يضيرك ايتها الكريمة أن تتركيه لعناية ربه وهو اشفق منا عليه فصدقي قولي وأطيعي أمري ولبي طلبي وتوكلي على الله واجعلي كل اعتمادك عليه".

فلما تصور لها هذه الصورة وما تمثل إليها من الوساوس رأت أن تفر من فراشها وتهيم على وجهها تحت ستر هذا الليل الدامس وتخرج الى البرية عسى أن يفرج همها ويخفف عنها آلامها وأوجاعها. نهضت من مجلسها واقفة لتنفيذ الفكرة التي فكرت بها من الفرار الى البرية وعند وقوفها أصابها دواراً وسقطت على الأرض فاقدة الوعي فأثار سقوطها هذا حركة سمعتها خادمتها العجوز التي كانت نائمة قرب فراشها وهي القائمة على خدمتها وتعهدها كأنها ابنة اليها فاسرعت اليها ولما رأتها مكبة على وجهها ومغمي عليها صاحت مولولة طالبة النجدة والمساعدة حتى لا تموت من اسباب إغمائها فهرع على صياحها بعض نساء الحي فاسرعن لاسعافها ورششن المياه على وجهها وانشاقها المنبهات وبعد قليل أفاقت هذه الحزينة المسكينة من إغمائها وسألنها عن مصابها وما سبب إغمائها فأشارت اليهن بأن الألم يفتت كبدها ويقطع أمعاءها من اسباب المخاض للميلاد فافرجن عنها بأقوالهن ونصائحهن وأعلمنها بإنه لابد من صبرها وتحملها على آلالم والأوجاع وستلد مولودها قريباً وتقوم سالمة ان شاء الله.

تعجبت من أقوالهن وقالت إني أعرف نتيجة ميلادي وأرجو منكن الاصغاء وقالت بكلام متقطع: يا بنات اعمامي واهلي ارجو منكن عدم الهزء بي وصدقن ما أقوله بأني لا اعيش فيما بعد بينكن في هذه الدنيا لأنه بغفوتي التي غفوتها أثناء الغيبوبة زارني حمد وبشرني بأني لاحقة به بأقرب وقت وأنه رجا ربي أن يكرمني وقبل رجائه وأنعم علي بقصر جميل في الجنة بجواره كي استريح من عذاب الدنيا واحظى بنعيم الجنة في الآخرة وطلب الي أن اترك بيت الشعر لأهله وأسرع باللحاق به. وبناءً على بشراه الي هذه البشارة فقد وافقته على طلبه ورافقته وذهبت معه ورأيت القصر ودخلته وسكنت به.

وهاأنا بالقريب العاجل لاحقة به للسكنى معه إلا أنني قبل رحيلي عن الدنيا اوصيكن وأفراد العشيرة والعم جرو سامحه الله بولدي خيراً وتحرصوا على حياته ومساعدته في حله وترحاله كحرصكم على أنفسكم وأولادكم معاً وتوفون بالعهد الذي عاهدتم به والده قبل رحيله ويجزيكم العلي العظيم عني وعن حمد خيراً.

بقيت حمده بعد إتمام قولها تقاسي من الأوجاع وشدة الآلام ما شاء الله مدة ثلاثة أيام بلياليها بلا ولادة لإنه تعسرت ولادة الجنين ولم يعد بالإمكان نزول هذا الجنين من احشائها إلا بمعرفة طبيب أخصائي ولكن اين للطبيب أن يوجد لأن الأطباء يسكنون في المدن وعربان هذه المريضة بعيدة عن العمران ولا يوجد من أسباب النقل إلا الجمال التي يحتاج سفرها للمدن التي يوجد بها الأطباء إلى أكثر من يومين والمريضة في حالتها الحاضرة لا تحتمل مشاق هذه السفرة لاسيما

والموسم موسم برد وشتاء. وعندئذ فإن النسوة المجتمعة عند الولادة قررن أن تقوم القابلة البدوية بإدخال يدها في الرحم وتخرج المولود منها حياً كان أو ميتاً حتى تنقذ حياتها وتخلصها من آلامها وأوجاعها.

أجرت القابلة العملية المطلوبة وأخرجت المولود بكل جهد وعناء وإذ به ذكراً وميتاً. بعد خروج المولود من حمده استراحت قليلاً وخف الألم والوجع عنها نوعاً ما وإن يكن قد عز عليها ذهاب ثمرة فؤادها إلا أنها شكرت ربها على الخلاص من هذا العناء وابلالها من مرضها وقيامها لولدها سالمة.

لكن القدر أبى عليها ذلك وأوقعها في الحمى النفاسية ونزيف الدم الذي أصابها حتى أصبحت مما نزف بها من الدم ومشاركة الحمى اليه ضعيفة الجسم ولم تتمكن من المقاومة. في ضحى اليوم الرابع من الولادة أصابها إغماء شديد مكثت فيه غائبة عن الوجود حتى الظهر ثم أفاقت من غيبوبتها وطلبت إجلاسها في فراشها فاجلست واستبشرت العشيرة خيراً غير عالمة بأن ذلك كان كما يسمونه صحوة الموت.

طلبت من الحاضرين أن يؤتى بولدها وفلذة كبدها فجيء به وضمته لصدرها وصارت تقبله والدموع تذرف من عينيها وقد شاركها النسوة في البكاء وأخيراً قالت له: أي بني إني وان كنت اريد تركك الى الخلق ليكفلوك ويأووك ولكن أباك منعني وطلب إلي ان أودعك لخالقك الذي هو أرحم بك من عباده وسوف ترى يا بني بأنه جل شأنه سيكفلك ويحفظك فتوكل عليه ولا تعتمد على أحد سواه.

وأنتم يا أهلي وأبناء عشيرتي استودعكم الله وسامحوني فيما إذا كان بدر مني نحوكم في حال حياتي شيء تكرهونه وأجركم على الله والله لا يضيع اجر من أحسن عملاً. وما أن تمت كلمتها الأخيرة حتى شهقت شهقتين خفيفتين واسلمت الروح.

فلا تسأل أيها القارئ بعد موت هذه الكريمة ما أصاب العشيرة من حزن لأنه بينما كانت هذه العشيرة تنتظر شفائها واسترداد صحتها جائها هذا المصاب وابدل أفراحها بالاتراح وتجددت أحزانها عليها وما عدت تسمع في هذا الحي إلا العويل والنواح وأخيراً وباليوم الذي توفيت فيه قاموا بجهازها وواروها التراب ودفنت في قبر على حده بجوار قبر زوجها.

وصار تافيج يتيماً من الأبوين وبعد ماكان في احضان أمه سلم للخادمة العجوز التي كانت خادمة لأمه لتقوم بخدمته وتربيته وقد كفلته هذه العجوز وصارت تقوم بواجبها حق قيام لكن الدهر الخوؤن لم يتركها.

الفصل الرابع

تافيج يرعى الغنم

مضى على تافيج مدة من الزمن وهو في رعاية هذه العجوز وصار في العاشرة من العمر وفي هذا العام مضى موسم الشتاء ببرده وزمهريره وجاء الربيع بدفئه ورونقه وكسى الأرض بأزهاره وشقيقه وإقحوانه والسهول المخيمة بها نزل العشيرة خاصة في الأعشاب المتنوعة والزهور العطره وأرضها المفروشة في بساط سندسي جميل من الأعشاب والرياحين والتي يخيل للرائي بأنها صارت قطعة صادقة عن الريف.

أما الأغنام فقد ولدت حملاناً ذكوراً وإناثاً وصارت تحتاج الى من يرعى بها حول البيوت عندما تكون امهاتها ترعى نهاراً في المرعى واصبح العم جرو بحاجة الى من يقوم بهذا العمل ويرعى هذا البهم وبما أن أكثرية أهل الحي قد فارقته وانفصلت عنه وتركوه وشأنه لما كان يقوم به من الأعمال المنكره وعندما لم يجد من يساعده في تصريف أموره أو معاونته في قضاء حاجاته لا بأجر ولا بغير أجر فقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت ولم يجد ملجأ يلتجيء اليه إلا زوجته صاحبة القول والشور والأمر والنهي فاجتمع بها على حده وأعلمها بما هو في حاجة اليه والصعوبات التي تواجهه وطلب منها مده برأي من أرائها الصائبة وتفرج كربته.

وبما أنها صارت في جو صاف في البيت وهي الآمرة الناهية دون محاسب أو رقيب والذين كانوا قائمين في الأمر قبلها قد زالوا عن الوجود ولم يبق لهم أثراً سوى الخادم العجوز التي تقوم على خدمة ابن الزائلين وحيث ان زوجها عاد والتجأ اليها من أجل رعي البهم فقد وجدت أن الفرصة سانحة لأن تنتقم من هذا الغلام وإرهاقه في العمل وتقليل الطعام عليه وتعريضه للحر والقر عساه يمرض ويلحق بأبويه حتى لا يبق شريكاً لولديها بهذه الثروة ومقاسمتهما إياها وجعلت المكر والخداع زينتها عارضة رأيها على زوجها قائلة له:

"يا ابن العم لا تهتم لهذا الأمر فإنه بحد ذاته بسيط وبما أن ولدنا تافيج صار في العاشرة من عمره وقوي الجسم وهو بلا عمل يزاوله كأبناء العشيرة إلا الجلوس في البيت بين النساء والخدم مما يسوقه فيما بعد الى انحطاط العزيمة والكسل لأني أراه من بعد وفاة أمه لا يشترك في اللعب مع الغلمان ولا يفارق الخادم العجوز في غدوها ورواحها كأنها هي التي ولدته وبما أني أشك في هذه الخادمة التي يراها من ينظر اليها أنها كريمة وأمينة مع انني أراها تتقلب كالحرباء تنفث سموم شرها في صدر ولدنا وأخاف إن طال الزمان عليها أن لا تحجم في تحريضه على الكيد بك وبأولادك ويشب على كرهك وامتهانك وأرى أن لا تبقي على هذه الخادمة في بيتنا واطردها منه حتى تتمكن أنت من تربية ابن أخيك وتجعل منه رجلاً عظيماً.

وثق بي أيها العزيز فإني سأقوم على خدمته بنفسي وأرعاه بحنوي وعطفي لاسيما وأني أعده ولداً ثالثاً وشقيقاً لولدينا حبا فيك وأحتراماً للمرحوم أخيك. وما يضيره لو قام هو برعي البهم حول البيوت يرتع ويلعب هناك حراً وبذلك يشتد ساعده وتقوى بنيته وتكون أنت قد حفظت ابن أخيك واسترحت من عجرفته وتكاليف الرعاة وأهليهم ومن جميع من شذ عنك من أفراد العشيرة".

فأجابها نعما ما فتيت به ايتها الحبيبة وسأعمل من الآن برأيك وهاأنا ذاهب الى المضيف فأرسلي الي بالخادمة لاقوم بطردها من البيت ومغادرته فوراً حتى نتخلص من شرورها ونسلم من كيدها ولا تبقى تعكر صفو راحتنا وأسلم عاقبة لتربية ولدنا وسآمر الغلام تافيج بالقيام في رعي البهم حتى لا يتسلط عليه الخمول والكسل ويخلف لنا العار والشقاء.

وبعد ذلك ذهب الى الشق وجلس فيه وإذا بالخادمة العجوز تدخل عليه وقد حيته بالسلام المعتاد فرد عليها سلامها بصورة غاضبة وبعد أن طلب اليها أن تجلس حدثها قائلاً: "بلغني ممن أثق به أنك توغري صدر ولدنا تافيج علينا ونخشى له المكوث في البيت بين الخدم والحريم مانعته من اللهو في الخارج واللعب مع أقرانه في الهواء الطلق والشمس المنعشة ولم يحاسبك ضميرك على هذا العمل وهلا علمت أن ذلك مما يجعله في المستقبل مائلاً للجبن والكسل فاقداً للرجولة والشجاعة يعيش ذليلاً حقيراً بدلاً من أن يكون بالغد فارساً عظيماً.

إن إقدامك على ما يسببه اليه من الخنوع ليس بالأمر الهين ولا يتحمله إنسان حر ولا يرضى به عاقل فلهذا السبب ولإنقاذ ولدي من مصائبك فلا يسعني والحالة هذه أن ابقيكي في هذا البيت وأتركك به تنفثين سموم شرك وكيدك فيهما أخرجي من عندنا واتركي ولدنا الينا وفتشي لك على مخدوم يؤويك في بيته من غير هذا البيت. وأعلمي بأني قررت طردك حتى لا يبقى لك ولأمثالك عندنا مقام ولا أقبل لك رجاءً ولا عذراً".

فأرادت أن تقنعه وتنفي هذه التهمة التي الصقت بها عساه أن يغير ما اتخذه من قرار لتبقى دائبة على خدمة هذا الغلام الحزين لكنه ابى الإصغاء اليها وصمم على قراره فقامت متخاذلة كئيبة وعلى فراق ابن سيدها حزينة وقالت في نفسها ابعد هذه الخدمة الصادقة التي قدمتها لأهل هذا البيت بكل أمانة وإخلاص اطرد من عندهم طرد الكلاب وينسب الي هذه النسبة الكاذبة. تالله لا أصبر على هذه الإهانة ولا أتحمل هذا الضيم فقالت اليه وهي واقفة فوق رأسه: "يا جرو قد أسأت الي وإهانتك لي لا تغتفر ونسبتك بأني فاتنة وخائنه لا يصدقك عليهما إنسان ويعلم ضميرك بأني بريئة وشريفة إلا ان القصد هو إخراجي من هذا البيت حتى لا يبق أثر لكل من كان يحب أخاك ويحافظ على صحة ولده في هذه الحياة وها أنا تاركة بيتك وذاهبة الى سواه فاهناً بغيابي بما تريد ولا يضيق صدرك بوجودي هنا ولتشاركك زوجتك بهذا الهناء الذي سوف يعود عليكما بلاءً وخساراناً. وأعاهدك بالله بأن لا أعود لبيتك ولو ملكتني كل ما تملك أنه لا يضيع لي أجراً ويرزقني من حيث لا احتسب".

ثم تركته وخرجت هائمة على وجهها تلتمس من يأويها فلم تجد إلا ان تذهب الى بيوت مناوئيه عساهم أن يقوموا بإيوائها وعلى هذا قصدت إليهم والتجأت الى بيت أحدهم فاستقبلها أهله بالحل والترحاب لاسيما وأنهم يعتقدون بصلاحها وتقواها وليس لها من يعيلها وقد أوقفتهم على المعاملة التي حدثت وطردها من البيت.

وبعد رحيل هذه المرأة الفاضلة جيء بالغلام تافيج الى عمه وبعد دخوله عليه حياه وقبل يديه فأجلسه عمه أمامه وقال: "يا بني اعتقد أنك علمت بطردى للخادمة وطردي إليها يا ولدي كان بحق لأنه ظهر لي بأنها تخوننا في رزقنا وتبيعه للغير وترسل أثمانه لأقربائها وذويها وعلى ذلك فإنه ما وسعني إلا أن أقوم بطردها ونخلص من إذائها وتم لنا الأمر. أما أنت يا ولدي فإنك قد كبرت وصرت تقدر الصالح من الطالح وما ينفعك ويضرك ولابد لي من أن أقوم بنصحك وإصلاح حالك وبنفسي إليك كلمتان أر يد أن أكلمك بهما فأملي أن تستوعبهما وتنفذ بما أشير به ولا تخالف لي قولاً.

أما ما أريده منك فهو أن تجد وتجتهد وتكد وتعمل بالأعمال الخارجة عن البيت وبذلك يقوى ساعدك وينمو جسمك وبدلاً من أن تبقى خاملاً مهاناً ستصير رجلاً شجاعاً كما كان أبوك من قبلك سيداً مطاعاً فاترك البيت والمجالسة بين الحريم والاستماع لترهاتهن لأن ذلك يعود عليك ذلاً وعار وبنظر العشيرة تبقى خاملاً. ولهذا السبب رأيت الأوفق لمصلحتك وشأنك ولكي تظهر بمظهر الرجال الاقحاح وأهل الهمة والكفاح أن تقوم كل صباح وتأخذ البهم وترعى به في النهار حول البيوت ولا أخالك إلا موافق لهذا الرأي ومنفذاً". صمت الغلام برهة قصيرة ثم أجابه بالطوع الى أمره حتى لا يغضبه أو بالأحرى إغضاب زوجه التي هي أصل دائه وسبباً لشقائه.

وفي الصباح الباكر من اليوم الثاني قام تافيج من نومه وبعد أن أعطي إليه رغيفاً من الخبر لفطوره وغذائه في نهاره وأخذ البهم للمرعى صابراً على الجوع والجور وبوصوله اليه تركه يرعى من خير الأرض الذي انبته مراقباً إياه بأنظاره مستعيناً في بعض الحشائش والبقول التي يجدها هناك ليسد بها غائلة الجوع. وصار يذهب صباحاً ويعود مساءً لا يشكو ولا يتكلم صابراً على ما قدر له معتمداً على خالقه ومصوره.

لم تكتف زوجة العم ما صارت اليه حالة هذا الغلام من البؤس والشقاء وازدادت في تحكمها به ناكثة بالعهد الذي عاهدت زوجها فيه عندما طلبت اليه أن يطرد الخادمة من البيت وعاودها لؤمها وأمرته أن لا ينام بفراش أبنائها وأعطته سجاداً قديماً منسوجاً من الصوف والشعر لينام به لوحده يفترش نصفه ويلتحف بالنصف الآخر عساه أن يصاب في برد يرميه بالأمراض كما كانت تريد وتشتهي ثم يموت أخيراً ليزول من الوجود كما زال أبواه من قبل ولكن الله تعالى حفظه

ورعاه وسلمه وعافاه فباءت بالفشل والخذلان لأن تجوله في البرية وتعرضه لنور الشمس والهواء الرطب ساعده على تحسن صحته واشتداد ساعده وتقوية عضلاته وكلما زادت له في الظلم والضيق ازداد نمواً وقوة رغم أنفها.

لم يرق في عيون الأكثرية من أبناء العشيرة ورجالها المناوئين لهذا الجرو ذلك البؤس والأفعال التعسفية التي يعيش بها هذا الغلام التعس وغير قادرين على مساعدته لإخراجه من هذه البيئة الفاسدة التي لا يحتملها أي إنسان لاسيما وأن عمه هو أقرب الناس إليه ولا يجدوا من يناصرهم على أخذه منه أو التحدث بشأنه فاجتمعوا في بيت كبيرهم وتداولوا في الأمر فخرجوا من مجتمعهم بقرار حاسم وهو البعد عن حيه ورحلوا من الأرض التي كانت بجواره الى أرض في جهة أخرى حتى لا يعارضوه أو يعترضوا سبيله هو والجماعة الذين ألفوه وآلفهم احتراماً لوصية زعيمهم الراحل تاركين ولده اليتيم للأقدار تفعل به ما تشاء وعند سكناهم في الأرض التي ارتضوا النزول بها زعموا عليهم رجلاً صالحاً من كبرائهم وعيونهم عن بعد ترعى هذا اليتيم منتظرين ما تجيء به الأيام.

بات العم جرو مع البقية الضئيلة من العرب بنزلهم في لهوهم وسمرهم غير مهتم لرحيل أكثرية العشيرة عن نزله مكتفياً عن الراحلين بأعوانه الباقين الذين أسبغ عليهم نعمه غير حاسب للمستقبل أي حساب.

الفصل الخامس

الخطيب وتعليم تافيح القراءة

بعد مضي زيادة عن سنة من وفاة حمد وفي ليلة من الليالي كان العم جرو يتسامر مع زوجته وفي أثناء سمرهما وتشاورهما بالأمور التي لابد لهما من الحاجة إليها إذ قالت الزوجة: "يا جرو هأنت قد وصلت للغاية المطلوبة وصرت زعيماً كبيراً يشار اليك بالبنان ويقصدك القاصي والداني ولم تفطن الى شيء هو أهم ما يكون لديك ولست أدري كيف سهيت عنه وغاب عنك".

فأجفل من قولها وقبل أن تتم حديثها قاطعها مستعجلاً بيان ما تريده منه بدون مقدمة وان تظهره على ما عن لبالها لأنه يعتقد بأنه حذراً ولم يغب عن باله أي شيء فيه فائدة اليهما ولذويهما.

فقالت: "بدلال وابتسام لا تجفل أيها الزوج العزيز ولا تجزع وكل ما في الأمر هو اني أريد أن تفطن لولديك اللذين هما قطعة من كبدك وأن تسعى لتعليمهما القراءة والكتابة حتى لا يبقيا في حالة جهل وأمية ولم تفكر بما فكر به أخوك وتقتدي به لأن أخاك المرحوم كان بحال حياته يحدث زوجته بعد ولادة ولده بسنة سيقوم بتعليم ولده عندما يكبر ويجلب له خطيباً من المدن ليقوم على تعليمه وتثقيفه وبما أنه قد ولى واندثرت أيامه فبالأحرى أن تفكر بما فكر به ذلك الأخ الراحل مع أنه مشهود لك بالفطنة والذكاء وتأتي بالخطيب الذي فكر به أخيك حتى لا يبق ولدينا بلا عمل إلا اللعب والنوم والجهل مخيم على رأسيهما.

هل تعرف أيها الزوج الكريم أن اخاك حمد كان يؤثر نفسه عليك ويجعل من ولده رجلاً عظيماً وعالماً حكيماً بينما يترك ولديك في جهلهما وعند كبرهما لم يجدا الا الرعي في الأبل والغنم وخدماً له ولولده وأنا ما أطلعتك على هذه الجهة إلا بقصد التذكير لك ولا تنسبني الى الخمول والنسيان وتلومني عليه في المستقبل فاختر لنفسك ما يحلو.

أعجب العم جرو بما قالته له زوجته فأبدى إرتياحه وسروره وشكر لها فطنتها ورجاحة عقلها وقال لها: مثلك تكون النساء فلا حرمت منك وأرائك وسأذهب إنشاء الله في الغداة الى المدينة عسى أن أتوفق الى إيجاد خطيب قدير والإتيان به لتعليم ولدينا كافة العلوم وتعليم أفراد العشيرة أمور دينهم فكوني براحة بال وفي اطمئنان.

جرت هذه المسامرة وهذه المحادثه بين "شن وطبقة" جرو وزوجته وتافيج ساهر في فراشه الخشن يحك جسمه بإظفاره لقذارة جسمه وثوبه وقد سمع كل ما دار من الحديث بينهما واستوعبه في فكره وما جاءا به من سيرة والده وما كانت زوجة عمه تتحدث به عنه وكيف ان والده كان يتمنى له الخير والسعادة وكيف أن هذيين الذئبين اتفقا على تعليم ولديهما دون أن يذكرا له إسماً أو يشركاه في التعليم. بكى وآن واشتكى؟ ولكن لمن الشكوى وهو الغلام اليتيم الذي لا حول له ولا قوة نعم كانت شكواه لربه وخالقه.

اشتاق هذا اليتيم للتعليم ولكن أنى له ذلك وقد سمع عمه وزوجته ينعتون والده بالأثرة وحب النفس وعلى ذلك أصبح من المتعسر تعليمه لاسيما وهذيين البطليين غير موافقين فلابد من أن يسلك طريقاً بعيدة عنهما ولابد له من الوصول لمطلبه إلا مقابلة الخطيب عند مجيئه وإطلاعه على حالته عساه أن يشفق عليه ويقوم على تعليمه سراً عن عمه وزوجته. وبعد أن استراح الى ما حدثته به نفسه توجه بالدعاء الى الله الكريم أن يتولاه برحمته ويسبغ عليه نعمائه ويلهم هذا الخطيب بمساعدته والموافقة على ما ينشده من طلب العلم.

أصبح الصباح وسافر العم جرو وبعض من عصبته الى المدينة ليأتي بالخطيب الذي وعد به زوجته وقد أعلم جلسائه بهذه الفكرة وما عزم عليه أثناء شرب قهوة الصباح ليوم سفره فأكبروا فيه هذه العاطفة وشكروا له هذه الأريحية. وعند العصر من ذلك النهار وصل ورفاقه الى المدينة ونزلوا ضيوفاً على أحد معارفه وبعد جلوسهم وأخذهم قسطاً من الراحة عرض جرو على مضيفه الفكرة التي جاء هو ورفقائه من أجلها ورجاه أن يبذل له الجهد لايجاد خطيب يذهب معه للعشيرة ويقوم بتعليم ولديه العلوم الدينية والدنيوية ويكون إماماً ومرشداً لأفراد العشيرة بالأجور التي يطلبها والمناسبة لكلا الطرفين.

فسر المضيف لهذا الطلب الذي يجمع بين تثقيف الصغار وتعليم أمور الدين الى الكبار وامتدح جرواً وأثنى عليه وأجابه قائلاً: "أي صديقي العزيز إني والله أكبرت فيك هذه الهمة ومسروراً لحديثك ومغتبطاً في شهامتك وسألبي طلبك ولو أدى ذلك لبذل بعض من الأجرة في هذه الغاية الشريفة احتساباً لوجه الله فأبشر أيها الصديق الكريم في قضاء هذه المهمة وستعود الى أهلك غانماً مسروراً لأنه يوجد بجوارنا شيخ متعمم يسكن هو وأفراد عائلته في بيت بقربنا وقد خبرته بنفسي فوجدت فيه القدرة الكافية بالعلم ناهيك عن صلاحه وحسن خلقه لا يُمل جلوسه عزيز النفس غزير المادة يقول الحق ولو على نفسه لا تأخذه في الله لومة لائم يقول صدقاً ولا يخلف وعداً وخليق به أن يكون لولديك معلماً ومربياً ولأفراد عشيرتك واعظاً وإماماً فهيا بنا أن نزوره الآن ونكلفه بما جئت به عساه أن يقبل معنا وأراه إنشاء الله لقولنا سامعاً ولتكليفنا قابلاً ومتفقاً.

قام المضيف بإرسال من يستأذن الشيخ في الزيارة وما غاب الرسول إلا قليلاً حتى عاد يقول أن الشيخ حسن يرحب بهذه الزيارة بأي وقت يشاؤون ويريدون. ذهب المضيف وضيفه لدار الشيخ حسن الذي يقال له "حسن الفقي" وبوصولهما استقبلهما من أمام باب الدار الخارجي وأدخلهما إحدى الغرف مرحباً بقدومهما مثنياً عليهما بالخير لهذه الزيارة التي لم يكن منتظرها.

جلس الزائران على الفراش الذي فرشه الشيخ إليهما وهناك قام المضيف بتقديم ضيفه وعرفه به وبما أتى من أجله وعرض عليه الفكرة وبين إليه أن هذه خدمة شريفة ترضي الخالق والمخلوق وفائدة لإعاشة عائلته حتى لاتمسها الحاجة والعوز.

فأجابه قائلاً: إني بحاجة الى الخدمة للقيام بأود عيالي ولكن ذهابي الى البادية وتركي عائلتي في هذه المدينة غرباء وحيدين لا مؤنس اليهم ولا من يقوم بقضاء حاجاتهم ليصعب عليه تركهم بمثل هذه الصوره بدون تأمين. وبما ان المضيف هو من الجماعة المتدينين والشيخ يركن اليه لصلاحه وكان أن سبق ومد له يد المعونة فاحتار في أمره وصعب عليه مخالفته إلا أن أمر ترك عائلته بلا معين وقف شوكة في حلقه. فما كان من المضيف إلا أن انتبه لحالته وارتباكه فقال له لا ترتبك ولا تفكر في هذا الأمر واني أتعهد إليك بأني سأقوم في هذه الخدمة وهناك انفرجت الأزمة واتفق الطرفان على الأجر والأجرة وان تبقى العائلة في المدينة بنظارة الرجل الذي تعهد وان يأتي الشيخ في نهاية كل شهر لزيارة عائلته ويمكث في هذه الزيارة ثلاثة أيام.

وفي الوقت والساعة قاموا من مجلسهم وذهبوا الى السوق وابتاعوا ما يلزم من الكتب والقرطاسية ومحابر وأقلام كافية لهذا المشروع وسلمت الى الشيخ وعادوا أدراجهم الى بيت المضيف حيث تناولوا طعام العشاء وسهروا هناك بسمر وحديث شائق.

في فجر اليوم الثاني تحرك ركب جرو ورفاقه من المدينة يرافقهم الشيخ حسن الفقي فوصلوا الحي واستقبلوا بكل حفاوة وحال وصولهم خصص للشيخ بيت يرتفع على عامود نصب خصيصاً لسكنى الشيخ ومدرسة للأطفال في جانب نزل العشيرة من الجنوب حتى لا يزعجه الأطفال الصغار وبعيد عن الغوغاء وأصوات الحيوانات أثناء التدريس والإرشاد والصلاة.

باشر الخطيب عمله في تعليم ولدي الشيخ جرو وبعض أبناء من لهم مكانة عنده من عصبته على أن يقوموا بدفع أجرة عن أبنائهم زيادة على الأجر الذي تعهد له جرو بدفعه وهذا زيادة في إكرام هذا الخطيب وبعد أن يتم عمله من التدريس وذلك وقت العصر من النهار تحضر لعنده رجال العشيرة ويجلسون أمامه صفوفاً فيهديهم الى دينهم ويعلمهم أموره ويبذل اليهم النصح في سلوك طريق الخير وعمل المعروف والبعد عن الشرور والرذائل ويبين لهم ما أحله الله وحرمه وكان يعظهم بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف ويحدثهم بشيء من التاريخ ويضرب لهم الأمثال وما فيها من حكم

بصورة جعل بها الجميع يجلونه ويحترمونه ويكرمونه والمسكين تافيج مثابر في رعي البهم وفي وادي النسيان لا يسأل عنه أحد وكأنه غريب عن هذه العشيرة ولاجيء من اللاجئين.

شاهد تافيج أبناء العشيرة وولدي عمه سعد وسعيد يأتون للمدرسة في الصباح يومياً لتلقي العلوم من الخطيب الذي سمع بفضله وغزارة علمه وتدينه فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وشرع يفكر بالوسيلة التي يمكنه بها الدخول في هذه المدرسة ليشارك هؤلاء التلاميذ هذا العلم فوجد أن ذلك محفوف بالأخطار من ظلم عمه وكيد زوجته وعدم وجود من يقوم بمعاونته. فعن على باله فكرة اعتقد أن تكون صائبة وهي مقابلة الشيخ ذاته سراً وإيقافه على أحواله ورغبته في أخذ العلم عنه وإرواء ظمائه من مناهله ومقابلة هذا الشيخ يحتاج الى إقدام وشجاعة وأرشده عقله أن يقوم من نومه فجراً والناس نيام ويزوره في بيته ويعرض عليه أمره.

وبما أن تافيج لم يكن بالشخص الذي يهمل ما نوى إجرائه فإنه نام مبكراً وصحى من نومه فجراً وذهب الى بيت الشيخ والناس نيام ولما وصل وجده يصلي صلاة الصبح كعادته مبكراً فجلس حتى أتم صلاته وقام من مجلسه وركع أمامه وقبل يديه وأعلمه بنفسه واسمه ومن هو أبوه واشتكى له عن حالته والجور والظلم اللذين يقاسيهما من عمه وزوجته ولا ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أظهره عليه ورجاه أن يحسن إليه ويعلمه القراءة والكتابة إسوة بأبناء عمه سراً عن كل أحد تجنباً من حدوث شيء لا تحمد عقباه.

رثا الشيخ الكريم لحالة هذا اليتيم الذي شاهد رثة ثيابه وسوء أحواله وكأنه لم يكن من أبناء هذه العشيرة ولا إبناً لزعيمها فهاله أمره وأشفق عليه وكاد يبكي حزناً على ما آل اليه أمر هذا الغلام من التعاسة والشقاء وظلم بني الإنسان فقال له لا تبتأس نجوت من القوم الظالمين وسأقوم بتعليمك وتثقيفك حسب مقدرتي وما أعلمه من العلوم احتساباً لوجه الله والثواب لدار الآخرة إنما اسألك الحرص على كتم هذه المساعده وتأخذ مني درسك فجراً وتكرر عليه في المرعى نهاراً وتسمعني عند عودتك ليلاً. ثم قام وأخرج من متاعه لوحاً حجرياً ومعه قلماً من نوعه وكتب له به الحروف الهجائية واقرأه إياها مراراً وسلمه له موصياً إياه أن يراجع هذه الكتابة بالقراءة والكتابة حتى يتعود على حفظها فودعه بذلك وخرج من عنده مخفياً لوحه في عبه وقد اسبل الله الستر عليهما.

مضى على تافيج أربع سنوات وهو يرعى ويكتب ويقرأ يأخذ درسه صباحاً ويتلوه على استاذه مساءاً وقد ترك لوح الحجر واستعاض عنه بالقرطاس والكتب والشيخ ماضٍ في تعليمه لا يدخر عنه من علمه شيئاً حتى صار هذا الغلام في بحر هذه المدة لشدة ذكائه ونبل أخلاقه عالماً وأديباً بفضل هذا الأستاذ الكريم. ثم أن الخشونة التي كان يعيش فيها جعلت منه نشطاً قوياً ونما جسمه نمواً مضطرداً حتى بات يخيل للناظر اليه وهو في الخامسة عشر من عمره كأنه في سن العشرين مثابراً على عمله واحترام عمه وزوجته خاضعاً لأوامرهما يقابلهما بالحسنات بدلاً عن السيئات متخذاً القول "أحسن الى من أساء إليك" نبراسه وقبلته.

الفصل السادس

فرار تافيج وتركه الحي

في يوم من أواخر فصل الربيع لعام 1337هـ ذهب تافيج كعادته مع البهم الى المرعى والكتاب الذي أعطاه أستاذه اليه لا يفارقه وعند وصوله الى المحل المعتاد جلس على الصخرة العالية التي كانت مقعداً له والخراف والحملان ترعى بالقرب منه فصار يراقبها أحياناً ويدرس في كتابه أحياناً أخرى.

وعند الظهر شاهد خرفانه وحملانه تنفر من موقعها هاربة لجهة النزل ورأى ذئباً يحمل خاروفاً صغيراً في فمه هارباً به للجهة البرية الخالية من الناس فقام من فوره يعدو خلفه راكضاً عساه أن يلحق به ويخلص ذلك الحمل الصغير من بين أنيابه ولكن أنى له أن يتمكن من اللحوق به لأن ذلك الذئب كان أقوى ساعداً وفي العدو والركض إسراعاً وبالنتيجة فإن ذلك الوحش الجسور فاز بغنيمته وغاد تافيج بخفي حنين وصار يبكي ويلطم ويشكو حظه العاثر لما حدث بدون قصد منه ولا إهمال.

فعاد الى الموقع الذي كان هو والحملان فيه ولما وصل لم يجد شيء ورأى الأثار متوجهة لجهة النزل فوقف جامداً لا يتحرك وقد أصابه الخوف على نفسه من جلاديه فيما إذا عاد اليهما يندب حظه ويعلمهما بما وقع له ويقول هل أنهما يصدقان قوله ويغفران له هذه المصيبة التي أصابته هذا إذا صدقهما القول. كلا لم يصدقاه فوبخ نفسه على هذا القصور وكان من اللازم عليه المحافظة على هذه الرعية والذب عنها بأي صورة من الصور لاسيما وقد قرأ في الكتب من الحكم والأمثال أن كل راعٍ مسؤول عن رعيته.

أما أذا اتخذت تزوير الصدق وكذبت عليهما بأني غفوت في النوم رغماً عني فهذه جريمة لا يغفرها الله لي ولا تطاوعني نفسي على الإتيان بها لأن الكذب حرام وإن قلت لهم أني كنت أقراء وسهيت عن المراقبة فهذا أمر لا اجروء على قوله وان كان صدقاً فإني أفضح أمر تعليمي الذي آليت على نفسي بأن يبقى مكتوماً ويعود على أستاذي بالويل والثبور وأكون قد قابلت حسنات هذا الأستاذ الكريم بالسيئات وما أغناني أن أقول الحق ولا غيره وصمت قليلاً ثم قال: يا لك من دهر خؤون فلا تعرف أيها الدهر ماذا سيحدث في أمري عندما أعود الى النزل وما ألقاه من العم وزوجه من الضرب والجلد والإهانة وحرماني من الطعام، نعم إنك تعرف فصبراً عليك وأشكوك الى خالقك ومدبرك.

أحتار تافيج في أمره وأنقلب الضياء في وجهه ظلاماً والأرض ضيقة والسهل وعراً ولم يجد له من ورطته مخرجاً إلا أن يفر من حاكميه ويترك لهما البيت والثروة وينجي نفسه من عذابهما متمثلاً بقول الشاعر:

ونفسك فز بها إن شممت ضيماً وخلى الدار تنعى من بناها

ولما عنت له هذه الفكرة ترك أرضه وتوجه شمالاً فاراً عدواً حتى لا يلحقه أحد من قومه ويعيدوه الى وكره وسجنه غير عالم بأن فراقه هذا هو ما تشتهيه زوجة عمه حتى تتخلص منه ولا يشاطر ولديها هذه النعمة. بعد الغروب بقليل وصل بطريق الصدف الى مخيم العشيرة التي ناوأت عمه وتحب والده فإذا ما أتاهم ولجأ اليهم فلا شك بأنهم سيجيروه ويحموه ممن ظلموه وعذبوه وما عليه إلا أن يدخل الى بيوتهم ويسلم نفسه اليهم وقد دخل الى الشق الذي يجتمع به رجال العشيرة للسمر والمشورة فوجده غاصاً بالرجال فسلم عليهم وبعد نظرهم اليه عرفوه رغم حالته المزرية وعرائه الفاضح وقاموا له إجلالاً وتعظيماً وأخذوه في الأحضان غبطة وسروراً وأجلسوه على فراش وثير محيين ومرحبين.

وشكروا الله تعالى على هذه المنة التي منها عليهم بمجيء ابن زعيمهم المحبوب اليهم برضاه وطوع أمره دون عناء أخذه من بيت عمه وإجبار العم عن التخلي عنه ليقوموا بواجبهم نحوه وكفالته حتى يأتي الوقت الموعود لينصبوه على العشيرة زعيماً ولأمورها قائداً وحكيماً.

ثم أتوه بالطعام فأكل وشرب حتى أكتفى وأظهرهم على حالته قائلاً بكل رزانة وفصاحة: يا أعمامي وأهلي والله إني جئتكم هنا طريداً هارباً ولذت بكم أبغي الاحتماء بكم من جور الجائرين وعذاب الظالمين وهاأنتم ترون ما أنا فيه من العري والجوع المهانة. أما ان سألتموني عن عيشي ومعاشي فإنه في حالة يرثى لها لما ألاقيه من العم جرو وزوجته

وإرهاقهما إياي في العمل وما يقومان به نحوي من التجويع والعري هذا ما ألاقيه منهما من الجلد والإهانة لأي قصور أو أقل هفوة تبدو مني.

أما سبب فراري من حيهما بهذا النهار عدى على الحملان التي أرعاها أُخذ منها خاروفاً صغيراً أثناء قراءتي في كتابي الذي ترونه رفيقاً لي وما صحوت إلا على نفور هذه الرعية ورأيت الذئب يحمل بين فكيه صيده يعدوا به لجهة البرية الخالية فقمت أعدو خلفه عساي أن ألحق به وأنجد الخاروف منه ولكن لسوء حظي لم أتمكن وفاز بغنيمته وعدت صفر اليدين فخفت العاقبة وهمت على وجهي ركضاً لا أعلم أي جهة أنا سائر ولا لمن التجيء للحماية وقد هداني ربي لمنزلكم وهاأنا بينكم ولما كنتم من أعمامي وأهلي فإني استجير بكم من شر عمي وزوجه فأنقذوني منهما ومنعوني من شرورهما وأرحموا ضعفي ولا تعيدوني اليهما يرحمكم الله.

فلما سمعت العشيرة حديثه بكوا رثاءً له وقال كبيرهم: أي بني تافيج والله انك لعزيز علينا وحبيب لنا ومحبوب لدينا فأقول اليك بالأصالة عن نفسي وبالوكالة عن قومك الذين يحيطون فيك والغائبين عن مجلسنا هذا بأنك أتيت اهلاً ووطئت سهلاً وأنا لمجيروك وناصروك فأبشر يا ولدي بما تريده وتأمر به وانك في بيوت أهلك على الرحب والسعة والعز والمنزل وإننا نعاهدك بأننا مانعوك من كل من يريد لك سوءاً أو تحدثه نفسه بالاعتداء عليك ولا نتركك أو نسلم بك إلا بعد ازهاق أرواحنا وخراب بيوتنا فكن براحة بال وثق بقومك ولا تجعل للخوف عليك سبيلا.

كذلك أزيدك يا بني قولاً: الحمد لله الذي أتى بك من نفسك لتكون لنا إبناً ولوالدك خلفاً وتنهض بنا الى المعالي طالما وانت صرت كاتباً وخطيباً. وسنجمع لك ثروة من الإبل والغنم والخيل ونبني لك بيتاً على حده ونستوفي لك حقك أيضاً من الغاصب وتعود المياه لمجاريها وثق يا ولدي ان ما أنت فيه الآن من الضعف والفقر والعرى إلا هو سحابة صيف سرعان زوالها وهذه الصعاب لن تبرح أن تهون فلنصبر وما صبرنا إلا بالله وقد أيده الحاضرون.

وكان تافيج ينصت لهذا الحديث الذي جاءه برداً وسلاماً واعتز بعشيرته وقوتها ونخوتها فرد قائلاً: أهلي وأحبائي ادعو الله أن يجزيكم عني وعن والدي أحسن الجزاء وأشكركم على هذه النخوة والكرم اللذين قابلتموني بهما مما شدد به عزمي وقوتي وجعلني أتيه بكم فخراً وإعجاباً لكني أريدكم الإصغاء لما أقوله اليكم وأرجوكم موافقتي عليه وهو وان يكن أن عمي أهانني وقذف بي الى براثن زوجته اللئيمة حتى صار ما صرت اليه إلا أنه صار كهلاً وله أولاد وزوجته وعنده عصبة وخدم والثروة التي لديه لا تكاد أن تقوم بأوده وبمن حوله وضيوفه. فاشهدكم علي بأني قد سامحته بجميع حقوقي ووهبته جميع حقي من هذه الثروة ولا أريد منها شيئاً حتى لا يحتاج في دنياه إلا لخالقه.

أما أنتم أيها الأهل الكرام فإني لا أريد أن أكون عالة عليكم أو على خلافكم وأعيش على نفقة غيري وأريد أن أجد واجتهد وأعمل وأكد حتى أجمع المال الحلال بنفسي وأعود اليكم موفقاً حتى يحق لي أن أكون منكم وأعيش معكم لأن من جد وجد ومن سار على الدرب وصل. وأما ما عرضتموه علي من الزعامة فأقول أن الوقت لم يحن حيث أن الزعامة تتطلب أشياء كثيرة منها التعقل في توجيه الأمور التي يحتاجها الموقف عند الحاجة والخبرة في المعاملات والأعمال التي تجري بين الناس والمال لسد الحاجات اللازمة لرفع مستوى العشيرة وأضرب لكم مثلاً ما قاله المصري أحمد محرم:

لا تتخذ لك في العشيرة منزلاً	حتى تكون على العشيرة سيداً
المجد صيدٌ فألقي صيدك واثباً	لا يلبث الضرغام أن يتصيدا
أبعث بصوتك في الممالك عالياً	وأقذف بذكرك في الشعوب مردداً
إن شئت صيرت الحياة مسبةً	وإذا أردت جعلتها لك سؤدداً
الناس مخلوق لأمرٍ رائعٍ	يرمي به الدنيا ومخلوق سُدى

وبهذه القصيدة يا أعمامي وأهلي الكفاية.

ولما سمع القوم مقالته دهشوا لبيانه وأعجبوا بفصاحته وأثنوا عليه وشكروه واكتفوا بما سمعوه وتركوا أمر محادثته وإقناعه بما عرضوه وما يريدونه لفرصة أخرى لعلمهم أن الأيام آتية وتافيجهم موجود عندهم وسوف يحادثونه في الأمر مرة أخرى عندما يستريح من عنائه ويأمن شرور عمه وزوجه غير عالمين بما يضمره من مفارقته لهم وترك الديرة وهذه البلاد حتى لا يكون عالةً على أحد. فغيروا هذا الحديث بحديث آخر وأتوه بملابس نظيفة ليستر بها جسمه ويتقي بها شر العرى فقبلها شاكراً وارتداها وشاركهم في سمرهم حتى جاء وقت النوم فنام مستريحاً هانئاً.

الفصل السابع

تافيج ينتقل من الحياة البدوية الى الحياة الحضرية

عند الفجر من الليلة التي نامها تافيج في مضارب تلك العشيرة التي ألقى به القدر مجيئه اليها ووجدها هي القسم الأكبر من عشيرته التي كانت ولم تزل موالية لذكرى والده قام من نومه مبكراً وصلى فريضة الصبح كما عوده استاذه وترك الحي مسافراً نحو الشمال دون أن يشعر أحد به أو يعين الجهة أو البلاد التي يريدها ويتخذها مقراً له وقد ترك أمره للأقدار تتقاذفه بأمواجها وتفعل به كيف ما تشاء فاما أن يوفق في هذه الحياة ويحالفه النجاح أو يموت في البراري لاحقاً بأبويه مستريحاً من العناء وهذا الكفاح. وصار يمشي نهاراً ويهجع ليلاً أحياناً في البرية وحيداً وأحياناً في مضارب العربان التي يجدها مخيمة في طريقه مواظباً السير بكل جد ونشاط حتى مضى عليه أربعة أيام وهو في هذه الحالة من السير والجوع والتعب.

وفي اليوم الخامس من بعد الظهر رمت به التقادير دخول مدينة السويداء الكائنة في قلب جبل الدروز فوجدها مدينة عظيمة عامرة بالسكان وبها أثار قديمة كانت فيما مضى وطناً عربياً لبني غسان الذين جاءوا مهاجرين من البلاد اليمنية بعد الكارثة التي حلت في تلك البلاد من حادث سد مأرب الذي يرويه التاريخ. ولما حل بهم الترحال في هذه الأرض اتخذوها موطناً ثانياً ولكثرتهم وشدة بأسهم والقوة التي هم بها فقد حكموا هذه البلاد حكماً إقطاعياً وملكوا عليهم ملوكاً من أشرافهم وبعد استئثار هؤلاء الملوك في الحكم نظموا الجند وعينوا القواد والأمراء ورفعوا مقام من يجدون فيه الكفاءة والفروسية وبهذه الصورة تم لهم الأمر وقد ضموا لمملكتهم جميع البلاد الحورانية وبعض من أجزاء البلقاء وجبوا الأموال من جزية وضرائب على التجارة التي تمر من بلادهم. ومع ما وصف عنهم من القوة والعظمة فإنهم كانوا أكثر الناس رأفة في معاملة شعوبهم كرماء فيما بينهم والى الضيف الذي يضيف ساحتهم ويساعدون الضعفاء وذوي الحاجة ممن يقفون على ابوابهم وفوق ذلك فإنه كان لهم مجالس أدبية يستقبلون فيها الندماء والشعار ومن يحسن الحديث بحضورهم فيبذخون لهم العطاء حتى أن القاصد الذي يقصدهم لا يعود من لدنهم إلا غانماً مسروراً. ثم اختلطوا بالروم الذين كانوا يحكمون بلاد الشام ومن والاها من الشمال وأخذوا عنهم العلوم والفنون وتشييد القصور والبنايات العظيمة وغرس الأشجار في الجنائن والبساتين والمتنزهات الجميلة ثم دخلوا في دينهم الذي كانوا عليه وهو دين المسيحية وجاورهم في المأكل والملبس أيضاً.

وعندما جاء الإسلام ودخلت جيوشه لفتح بلاد الشام وإخراج الرومان منها لم يطب لملوك الغساسنة هذا الفتح وعدوه حطة لهم ولنفوذهم فاختاروا أن يكونوا عوناً للرومان على العرب وأنظموا فعلاً لجيوشهم وشاركوهم في محاربة الجيوش الإسلامية وقد انتصر الجيش الإسلامي وباء أعداءهم بالفشل فأُجلوا عن هذه البلاد متفرقين.

وقد توالت الأيام والأعوام فجاء الى هذه البلاد التي فيها تلك المدينة وبعض المدن الأثرية الخربة من حولها عشائر عربية أخرى تسمى الدروز واتخذوها موطناً وانتشروا في أراضيها يجددون العمارة ويبنون القرى وإحياء الزراعة وغرس الأشجار وتربية الماشية ولم يمضي إلا القليل حتى ازداد عدد نفوسهم وتحسنت أحوالهم للهمة التي بذلوها في سعيهم ومسعاهم وجمعوا الكلمة فيما بينهم ووحدوا صفهم، وكان الحب رائدهم ولم يجعلوا لأي إنسان أن يتدخل فيما بينهم، لذا لم يتقربوا بالزواج من دماء غير عربية وذلك لحفظ العنصر.

وقد زعموا عليهم رجالاً من أشرافهم يقال لهم "بنو الأطرش" لما لهم من الأخلاق الكريمة والنفوس الأبية والآراء الصائبة. ولهذا سميت الأراضي والقرى التي يسكنونها "بجبل الدروز" واطلق عليهم لقبهم تيمنن به ويستحقونه وهو "بني معروف" لأنهم كرماء في بلادهم وأهل جود في إقراء الضيف وحفظ الجوار ولا وجود للخناء بينهم لكن اسرارهم خافية واقدس عمل عندهم كتم الأسرار وعدم الوشاية مهما كان أمره لهم بذلك عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم.

تجول تافيج بداخلها عساه أن يرشد الى شخص يقبله في بيته ضيفاً ولو تلك الليلة لأن الجوع والتعب انهكا جسمه. ثم سلك شارعاً أوصله الى باب دكان فاتح الباب وشاهد رجلاً جالساً بداخله يتعاطى البيع والشراء مع من يدخل لدكانه من أجل هذه الغاية حيث الدكان مليء بالأقمشة والحاجيات الأخرى من المأكولات والحلويات

التي يرغبها الأهالي هناك فوقف هذا الغلام يلهو بمناظر الأقمشة والسلع المعروضة وصار في حيرة من أمره لهذا المنظر الذي لم يراه من قبل ولأنه لم يرى في حياته المدن ومتاجرها وبيوتها فانتبه التاجر الذي لم يكن من أهل هذه المدينة بل هو من محلة الميدان الفوقاني في مدينة دمشق وكان في سن الشيخوخة فأخرجه من حيرته سائلاً أياه: ماذا تريد أيها الغلام من وقوفك هنا وهل في نفسك شيئاً تطلبه أو حاجة تحتاج الى قضائها واعتقد يا بني أنك غريب عن هذه الديرة فاعلمني ولا تخفي عني سراً. فأجابه: نعم يا عم، إني غريب الديار ولا أعرف أحداً بها وأطلب من أهل النخوة المأوى في هذه الليلة وبالصباح يفرجها الله.

ولما كان هذا التاجر الشيخ على جانب عظيم من الورع والتقوى وله عادة بقبول عملائه من البدو والرحل في تلك الجهات ضيوفاً في دكانه يقريهم ويكرمهم بها فقد تأثر مما سمعه من هذا الغلام فعطف عليه وأدخله حانوته قلائلاً له ستكون ضيفاً علي هذه الليلة وستجد عندي الراحة والكرامة فلا تيأس يا ولدي وكن مطمئناً.

دخل تافيج الى الدكان فجلس حيث قدم له التاجر طعاماً فأكل وشرب وحمد الله وشكره على نعمه وفضله. وبعد أخذه قسط من الراحة سأله عن نفسه وبلاده والأسباب التي دعته أنيترك بلاده ويأتي الى هذه المدينة فأخبره بخرة بصورة تفصيلية ولم يترك شاردة ولا واردة إلا أوقفه عليها فلما سمع الشيخ قصته بكى حزناً عليه ورثا حاله.

وبما أن هذا التاجر كان وحيداً يتعاطى بيع الأقمشة والسلع وشراء الحبوب والتجارة بها لإرسالها الى الشام لبيعها فيها حتى يكسب من ربحها وكان بحاجة لمثل هذا الغلام لخدمته وقضاء حاجته لذا عرض عليه الخدمة فوافقه واتفقا على أن تكون اجرته الشهرية خمسة ريالات تركية.

وصار تافيج يقوم بعمله الحضري أحسن قيام مظهراً لمخدومه الطاعة والأمانة على ما أؤتمن عليه وبمدة يسيرة كسب محبة الرجل وعطفه. ولما شاهد هذا المخدوم إخلاص خادمه في العمل والصدق في القول ركن اليه واعتمد بالأشغال والكتابة عليه ورفعه من درجة الخدم واعتبره كأنه ولد من أولاده.

عاش تافيج في هذه البيئة الحضرية في كنف هذا الرجل المحسن مدة أربعة أشهر كان في خلالها يسمع من الأهالي ومخدومه أحاديث عن الشام "دمشق الفيحاء" وعن علومها وفنونها الزاهرة وما يوجد بها من القصور والجنائن والبساتين والمساجد العامرة فتاقت نفسه لمشاهدتها والذهاب اليها لعل وعسى أن يجد له فيها نفعاً وسخر من يتوسط له في إكمال علومه والتي لا يفكر في شيء سواها معتقداً بأن الله جل شأنه ناظر اليه بعين الرضا وسيرعاه بعنايته ويرشده الى الطريق السوي أينما حل وارتحل.

اختمرت هذه الفكرة في ذهنه دون أن يظهر عليها أحد ممن حوله آخذاً بنص الحديث الشريف "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان". جاء موسم البيادر وانتجت الأرض محصولاً جيداً وبدأت القوافل تحمل هذه المحصولات من سائر الحبوب الى دمشق لبيعها هناك فزاد حنين تافيج لمشاهدتها وصمم على الذهاب اليها حتى اذا وجد بها ما وصفه المتحدثون اتخذها دار إقامة واجتهد أن يكمل في مدارسها علومه كي يتسنى له القيام بالأعمال الحرة ويتوفق في جمع المال والمتاع ويعود للعشيرة سيداً.

في ذات ليلة شكى أمره لمخدومه وأطلعه على ما في ضميره ورجاه أن يتم إحسانه عليه وأن لا يكون حجر عثرة في سبيله ومستقبله ونجاحه وبين اليه أنه اذا ما توفق في طلبه بعد وصوله للشام فإنه سيعود لعنده ولا يتركه مادام له فيه رغبة. ولرجاحة عقل هذا الرجل المتدين رأى أن لا يحرم هذا الغلام من مطلبه بل عليه أيضاً أن يساعده في قدر الإمكان لنوال ما فكر به فأجابه قائلاً: يا بني اني والله سأحزن لفراقك لطاعتك وأمانتك واني محتاج لمساعدتك وأخاف من تقلبات الدهر وشرور المدينة عليك لكني أرجح سعادتك وعلمك وأوافق على مشروعك وذهابك الى الشام لتنهل من علومها وتستفيد من مخالطة الناس ولي عندك وصية أريد منك أن تحفظها وتعمل بموجبها وانك إذا قمت بتنفيذها فلا شك ستكون ناجحاً بجميع أعمالك.

يا بني وأن كنت مطمئناً من حسن سيرتك وأدبك فأنصحك أن ترفق بنفسك وتحافظ على شرفك وصحتك وإياك ومعاشرة أهل السوء وابتعد كل البعد عن الرذائل وبؤر الفساد واتق الله في جميع أعمالك واسأله تعالى أن يكون لك عوناً وفي طريق النجاح موفقاً فاذهب بأمان وتوكل على العزيز المنان.

وفي صباح اليوم من ليلة محادثتهما. قاما الأثنان وصليا صلاة الصبح فقام صاحب الحانوت وترك تافيج به وذهب الى أهل القافلة المتوجهة الى دمشق واستأجر ركوباً اليه بأجرة دفعها لصاحبها. وعاد ليخبر تافيج بما أجراه ثم حاسبه على مدة الخدمة التي خدمه إياها فبلغت أربعة أشهر ودفع اليه الأجرة عشرين ريالاً تركياً وأعطاه مثلها إكراماً له على حسن خدمته بعد ما أفهمه بدفع اجرة الراحلة وزوده بالنصائح والطعام وودعا بعضهما كوداع الأب لأبنه ووداع الولد لأبيه وسافر تافيج الى الشام محط آماله وأحلامه.

في اليوم الثالث من سفر القافلة الى الشام وصل ونزل في إحدى الخانات المخصصة لبيع الحبوب في محلة الميدان الفوقاني وصار يتأمل وينظر للأبنية والحوانيت التجارية والغادي والآتي في الطرقات في هذه المحلة غير منتبه ليد تلمس كتفه فنظر الى صاحبها وشهق شهقة كادت تطير بجنانه من السرور والإنشراح لوجه صاحب اليد فعرفه وتحير في أمره كيف يجد "أبي الحسن الحمصي" التاجر الكبير في إحدى المدن الكبرى بالبلقاء والمشهور بحسن المعاملة والرأي السديد لاسيما وأن عشيرته تعامله وتشتري وتستدين منه. فسلم عليه وقبل يديه وشكر الله تعالى على هذه المصادفة بلقائه به وقال له: أراك هنا يا عم واني استغرب وجودك هنا وتركك بلادنا في هذا الوقت الذي هو موسم الحبوب وسداد الديون.

فأجابه أبو حسن: اني جئت لهنا منذ يومين بغية شراء مؤونة من الحبوب لغذاء أفراد عائلتي التي تسكن هنا وقد أتيت في هذا الصباح لهذا المكان لتنفيذ هذه الحاجة لكني عند الوصول شاهدتك وعرفتك فوضعت يدي على كتفك لأُنبهك الى وجودي وأسألك عن الأسباب التي جئت من أجلها وهل أنت هنا وحيد أومعك أحد من بلادك. ثم يا ولدي إنه عندي بعض العلم مما أنت فيه من الجور والظلم وكنت عندما أراك في حالة البؤس والشقاء أرثي لحالك وأتألم لألمك ولهذا فأني اعتقد يا ولدي أن ما جاء بك الى هذه الديار إلا أمر ذو بال فأريدك إطلاعي على سرك عساي أن آخذ بيدك وأتمكن من مساعدتك وأرجوا أن لا تخفي عني من أمورك شيء وستجدني إن شاء الله عوناً لك وناصرك.

فلما سمع الغلام ما تحدث اليه التاجر الطيب ذرفت عيناه بالدموع وتجددت عنده الأحزان وتذكر كل ما حاق به من البلاء والعذاب وقال: أنت تعلم يا عم ما صارت اليه حالتي من الجور الذي لحق بي من العم وزوجته وما قابلاني به من التجويع والعري والمهانة حتى صرت ذليلاً بائساً استحق الرثاء، وصممت على ترك هذه المعيشة الذميمة وفررت من بلاد أبواي وأهلي تاركاً لمن ظلمني الحياة البدوية يرتعون وينعمون بخيراتها وهوائها المنعش وأتيت هذه البلاد ملتجأً عسى الله أن يرزقني في هذه المدينة رجلاً صالحاً يساعدني للوصول على ما اشتهيه وما تطلبه نفسي من العلم والعمل وألقى حظاً سعيداً. وقد أظهره على كل ما جرى عليه حرفياً وما تكنه نفسه من طلب العلا دون أن يترك شاردة أو واردة إلا وأطلعه عليها.

فتألم الرجل له وزاد رثائه لحاله مجيباً قائلاً: أحسنت يا ولدي بفرارك فيما اذا كان هذا قصدك ومرامك وتحمد بالله سوف يرعاك ويوفقك بأنك ستنال طلبك وتتوفق الى ما به ضميرك فكن براحة بال وتوكل على العزيز المتعال وهيا بنا يا ولدي لنذهب الى بيتنا ولتكون في الوقت الحاضر ضيفاً علي لأنك غريب ولا تعرف أحد ولا يمكنني أن أتركك تمشي على وجهك وأخاف شرور فاسدي الأخلاق عليك.

قبل تافيج ضيافة هذا الرجل وذهب معه الى داره ونزل بها واستأنس بأولاده وأهله ومكث في هذا البيت خمسة أيام شارحاً أمره لهذا الرجل الكريم وعلى مجيئه الى مدينة السويداء ولقياه بتاجرها والخدمة التي قضاها بحانوته وإحسانه اليه بإعطائه بمثل مقدار الأجرة لمساعدته وما ترك العمل وجاء الى هذه المدينة إلا لطلب العلم والعمل ورجاه أن يخفي خبره عن ذويه وعشيرته عند العودة الى بلاده حتى لا يعلمون بمقره ولا يزعجوه في طلبه.

فوعده هذا المحسن بكتمان السر وأخبره بأنه سوف لا يتركه نهبةً للأقدار ولابد من أن يسعى لاستخدامه حتى لا يكون عالةً على أحد ولا تضيق عليه المعيشة وتعوزه الحاجة الى عمل غير مرهن في هذه المدينة الحاوية لجميع طبقات البشر.

سر تافيج من حديث مضيفه وانشرح صدره بما وعده وقام من موضعه واقفاً وقرب منه وأخذ يده وقبلها احتراماً لشخصه وقدم له الشكر على هذا المعروف الذي لم يخطر على باله ولم ينتظره داعياً الى الله العلي القدير أن يحسن اليه ويجزيه عنه أحسن الجزاء.

لأبي حسن الحمصي صديق عزيز عليه في هذه المدينة وهو رجل شيخ طاعن في السن لا ولد له ولا قربى إلا زوجته المحترمة التي عاش معها في هذه الحياة بسعادة وصفاء وفوق ذلك فإنه مجرب في الحياة لا تخفى عليه خافية يحب الخير ويحسن للعباد ولو اساءوا اليه وكان اسم هذا الصديق "علي آغا الكردي" يشغل مقهىً جميلاً في حديقة ذات أشجار كثيفة ومياه غزيرة وبها الورود الزهور على أنواع مختلفة.

هذا المقهى يقد بجانب طريق الدمر والهامة يسمونه "مقهى ومتنزه حديقة الأمة" يقصد هذه الحديقة الجميلة العظماء والكبراء من الشعب والموظفين تفتح أبوابها للزوار والقاصدين بعد ظهر كل يوم وتغلق في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. ويقدم لزائريها الشاي والقهوة والمرطبات على اختلاف أنواعها والتراجيل البلورية النظيفة والتنباك العجمي وبها طاولات النرد والدومنيه والشطرنج وورق اللعب لتسلية بعض الزائرين ولهوهم.

عن على بال أبو حسن أن يقصد هذا الصديق ويكلمه بأمر هذا الغلام ويرجوه أن يحسن اليه ويستخدمه في مقهاه بأجرة تأمن له الفاقة ثم يوحيه في أمر سكناه والمحافظة عليه من براثن البطالة ومرافقة الأشرار حتى لا يكون عاطلاً في غيابه.

في صباح اليوم السادس من وصول تافيج الشام وحط رحاله ضيفاً على مضيفه قام المضيف أبو حسن وذهب من داره متوجهاً للمقهى عساه أن يجده هناك وان لم يجده يذهب لبيته ولحسن الحظ فإنه وجده جالس بمجلسه الذي يجلس فيه يدخن في النرجيلة المخصصة له ويشرب قهوة الصباح ولما أن رآه الآغا داخلاً عليه قام من مجلسه مرحباً وبعد أداء السلام والتحية لبعضهما أجلسه بجانبه وأمر له باحضار القهوة اليه فجاءه النادل بها وشربها وبعد ذلك قال له: اني اتيتك يا صديقي بحاجة اروم قضائها بعدما تعلم مني خبرها وأهميتها ولا أخالك أيها الكريم إلا مجيباً لي ومساعداً.

فإجابه هذا الصديق بقوله: ابشر بنوال ما جئت به مهما كان أمره لانك لم تكن الي صديقاً فحسب بل انت شقيق وأخ عزيز علي ولا احتاج منك مقدمات ولا رجاء فاطلب حاجتك التي جئت من أجلها وسأقوم إن شاء الله بقضائها ففرح أبو حسن لنحوة صديقه وكلمه بشأن ضيفه وأعلمه بحاله وما حاق به من الظلم ولمن ينتسب من العشائر البدوية في بلاد البلقاء وعائلته العريقة في الشرف والزعامة ورجاه ان يستخدمه صانعاً في مقهاه لقاء اجرة يعطيها له حتى لا تعوزه الحاجة الى ما لا تحمد عقباه. وأوصاه ان يحفظ سره ولا يعلم احداً عنه حتى لا يذاع خبره ويزعجه أهله وأقاربه لأنه سعا فر من بلاده إلا من جور عمه وما جاء الى هذه البلاد إلا لطمعه في ان يسعده الحظ في طلب العلم والعمل ويحظى بما تقر به عيناه. وكرر رجائه لهذا الصديق أن يساعده اذا امكن بالمواظبة على احدى المدارس اثناء عطلة المقهى صباحاً للدراسة بها عساه يكمل بها علومه وينال مبتغاه.

تألم الاغا لما سمعه من صديقه عن حالة هذا الغلام وما رماه الدهر الخؤون في قبضة هؤلاء الجلادين وتعذيبهم له ومالت نفسه للشفقة عليه ورؤياه له وقال: ارجوك يا صديقي أن تسرع وتأتيني به حتى الحقه في العمل حالاً واكفله واحافظ على كرامته وسيره وسأخصص له ثلاثين ريالاً تركياً أجرة شهرية ولأنه لا يوجد لي أولاد ولا أقارب في هذه المدينة فإني سأتخذه ولداً واتبناه وساصير له والداً شفوقاً واكلائه برعايتي والعناية في تربيته تربية صالحة ليكون رجلاً شهماً عظيماً

إن شاء الله احتساباً لوجه الله الكريم. وساجتهد بعون الله بكل ما اوتيت به من قوة أن اتوسل في تعليمه الذي يتوق هو اليه إكراماً لك ايها الصديق الكريم فثق بي واطمئن لقولي وتوكل على الله والله على ما أقول وكيل.

فقام أبو حسن من مجلسه وصافح صديقه وشكره على نخوته وكرمه ووفائه لصداقته وغادر المقهى عائداً الى بيته وبوصوله أخبر تافيج بما تيسر له من الأمر وأطلعه على الحديث الذي جرى بينه وبين الاغا صديقه وأوصاه ان يكون عند حسن ظنه به واخذه معه وسلمه لهذا الرجل الطيب وعاد ادراجه لأهله.

الفصل الثامن

تافيج يخدم في المقهى ويتعلم في المدرسة

استلم تافيج عمله في المقهى ولم يمضي عليه يومين أو ثلاثة حتى اختبر العمل وصار يقوم به بكل جد وإخلاص وأمانه وصار دائبه الاسراع في تقديم طلبات الزوار والمقابلة لهم باللطف والكياسة والترحيب حتى عجب به كل من يؤم هذا المقهى وحببه اليهم.

ولخفة روحه ورقة حديثه والفطنة التي جبله الله فيها جعل جميع الزوار بان لا يؤتى اليهم بطلباتهم الا بمعرفته وكان على الرغم المشقة التي يصادفها من اكثر الطلبات لا يعبأ في التعب ولا يتقاعس في الرد على من يناديه منهم وللدليل على حبهم اليه صاروا ينادونه بـ"البدوي".

داوم هذا الغلام الشريد على القيام بعمله هذا في ازدياد عما كان عليه من قبل اثناء العمل والناس يكنون له المدح والثناء بصورة جعلت الاغا يزداد له حباً وكرامة والصناع كرهاً له وحسداً لكنهم لا يقدرون مجابهته في هذا الحسد والكراهية لعلمهم بان الاغا لا يقبل عليه اي شكوى او ينسب اليه قصوراً.

وكان من جملة زوار هذه الحديقة رجلاً عظيماًً هو مدير المعارف السورية التركي الأصل فان هذا المدير الجليل والعالم النحر يرقد اعجب به وصار يوجه اليه انظاره ويلاطفه ويحب منادته واذا أراد الله بعبده خبراً هيأ له اسبابه ففرش جل شأنه حب هذا الغلام في قلب هذا السيد الكريم وقد تمنى لو كان هذا الغلام ابناً له.

وأخيراً كلفه ان يطلعه عن هويته وبلاده وما سبب مجيئه لهنا ولماذا يكنى باسم البدوي. فأجابه تافيج على سؤاله وكشف له عن سره واما الأسباب التي جاء بها لهذه البلاد فهي انه ما جاء اليها الا في طلب العلم والعمل وعسى ان يقيض له رجلاً كريماً يوصله الى مبتغاه ويلحقه بمدرسة يكمل فيها علومه على ان يكون في المدرسة دوامه في الصباح وبعد الظهر يعود الى العمل للقيام به حتى لا يتعطل وبفقد اجرته التي لا غنى له عنها ويبقى عالة على الناس ومتسولاً.

زاد اعجاب المدير به وبما شاهد فيه من النباهة والفطنة والذكاء رق قلبه اليه ورثى لحاله وقد عقد النية على مساعدته وايجاب سؤاله حتى ينال ما يصبوا اليه فقال له: ابشر يا غلام بما تريده وسألحقك من الغد الى إحدى المدارس الحكومية فيما اذا وافق بطلبك هذا الاغا الذي اعتقد بانه سيكون موافقاً. وسأوحي بك الأساتذة والمعلمين كي يشملوك بعنايتهم وما عليك الا ان تأتي يا ولدي في صباح الغد لمقابلة المديرية في دار الولاية لأقوم بأخذك الى المدرسة التي نويت ان الحقك بها واسلمك بيدي لمديرها وأوحيه بك لاسيما وان لديك بعض المؤهلات التي تستحق انتسابك لهذه المدرسة وسيرافقك النجاح إن شاء الله.

سر تافيج لهذا العرض الذي نطق به هذا الفاضل فركع لله حمداً وسجد له شكراً على هذا التوفيق الذي توفق به وايقن ان الله تعالى غير تاركاً له وانه كجل شأنه حافظاً له وراعية وقام من سجوده وقف واقبل على يدي هذا المحسن يقبلها ودموع الفرح تذرف من عيناه داعياً له ان يجزيه الله عنه احسن الجزاء.

ثم استأذن وذهب مسرعاً نحو مخدومه يزف البشرى الى الاغا وبوصوله مبتهجاً وقال: عماه أبشرك بان اجنحة السعادة قد رفرفت علي وطريق النجاح فتحت امامي وكل ذلك بحسن دعائك ورضائك وفضلك وجودك. وها أنا بفضل مساعيك ومساعدتك توفقت لورود منهل العلم الذي كنت متعطشاً اليه فقد قيض الله لي محسناً كريماً رق لحالتي واشفق علي وما ان عرف مني على ما اريده واشتهيه حتى تعهد به ووعد بانه سيلحقني في الغد الى المدرسة التي اريدها ليكون دوامي فيها من الصباح الى الظهر ومن بعده هنا اكون كي اقوم بخدمتي في هذه الحديقة. واعلم يا عم ان هذا المحسن الذي قيضه الله لي هو مدير المعارف السورية الذي تراه جالساً مع بعض الموظفين بجوار شجرة الجوز الكبيرة وقد جعل إحسانه هذا متوقف على رضاك وموافقتك فارجوك يا عم او بالاحرى الوالد ان تتم احسانك وان تكون لي خير معين.

ظفرت عيون الاغا بالدموع مسروراً لهذه البشرى السعيدة وقام من وقته واقفاً على قدميه وضم غلامه الذي صار ابناً له لصدره ويقبله دليل على حنوه عليه وعطفه وقال: انني ارقب يا ولدي اليوم الذي اراك فيه سعيداً ولم يتم سروري وهنائي الا اذا رأيتك متعلماً وعالماً لأن سعادتك تسعدني وخمولك يشقيني وساقوم من وقتي واقابل هذا الكريم واقدم له

شكري وامتناني على هذه المساعدة وما اولانا به من الفضل والاحسان. وثق ايها الابن البار انك في بشراك هذه جلبت الي السعادة ولا يهمني ان خدمت في المقهى او لم تخدم فاني بنعمة من الله ولدي من المال ما يكفيني في دنياي ولا يهمني من الأمر ويجعلني قرير العين الا ان تتعلم وتغنم فبعلمك وصلاحك وسعادتي والدليل على صدق قولي فاعلمك يا ولدي بأنه لا يوجد من يرثني وبما اني تبنيتك وجعلتك ولداً لي سأقوم على تسجيل ذلك في المحكمة الشرعية لتكون وارثاً لي فاسأل الله الكريم ان يهنئك في دنياك وتوكل عليه تعالى فهو نعم المولى ونعم النصير. وهيا يا ولدي لنذهب الى هذا المحسن ونكرر له شكرنا واعلمه بموافقتي ورغبتي واوصيه بك خيراً لما بيني وبينه من المودة والصداقة وما اعهده فيه من النخوة والكرامة لأنه خليق بان يقصد يوجل ويحترم.

ذهب الاثنان الى المكان الذي يجلس فيه ذلك الشهم وحال وصولهما قدما له ولمن معه من التحية وقد قام الجالسون احتراماً لهذا الاغا الذي كان محترماً عندهم ودعوه للجلوس فجلس بينهم وادر بتقديم شكره للمحسن لولده واكد له بانه سوف لا ينسى له هذا المعروف الذي غمره به حتى اخر لحظة من حياته واعلمه بموافقته ورضائه وان ولده تافيج على جانب عظيم من الانفة وعزة النفس ويأبى ان يتفضل احد عليه في عيشه ومعاشه ورجاه تنفيذ ما وعده به ويلحقه بالمدرسة التي تنوي الحاقه بها حتى ينال مطلبه وكرر رجائه اليه ان يكون دوامه للمدرسة صباحاً ويعود منها للعمل ظهراً لان ولده هذا غريب من هذه الديار ولم يكن فيها له احد يقوم بامره ويقدم له ما يحتاجه ولا يرضى قبول صدقة ما بل همه الكسب من عمله يكد بيمينه وعرق جبينه حتى يمكنه القيام باوده ولا يمن عليه احداً.

ومع علمي يا سيدي الجليل بذكاء هذا الغلام وفطنته وحسن سيرته وسريرته فاني قانع بان المدة التي سيواظب فيها على المدرسة ستكون كافية لتعليمه وبهذه الصورة فيكون قد قمنا بواجبنا نحوه ويتعلم على حسابه دون ان يكون لاحد من الناس فضلاً عليه.

اعجب جميع الحاضرون لنبل هذا الشيخ وحسن منطقه الذي امتدح به غلامه وثقته فيه فشكره وضموا اصواتهم الى صوته راجين المدير تلبية هذا الطلب وعند حسن ظن الاغا وولده. وبما ان المدير قد وافق تافيجاً من قبل فلا يسعه الآن الا ان يكرم الاغا ويقبل رجائه فوافقه على طلبه وايد له وعده الذي وعد الغلام به.

كل ذلك يجري وتافيج يسمع ويرى فصار السرور يطفح على وجهه ونسي الآمه واحزانه وشكر الله الكريم في قلبه على هذا النجاح والتوفيق فتقدم من القوم ولثم انامله وشكر لهم افضالهم فشكروه ودعوا له خيراً.

في اليوم الثاني صباحاً ذهب الاغا وولده تافيج الى مقام مدير المعارف حسب الوعد الذي اخذه منه وحال وصولهما استقبلهما لكل ترحاب ولطف وقام من وقته واخذهما معه في عربته الخصوصية الى ان وصلوا جميعاً الى المدرسة الرشدية وهناك قام مدير المعارف بتسليم الغلام الى مديرها واوصاه به خيراً وافهمه بوقت دوامه مع اعطائه الكتب المدرسية التي تلزمه وعلى نفقة الحكومة مجاناً.

داوم تافيج في هذه المدرسة ونهل من بحر علومها ما شاء له ان ينهل والتوفيق ملازم له والنجاح حليفه حتى برز بين اقرانه وتفوق عليهم بصورة لفتت انظار اساتذته ومديريه فاعجبوا بذكائه الخارق وذهنه المتوقد والمواهب التي حباه الله بها. فأحبوه ومالوا اليه وصاروا يؤثرونه على خلافه ويحبونه بالكتب القيمة ويزيدون له الدروس كلما وجدوا منه رغبة واشتياقاً.

بقي الغلام مداوماً في تحصيله لتلك العلوم مجداً ومجتهداً والعمل في الحديقة راضياً مرضياً وقد حاز في مدة أربع سنوات كافة العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة ونبغ فيها وبات يتكلم ويكتب في اللغات العربية والتركية والفارسية وكل موضوع يكتبه في أي لغة من هذه اللغات الثلاث لا تشك بأنه ذلك البدوي الجلف الذي خلقه الله في البادية والأراضي الصحراوية لا يعرف من أمور دينه ودنياه سوى تربية الابل والماشية بل تعتقد بأن من ابناء تلك اللغة وحصل على الشهادة القانونية. وصار كل من يراه يشير اليه بالبنان فهنيئاً لك ايها اليتيم الطريد ومرحى ثم مرحى.

الفصل التاسع

تافيج ابن البادية يتوظف بالحكومة ويتقن ركوب الخيل ويحسن ضرب النار

بعد ان اكتفى تافيج بما حصل عليه من العلوم واللغات التي اتقنها في دراسته بالمدرسة الرشدية في خلال الأربع سنوات التي داوم فيها لم يترك المقهى وصاحبه ولم يجحد فضل كذلك الشيخ الكريم ولا انكر المحسنات التي احسنها عليه وقد زاد في الجد في الخدمة حتى بات المقهى يغص بزواره وانتعشت بالازدياد وارداته وانهالت الأرباح عى صاحبه بصورة جعلت الاغا ان يقر ويعترف بنفسه بان تلك الأرباح المتزايدة لم تأت الا على يد ولده بما يقوم به من الجد النشاط وسهره على ارضاء الزوار والخدمة الممتازة التي يخدمهم حتى نال هذا الرضاء منهم.

أفلا يجب علي تجاه ذلك ان أرفع درجة واجعله عني وكيلاً ونائباً واسمله جميع محتويات هذا المقهى وصندوقه للاشراف عليه بنفسه والناهي في أمورها واستريح من عنائه واتعابه وانصرف الى صلاتي وعبادتي لاسيما وان ولدي هذا قد صار شاباً وعالماً فاضلاً.

ولما اختمرت هذه الفكرة قرر بتنفيذها واحضر تافيج لمجلسه وقال له: انني عجزت يا ولدي عن القيام بهذه الخدمة وبما انت الآن قد اصبحت رجلاً صالحاً وعالماً نبيلاً فانه لا يسعني والحالة هذه المداومة عليها وارى من الخير لراحتي وانصرافي الى العبادة ان أسلم اليك مقاليد الأمور وتقوم بادارتها لاسيما وانت ولدي ولا أركن على غيرك بإدارتها فأملي فيك أن تقبل هذا العرض وأرحني من هذه المتاعب.

وافق تافيج على طلب الآغا مذعناً. وحينئذ جيء بالصناع والخدم أمام الآغا وأعلمهم بما عهد به الى ولده تافيج وطلب اليهم أن يطيعوه وأن لا يخالفوه وكل من تسول له نفسه بمخالفته أو عدم إطاعة أوامره فإن جزاءه الطرد من الخدمة. وبكل وفاء من قبل هؤلاء العمال امر مخدومهم وتعهدوا اليه بأنهم سيكونون مطيعين لأوامر ولده ومعاونين له في خدمة مقهى الحديقة بكل إخلاص وأمانة.

قام تافيج بكل ما عهد اليه في إدارة هذا المقهى ومراقبة عماله واحترام زواره وتسهيل أمر طلباتهم بكل دقة. مكث تافيج على هذا المنوال مدة من الزمن وهو يزداد في إكرام والده الشيخ الجليل غير ناس له فضله وأياديه البيضاء عليه والشيخ مستريح البال دائب على صلاته وعيادته ودفع الأجرة التي قرر تقديرها لهذا الغلام في بدء مجيئه ووضعها في صندوق خاص له.

وفي ذات يوم أحصى هذا الشاب الذي كان قبل سنوات يتيماً طريداً صندوقه الخاص فرأى أن ما فيه يربوا على المائتين والخمسين ريالاً تركياً بعد ما صرف على حاجاته في المدرسة وملبسه وقال في نفسه أن هذا المبلغ ثروة لا بأس بها ولكنه لم يك كافياً للوصول الى الغاية التي ينشدها والتي وعد بها رجال عشيرته الذين آووه ليلة فراره وما عليه إلا أن يصبر وقد جاء على باله ذكر عشيرته وأهله فحن لمشاهدتهم حنين الناقة لولدها وتشوق للعودة الى البادية ومضارب العشيرة.

ولكن أنى له أن يعود وهو للآن لم ينل مأربه وليس لديه من المال ليوفي بالبر بوعده الذي قطعه على نفسه عندما قال لهم: "سأجد وأجتهد وأجمع المال والحلال وأعود اليكم وأكون معكم" ترك هذه الفكرة جانباً وتناساها وأتته فكرة ثانية عبرت له بأنه وإن يكن حصل علماً في المدرسة الا انه لم يحصل على العلم الثاني الذي يحتاجه فيما بعد عندما يعود الى بلاده ويجتمع بعشيرته وهو إتقان ركوب الخيل وتعلم الفروسية والجول والصول في الحرب والضرب في السيف والرمح وإطلاق النار. فيجب عليه والحالة هذه أن يصرف بعض أوقاته في دراسة هذا الفن ولا بد له من اعتلاء ظهور الجياد والمطاردة عليها واللعب بالسيف والرمح وضرب النار. وخطر له خاطر أن يقوم باستشارة والده في هذا الشأن ليكون ذلك بإرادته ومعاونته ويكون هو المباشر لشراء الجواد والبندقية الموزرية وانتخاب رجل عالم بهذا الفن ليكون له استاذ.

وفي يوم بينما كان الشيخ علي آغا جالساً بمجلسه والبشر يطفح من وجهه ينظر زوار مقهاه مسروراً وفي النظام والانتظام الذي أوجده ولده في هذا المقهى مغتبطاً بما يسمعه من الذكر الجميل لهذا المقهى وصاحبه وبينما كان في هذه الحالة إذ تافيج يأتي لعنده متأدباً خجولاً فرحب به وأجلسه بجانبه وتحدثا سوية بأمورهما بكل لطف وسرور وبانتباء هذا

الحديث إذ تافيج يعرض أمره الذي جاء من أجله ويقول: يا والدي أنت تعلم ولا شك بأني من البادية وأنني طالت غيبتي عن بلادي فإنه لابد لي من أن أعود يوماً الى عشيرتي وأشارك أفرادها عيشهم ومعاشهم في حلهم وترحالهم ولأجل أن أكون حائزاً على ثقتهم وواقفاً على جميع عاداتهم علي أن أحذوا حذوهم وأتطبع بطباعهم. وبما ان العادة المتبعة عندهم هي ان يكون رجلهم حائزاً على الفروسية وله خبرته في المطاردة ومنازلة العدو على ظهور الخيل واللعب في السيف والرمح والاصابة في ضرب النار لان بلادهم تتطلب ذلك. وبما انني بفضلك ايها الوالد الكريم قد حصلت على مبتغاي من العلوم واللغات واجيد الانشاء والمكاتبات ولكن ينقصني يا والدي العلم الثاني الذي ذكرته لك آنفاً فلذا قد جئتك ضارعاً ولحنانك راجياً ايها الوالد الكريم الا موافقي.

صمت الاغا قليلاً يعرض على فكره الطلب الذي جاء به ربيبه فوجده صائباً ولمستقبله ضرورياً ولماذا لا يساعده ويلبي طلبه ولا يكون حجر عثرة في سبيله في تعليم هذا الفن لاسيما وان الاكراد عشيرته وهو من جملتهم من طبعهم أنهم ميالون لهذه الفنون ويتباهون بركوب الخيل ومنازلة العدو وعلى ظهورها وما علي الا ان اوافق ولدي على فكرته وانله مطلبه، وقال: اني وجدتك يا ولدي مصيباً في رأيك ولابد لك من ممارسة هذا الفن حتى تنبغ فيه كما نبغت بعلومك الأولى فابشر بما تريد وستنال رغبتك في وقت قصير إن شاء الله وغداً سنقوم بشراء الجواد والبندقية أن غداً لناظره قريب.

في الغد قام الاغا وتغيب عن المقهى وما جاء آخر النهار الا وقد عاد الى بيته وارسل خلف ولده ولما جاء هذا الابن للدار وجد امامها فرساً لونها يسر الناظرين فدخل للداخل كعادته لانه يسكن في هذا البيت مع الاغا وزوجه باعتباره ابنهما وفي غرفة الضيوف وجد والده وعنده رجل قوي الجسم في الخمسين من عمره فسلم عليه وجلس معهما وابتدره والده بقوله: انني اتيت بالفرس ولربما انك شاهدتها بنفسك واحضرت البندقية مع رصاصها وهذه هي وهذا الرجل صديقي ومن الأكراد في هذه المدينة ومشهور بالفروسية والنزال والكفاح وله خبرة في اصابة الهدف وغداً صباحاً سيبتدئ العمل فتذهبان الى البرية وتلعبان وتتطاردان على ظهري جواديكما مدة وبعدها تتمرن على اطلاق الرصاص على الاهداف التي يعينها لك معلمك ثم تعودان الى المدينة.

وقد قاما بالعمل حسب ارشاد الاغا لهما وبمدة وجيزة لا تزيد على الشهر اذ بتافيج قد اتقن الفنون التي تحتاجها الفروسية فزادت افراحه وزالت عنه اتراخه وصار سعيداً في حياته وفي بحبوحة من المعيشة الرغيدة. كيف لا يرضى وهو اليتيم الفقير الشريد بما صارت اليه حالته من العلم والفروسية بقوة جده واجتهاده حيث لازمه النجاح والتوفيق. وان كان يرى نفسه سعيداً في حياته الا انه يذكر احياناً والديه فيبكي عليهما ويعد نفسه لأنه لم يزل اليتيم الطريد ثم يأته العقل فيبدل حزنه وبكائه اللذين كانا يؤلمانه ويعود الى مرحه متخذاً الصبر وسيلته له معتقداً بانه سيجعل له مخرجاً ويبدل عسره في يسر ويرزقه من حيث لا يحتسب.

في عام 1914 ميلادية كان تافيج بلغ التاسعة عشر من العمر لكن من يراه يعتقد انه تجاوز الحادي والعشرين لنمو جسمه وقوة عضلاته. وقد اعلنت الدولة العثمانية النفير العام بخوضها الحرب مع حليفتها المانيا ضد الدولة البريطانية وحلفائها وصار الناس في هرع ومرح لهذا الحدث الذي لم يك يأت على بالهم وصارت الدولة تجمع ابناء البلاد وتسوقهم الى ساحات الحرب جنوداً.

فكر تافيج في هذا الأمر وسولت له نفسه ان يشترك في هذا الجهاد المقدس طالما وانه يرى ويسمع العلماء والعظماء يخطبون الشعب ويحثونهم على الاشتراك في ذلك الجهاد مع معاونة الدولة في المال والبنين حيث يقولون بخطبهم ان هذه الحرب حرب دينية ولا يحق لأي مسلم مهما كانت لغته وجنسيته وقوميته ان تقاعس عن الاشتراك بها لأنها خدمة شريفة توصل من يشترك بها الى عز الدنيا وسعادة في الاخرة.

وبما انه يعرف ذويه وعشيرته قوم ذو نخوة واقدام وأهل ضرب وطعان فيجب عليه والحالة هذه ان لا يتناسى هذا الأمر ولا يبخل بروحه عن معاونة إخوانه المسلمين حتى لا تفوته هذه الفضيلة وباشتراكه يكون قد جاهد في سبيل الله وادى

واجبه نحو الوطن والإسلام وطاع امر ربه وبما جاء رسوله. وما عليه الا ان يطلع الاغا على ما نوى عساه ان يرشده ويمنحه بركته ويدعوا له وذلك في الليلة القادمة.

في الليلة التي اراد تافيج ان يطلع الاغا والده عن سره وما يضمره في نفسه جاء الى المقهى "دفتردار" الولاية أي مدير ماليتها متنزهاً كعاته وبعد جلوسه مع بعض الرفاق جاءهم تافيج لتأمين راحتهم ويقدم اليهم طلباتهم واذ بالدفتردار يوجه اليه الخطاب قائلاً: يا تافيج أفندي اعتقد انه بلغك اعلان النفير العام لدخول دولتنا المؤيدة الحرب مع الحليفة المانيا ضد دولة انكلترا وحلفائها وربما ان يطول أمرها ولا يعلم الا الله ماذا تكون نتيجتها وبودي ان انجيك من التشرد وبلايا الحرب هذه لانك عزيز علي ووالدك الاغا صديق محبوب لدي وها أنا اكلفك بامر عسى ان يكون منه صلاحاً ونفعاً ولا أخالك الا مصغياً لي وعاملاً بنصحي.

فأجابه تافيج قد علمت يا سيدي هذا الحدث وادعوا الله تعالى ان تخرج دولتنا الغالية من مأزقها هذا موفقة لاعلاء كلمة الله وسعادة المسلمين وان يجعل النصر حليفها. وها اني رهين امر سعادتك وتراني صاغياً لنصحك ومطيعاً لما تأمرني به وما عليك يا سيدي الا ان تأمر وعلي الطاعة فتفضل وامر بما تريد.

الدفتردار: انني بينت لك بان هذه الحرب حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر وسمت اوانها وان عليك في هذا المقهى قد لا يدوم وتغلق ابوابه في القريب العاجل لحاجة الدولة اليه ولغيره من المحلات والدور لسكنى جيوشها وخزن ميرتها وذخائرها الحربية ولمحبتي لك وتجنباً من ان تقع في شبك البطالة اريد ان لا تخالفني عرضي وهو تغيبك بوظيفة مالية تغنيك بالوقت الحاضر عن سؤال الناس والوظيفة التي اعنيها هي قريبة من الشام في بلدة دوما وراتبها الشهري خمسة ليرات عثمانية وقد شغرت هذه الوظيفة منذ ثلاثة أيام ولما جئت على بالي فاني اخرت تعيين موظفاً لها وللآن لم أوعد أحداً بها إلا بعد استشارتك وأخذ رأيك ورأي الآغا والدك.

وكلي آمال بأن لا تخالفني وأن لا ترفضها لأنه بقولك إياها تهيء لك مستقبلاً باهراً وستتدرج في الوظائف الحكومية ولمعرفتي بأخلاقك وما أنت به من النباهة والأمانة لضمين بأن يكون مستقبلك زاهراً وأعلم يا ولدي أن هذه الوظيفة هي وظيفة معاون محاسب فأكرر عليك عدم الرفض واستشر الآغا والدك وتوكل على الله.

تافيج: أنني أشكرك لسعادتك هذه الثقة وهذه النعم التي غمرتني بها وأني لسعيد عندما لا أخالف لك قولاً ولا أعصي لك أمراً وسأذهب لوالدي وأعلمه بهذا الخبر.

الدفتر دار: هيا أذهب للآغا وأبلغه تحياتي وأخبره بأن يشرف لعندنا وسأقوم بنفسي إخباره وإقناعه.

غادر تافيج هذا المجلس وتوجه للجهة التي يجلس فيها والده الآغا وعندما وصله حياه وأبلغه طلب الدفتردار اليه.

قام الآغا وذهب مسرعاً وبوصوله حيا وسلم وقوبل بالاحترام ودعي للجلوس وبادره الدفتر دار بقوله: إني أرسلت خلفك يا حضرة الآغا لإرجوك في قضاء أمر هو في صالح ربيبك ولأني أريد له السعادة ولا أخالك إلا أن تكون معي بما ساحدثك به لأن أمر ولدك يهمك أكثر مني ومن غيري ولأني أعرف ما هو به من عزة النفس وبابائه عن أن يكون عالة على الناس ولو أدى به للانتحار أردت أن أضمن له عيشة هنيئة ولو على الأقل لمدة هذا الحرب وحدثه بما حدث تافيج به وما عرضه عليه وأعلمه بأن رضا ذلك الأبن البار متوقف على رضاك وموافقتك ولهذا ارجو منك أن توافق على هذا التعيين ولا تكن حجر عثرة في سبيل نفع هذا الغلام فأريد أن تسمعني قولك.

فلما أتم الدفتر دار هذا الحديث إلا أن قام الآغا من مجلسه وأتى لعند الدفتر دار وصاريقبل رأسه شاكراً له فضله على هذه المساعدة التي لم يكن يحلم بها وقد غمره السرور ودمعت عيناه فرحاً ثم قال: إنك يا سعادة الدفتردار قد طوقتني بمعروف لا أنساه لك مدى الحياة واني أسأل الله تعالى أن يكثر منك ومن أمثالك ويجزيك عني وعن ولدي خيراً وقد رحمتني في كبري وعجزي رحمك الله وثق يا سيدي بأني افتكرت بأمر ولدي كثيراً. حيث خفت عليه المصائب والاكدار والبطاله وأن يهوى بهاوية الانفلاس والعازة لما يتصف به من عزة النفس وها قد قيض الله لنا سعادتك حتى تأخذ بيدنا

وتنجينا من شدة الحاجة وشر اللئام أعاذك الله من جميع الشرور وأرجوك يا سيدي أن تسرع بما تفضلت به من التعيين ليلحق بوظيفته مشمولاً بعطفك وحنانك و الله لا يضيع لك أجرك أنه لا يضيع أجراً المحسنين.

وبعد هذا الحديث نودى على تافيج فحضر وانبئ بالموافقة وأمر أن يأتي للمالية صباح الغد حيث يتسلم أمر تعيينه والذهاب لمقر وظيفته.

ذهب تافيج في الوقت المعين لدائرة المالية في دار الولاية بمرجة دمشق ورافقه الآغا وحال وصولهما غرفة الانتظار قدما انفسهما الى الرجل الذي يحرس الباب وأعلماه بأسميهما والحاجة التي جاءا من أجلها ولما كان هذا الرجل على علم من مجيئهما لأن الدفترادار أمره أن يدخلهما عليه عند حضورهما فأسرع وأدخلهما على الدفتردار فاستقبلهما بكل لطف وترحاب ولم يمض إلا القليل حتى استلم تافيج أمر تعينه وكتاب خصوصي الى المحاسب يوصيه به وعادا راجيعين الى دار الآغا حيث طعموا اكلها.

أراد علي آغا أن يعطي تافيج ما في صندوقه من الدراهم ليأخذها معه فأبى أن يأخذها ورجاه إبقائها عنده أمانة أحرز اليها وعندما يحتاج النقود مستقبلاً يحضر ويأخذ منها ما يريد. قبل علي آغا طلب تافيج في إبقاء نقوده أمانة عنده لحين الحاجة وأوصاه بأن يحافظ على نفسه وصحته وأن يسلك طريق الخير دوماً ولا ينحرف عنها وأن يجعل تقوى الله نصب عينيه في جميع الأعمال والأفعال ويساعد الخلق بالحق حتى يرضى الله ورسوله وأن لا يحرمه ووالدته من مشاهدته ويجب عليه أن يأتي من بلدة دوما كل خميس بعد الظهر لهذا البيت ويبقى فيه حتى صباح السبت ثم يعود الى مقر وظيفته بالنظر لقرب الموقع الذي لا يزيد بعده عن ساعة ونصف تخميناً. فوعده تافيج بأنه سيكون طوع أمره بما أوصاه به وسيحرص كل الحرص على القيام بالتنزه عن كل ما يمس الشرف والظلم وسيكون عند حسن ظنه به.

وبعد الانتهاء من حديثهما قام تافيج ودخل غرفته وحزم الأمتعة والفراش وخرج وأتى بعربة استأجرها لنقل هذه الأشياء الى دوما وبعد حملها لداخل العربة سافرت. أما تافيج فإنه شد على فرسة الخرج مع بعض أشياء لازمة للفرس وأخرى هو بحاجة اليها وتركها واقفة على باب الدار ثم دخل للداخل وودع الوالد والوالدة وقبلهما وأخذ بندقيته ثم خرج وعلا ظهر جواده ولحق بالعربة متوجهاً الى مقر وظيفته.

الفصل العاشر

سقوط العمجرو بالهاوية وتدرج تافيج بالمعالي

وصل تافيج الى قصبة دوما بعد الدوام الرسمي واستأجر بيتاً لسكناه ونام تلك الليلة وفي الصباح توجه لدار الحكومة وقدم نفسه الى المحاسب وسلمه أمر تعيينه والكتاب الخاص الذي أرسله معه الدفتردار فاستقبله المحاسب استقبالاً حسناً وسلمه مهام وظيفته وداوم على العمل.

أما العشيرة فإنها بعد غياب تافيج هاجت وماجت وقامت وقعدت واتهمت جرو بسبب ضياع تافيج ونقمت عليه لأنه لم يقم بالتفتيش عليه أو يسأل عنه ولا همه أمره وأعلنت سخطها عليه وأنذرته بانتقامها منه فيما إذا لم يعد أو يذكر عن محل وجوده في حالة الحياه وصاروا هم يفتشون عليه فلم يقفوا له على أثر أو ذكر ولهذا فإن الأكثرية باتوا معتقدين بأن هذا الغلام قد فارق الدنيا أما بالقتل وأما بأكله من الوحوش الضارية في الأراضي الموحشة الخالية من السكان والتي طرقها على وجهه دون دليل أو رفيق.

أما القليل من رجال العشيرة فإنه ينفي موته أو قتله ويقول بإنه فر الى بلاد بعيدة بعداً عن جرو وزوجته ليعيش بها حراً طليقاً وسيعود إنشاء الله عندما يجمع المال حسب ما وعد. ومع ذلك فإنهم لم يسلوه وكلما جاء ذكره زادت أحزانهم عليه واشتد اشتياقهم للذي يأتي ويبشرهم عنه ولكن لا مبشر ولا عليم فلما ضاقت الدنيا عليهم بما رحبت كظموا غيظهم وكتموا أمرهم وبثوا حزنهم وشكواهم الى الله الذي لا يغفل ولا ينام ويمهل ولا يهمل وسينتقمون من هذا العم الخائن الذي لا يرعى ذمة ولا عهدا إن طال الزمن أو قصر.

زادت مناوئتهم لهذا العم العاهر وفوق احتقارهم له صاروا يؤذونه ويكيدون به ولا يرحمونه ورفعوا عونهم له حتى أن باقي أفراد العشيرة الذين كانوا في حزبه جفوه وانسلخوا عن جواره والتجأوا بعشيرتهم تاركين بيته منصوبا في منزله وحيداً ولم يكفه ما لاقاه من كيد العشيرة والأهانات التي يوجهها أفرادها اليه قد أصيب بمرض في عينيه عكر عليه صفوا راحته ومنعه من القيام بأشغاله ومراقبة أعماله وصار مقعداً في أحد أركان بيته ولا يسير الا بدليل يقوده حتى يهتدي الى طريقه وقبع في عقر بيته يشكو ويتألم ردحا من الزمن حتى ضجر منه أهله وذووه وبغضه كل من ساكن في بيته حتى زوجته وأولاده وقد بدد الثروة التي ورثها عن أخوه في معالجة هذا المرض لكنه لم يستفد من علاجه انقاص عيشه وإهمال الزوجة والأولاد له وزادوا في تحقيره حتى أنهم صاروا ينادونه بقولهم له لحيان مضيع عشيرتك امتهانا له وازدياداً في إيذائه.

دام هذا المرض وجرو يتعذب والزوجة الأمينة والأولاد المحبوبون دائبون السخط عليه والكيد له وهو صابر على البلاء والأذى مدة سنة كاملة. بعد انتهاء هذه المدة قيض الله له طبيباً قام بمعالجته لقاء أجور باهضة كان يتقاضاها منه وقد ختمت هذه المعالجة أن تلفت إحدى عينيه وسلمت الأخرى ليرى بها الطريق ويميز فيها الموجودات وقد نفذت معظم هذه الثروة حتى أنه لم يبق منها سوى أربعين نعجة والفرس التي يركبها وبعير وناقة للحمل عند الرحيل من منزل الى منزل.

وبما أن هذه البقية الباقية من الأغنام لا تكفي لسد حاجاته ولا تقوم باود بيته وضيوفه فيما إذا بقي البيت كبيراً ومتسعاً كحالته فقد اضطر الى الاختصار وتحويل البيت من أربعة أعمدة الى عامودين مغلقاً محل المضيف وانتقل به ملتجأ الى بعض عربانه مجاوراً حتى يستريح من مقابلة الضيوف والسائلين وقد زالت عنه الزعامة وجار عليه الزمان وانتقل من دور الرئاسة الى دور المرؤوسية ذليلاً حقيراً أينما حل وارتحل.

أما الزوجة سلمى فإنها كوفئت بظلمها لابن من كان باراً بها وبزوجها وأولادها وجعلته يفر من بلاده هائماً على وجهه وطريداً من السكنى في عشيرته حيث أصيبت في كسر بعظم إحدى ساقيها على أثر سقوطها من أعلى جمل كانت راكبة تعلو ظهره في أحد أيام رحيلهم من منزل الى منزل آخر وقدر لها أن لا تجبر لاختلاف تركيب العظم في موضعه الأصلي وصارت عاطلة من رجلها اليمنى. ولما آل أمر هذين الشخصين الى ما ابتليا فيه قنعت العشيرة واكتفت بما أصابهما عدته بأنه الجزاء العادل اليهما وأن الله تعالى لم يتركهما في جبروتهما بل انتقم منهما أعظم انتقام وكافأهما على عملهما فصرفت النظر عن الانتقام الذي نوته اليهما.

أما تافيج فإنه بعد ستة أشهر من تقلده الوظيفة في دوما كوفئ بترفيعه لوظيفة أعلى مقاماً وراتباً ونقل مأموراً للتحصيلات في قضاء النبك بجبل قلمون والذي يبعد عن مدينة دمشق بمرحلتين من الجهة الشرقية براتب ثماني ليرات عثمانية وليرتين بدل علف لراحلته لأسباب ما أظهره من الجد والنشاط في عمله والإخلاص لوظيفته مما جعل رؤساءه أن يقدروه.

ولما استلم أمر نقله وترفيعه قام بتسليم ما بعهدته الى الموظف الذي خلفه وترك دوما ورحل عنها ذاهباً أولاً الى الشام ليرى والده ووالدته اللذين أخلصا له وقاما على إيوائه وتربيته وخدمته وكانا سبباً بإنقاذه من بؤر الفقر والحرمان ليودعهما ويحوز على رضائهما. وحال وصوله الى بيت والديه دخله ضيفاً عليهما وأبلغهما خبر ترفيعه ونقله الى قضاء النبك ففرحا أولاً لقدومه وثانياً لهذا الترفيع الذي استحقه ونام ليلته هناك.

وفي الصباح ذهب تافيج الى مقام الدفترادار وبعد الاستئذان دخل عليه وقدم له التحية والشكر على ما أولاه من تلك النعم فارفقه ذلك المهم بكتب خصوصية الى قائمقام النبك ومحاسبها موصيهما به وغادره مودعاً.

عاد تافيج الى بيت والديه مسروراً من المقابلة التي قابله بها الدفتردار فودع والديه وزوداه بالدعاء والرضى وبعض الأطعمة التي يحتاجها في سفرته وبعض نقود من أمواله وخرج ليعتلي متن جواده للبدء في السفر فوجد فارسين من الدرك الذي يقال لهما بذاك الوقت "جندرمه" بانتظاره وكل منهما قابض على زمام جواده وأعلماه بأنهما سيسافران بمعيته حراساً له في الطريق بناءً على الأمر الذي تلقاه قائدهما من الدفتردار فشكرهما واعتلى متن جواده وسافر الجميع بأمان الله.

وصل تافيج مدينة النبك بآخر النهار الثاني من سفره ونزل في بيت استأجره لسكناه وفي الصباح قصد دار الحكومة وقدم نفسه الى القائمقام أولاً والى المحاسب آخراً وأرشد الى مكتبه وباشر عمله وقد توافد الموظفون للسلام عليه وقد استقبلهم بكل بشر ولطف وحفاوة مما جعل هؤلاء الموظفون أن يأنسوا اليه ويميلون له.

داوم هذا الشاب على الأشغال في مهام هذه الوظيفة بكل دقة وعناية وصار يجتمع بالجباة ويفتش عن أعمالهم ولم يكتف بذلك بل قام في جولة بالقرى يسأل وينقب حتى يقف على أحوالهم والسير في تحصيلاتهم وما يقومون به نحو الأهالي من الأفعال ثم ليقف على أحوال الأهالي وهل هم بخير من الحكم وسالمين من الظلم ولم يمض عليه إلا القليل حتى استوعب الحالة تماماً.

وعندما رأى الأهالي بما هم فيه اعتقد بأنهم على جانب عظيم من طيبة القلب وصفاء النية وأنهم مطيعون الى الحكومة ومساعدينها في كل ما تطلبه منهم كل المساعدة ولا يألوا جهداً عن تقديم الأرزاق والمؤن والرجال معا فمال اليهم كل الميل وتمكن حبهم في قلبه وصار يؤانسهم ويترفق بأحوالهم ويقدم اليهم كل ما تمكنه المقدرة عليه من التساهل والمساعدات في تحصيل الأموال المطلوبة منهم حيث جعل تحصيلها أقساطاً عليهم وبذلك سهل عليهم أمر دفعها حتى أنهم اعتقدوا في أنفسهم بأن الله جاء به اليهم نعمة أنعمها عليهم فمالوا اليه كل الميل وأحبوه وقد اتخذوه صديقاً يستشيرونه في أمورهم ومصالحهم وباتوا لا يكتمون عنه سراً ولا يخفون عنه أمراً ويخضعون لارشاداته وتعليماته.

وما أن انسلخت سنة 1914 ميلادية والدولة صارت بحاجة الى الحبوب والحيوانات وبعض المنتوجات والمحصولات لإعاشة جيوشها وجيوش حلفائها فقامت بابتياع تلك الحاجيات من الأهالي في أثمان عينتها لها من نفسها وعينت موظفين للمبايعة في جميع أقطار البلاد العثمانية. ومن الجملة فإنها قامت بهذا العمل في قضاء النبك وعينت لهذه الغاية موظفين وكتاب وجعلت من الفتى تافيج مراقباً فقام وشمر عن ساعد الجد وبدأ في عمله مراعياً للأحوال. غير أنه لم يمض وقت على هذه المبايعات حتى اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار في الأسواق التجارية وقلت الحاصلات في البلاد فاشتد به الخوف أن يقع الفلاح في هاوية الفقر والإفلاس وبفقد ثروته ومحصولاته لأن الأسعار التي قررتها الحكومة لم تك مناسبة للأسعار الحالية.

عن على بال تافيج أن يتوسط في هذا الشأن ويتوسل مع الحكومة في هذا الأمر عساه أن يتوفق بأن ترأف لحالة الشعب وترفع أسعارها لمحصولاته وفعلاً فقد ذهب الى الشام وقصد رئيسه الدفتردار وشكى له ما يعانيه الفلاح من الضيق وما يؤخذ منه من الحاصلات واشتداد الغلاء في الأسعار وكيف بات الجائع أكثر من الشبعان ورجاه أن يتوسل برفع السعر لهذه الحاجيات حتى يتمكن هذا الفلاح من الدوام على زراعته وفلاحته حتى لا تقع البلاد في مجاعة ويعمها القحط والغلاء بل الجوع والموت.

وبما أن هذا الدفتردار حراً كريماً قد حنكته الأيام وكان خبيراً بأمور البلاد فإنه قنع بحديث موظفه ووجده محقاً في حديثه فشكره على هذه الفطنة ووعده بأنه سيقوم في هذه المهمة وستحدث الى الوالي والى من له الشأن في الأمر وأنه سيوفق إنشاء الله. بعد الانتهاء من هذه المحادثة ودعه تافيج وانصرف من لدنه شاكراً ولما وجده من الموافقة على سعيه مغموراً مسروراً. وبعد خروجه من الدائرة توجه الى بيت أبيه ونزل ضيفاً فيه حسب عادته.

عاد تافيج الى النبك دون أن يظهر على ما قام به أحد وما مضى أسبوع حتى صدرت الأوامر لمن يلزم برفع الأسعار كما أراد وبلغت هذه الأوامر لموظفي المبايعة والأهالي معاً وعادت الحالة كما كانت عليه في بداية الأمر وصار الفلاح يقدم منتوجاته الى الحكومة برضاه وطوعه وبذلك تم التعاون بين الشعب والحكومة.

اشتعلت نيران الحرب وازداد سعيرها فما كنت ترى إلا والسيوقيات العسكرية تتأهب لسوق أبناء البلاد وتزجهم جنوداً في ميادين الحرب والأمهات باكية والنساء صارخة والشيوخ بعدهم عاطلة. ولم تكتف هذه الدولة من وضع يدها على الحاصلات والمنتوجات والحيوانات وسوق الرجال الأقوياء الى ميادين الحرب وترك النساء والأطفال والشيوخ والعجزة بلا معين حتى قامت بإصدار أوراق نقدية سمتها "بانقوط" آمرة بالتعامل بها كمعاملة الليرة العثمانية الذهبية وجعلت لها قانوناً صارماً يؤيدها ويجازي كل من يعبث بها أو يسقطها أو تنزيل البعض من قيمتها لدى الديوان الحربي العرفي الذي قامت الدولة بتشكيله والذي صار هو المرجع الوحيد لحكم البلاد.

انتشرت هذه الأوراق في جميع المملكة وجرى التداول بها وقد اختفت من الأسواق العملة الذهبية لهذا فلم يمض زمن يسير حتى هوت العملة في الانهيار ونزلت قيمتها الى درجة أن صارت تباع في الأسواق سراً وعلناً كل ليرة منها بريال تركي فضة.

وقد عجزت الحكومة في الأخذ بناصرها ودب الضعف في الجيش لانكساره في بدء خوضه المعارك من الحرب بموقعة قنال السويس عندما همت في الهجوم على بلاد مصر لاسترجاعها من الانجليز. وهذا الانكسار المشؤوم ساعد على اشتداد الغلاء وارتفاع أسعار الحاجيات ورجال الحكومة المسؤولون وبيدهم الحل والعقد خاملون ونائمون يغضون البصر ويتجاهلون الأمر ولا يهمهم إلا إشباع نهمهم وإملاء بطونهم من الطعام والشراب والإكثار من كنز الأموال مما ينهبونه من الشعب وأموال الحكومة تاركين الحبل على الغارب ناسين الواجب الذي عليهم نحو الوطن ومن كان فيه غير مفتكرين بأن تقاعسهم عن خدمة بلادهم وحكومتهم وعدم اتخاذهم الاحتياطات لحفظ توازن العملة والأخذ بناصرها بكل أمانة وإخلاص كشأن الدولة الحية سيؤدي بسقوط الفلاح وإفلاسه ويهوي بالدولة في الدمار والخراب.

ضربت الفوضى أطنابها في البلاد واستفحل أمر الرشوة وكثرت الدسائس وعم الفساد وبات العرض مبذولاً لمن يطعم أهله بعض الخبز وانتشرت الجواسيس حتى صار الوالد لا يأمن ولده والأخ أخاه وتاجرت الموظفين بأعمالهم يبيعون الشعب ويسلبونه البقية الباقية ما عنده حتى صار يئن من جوعه وفقره وبات المسكين هيكلاً عظمياً.

وزادت مصيبة هذا الشعب البائس خلو البلاد من رجالها وشبانها فمنهم من سيق الى ميادين الحرب ومنهم نفي الى بلاد الأناضول وصارت هذه البلاد عفراء عيراء لا يسكنها إلا البوم والنساء والشيوخ العاجزين والأطفال القاصرون.

وقد أهملت الزراعة واشتد الجوع من القحط والقلة وقلت الأقمشة والحاجيات الضرورية وصارت النساء يطوفون في القرى والمدن عاريات جائعات يتسولن باكيات نائحات يندبن غياب رجالهن عنهن حتى استحالت حالتهن الى هذه الصورة التي تقشعر لها الأبدان ويخجل من النظر اليها كل إنسان.

أما الأطفال فصاروا بحالة مزرية ودائبهم البكاء والعويل يطلبون الخبز فلا يجدوه وأنك لترى الكثير منهم جالس أو مضطجع على قارعة الطريق يشكو الجوع متألمين لعدم العثور على أي شيء يقتاتون به أو ما يسد به رمقهم وإملاء معدهم وبطونهم كأنهم أموات في جلود أحياء لتأخذك الشفقة عليهم وتبكي لبكائهم وتعاف الحياة من أجلهم.

هذا الذي تجده منهم في قيد الحياة وأما الذين يموتون يجردون بأنفاسهم فحدث عنهم ولا حرج فالطرقات والأحياء ملآنه بجثثهم حتى أنك لا تجد من ينتبه اليهم أو يكرمهم بمواراتهم التراب لأن كل واحد من هذه العالم يقول نفسي نفسي.

وكثيراً من الناس ممن عندهم الرأفة والحنان والعطف على المساكين وممن هم في دار الأجزان لا يتمكنون من مد يد المساعدة اليهم لقلة ذات اليد والعجز فيرى أن يبقى في بيته مختفياً حتى لا تزعجه هذه المناظر المحزنه ولا يرى هؤلاء البؤساء بين الأنين والعويل والأموات بين الأحياء وهوغير قادر لعلاقات أمرهم وصد الجوع عنهم ويكتفي بأن يشكو هذا الأمر الى الله.

الفصل الحادي عشر

حزب الاتحاد وخيانته على الدولة وظلمه الشعب حتى تافيج ناله بعض الرشاش

كان في الدولة العثمانية بذاك الزمن حزب سياسي يدير دفته ويسيطر على كيانها يدعى "جمعية الاتحاد والترقي" ورجال هذا الحزب خليط من الأتراك واليهود والأرمن وقد تشكل هذا الحزب في بدء أمره سراً وذلك في زمن المغفور له السلطان عبد الحميد برئاسة الوزير مدحت باشا الذي أطلقه عليه حزبه "أبي الحرية" ومن بعده خلفائه حتى آل الأمر الى خلع ذلك السلطان ونفيه من الاستانة الى بلد آخر وحبسه بها ثم إعلان الحرب في المملكة والمناداة في الأمير محمد رشاد الخامس سلطاناً.

وبزمن هذا السلطان الذي لم يكن له من الأمر شيء صارت السيطرة التامة على البلاد الى رجالات هذا الحزب ورؤسائه الذين منهم ال أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد الأعلى للدولة أي وكيل السلطان بجميع الشؤون وقد قل نفوذ هذا السلطان وليس له من السلطة إلا الأسم حيث كان شبه سجين في قصره بين الوصائف والنساء والخدم.

وقد شارك هذا الوزير بالقيام في شؤون الدولة كل من طلعت باشا وزير الداخلية وفيما بعد صدرا أعظماً أي "رئيساً للوزارة" وأحمد جمال باشا وزير الحربية والذي عين قائداً عاماً للفيلق الخامس في البلاد السورية وما يتبعها من فلسطين والحجاز ولبنان أثناء هذه الحرب الدامية. وقد عينوا ممن ينتسبون الى هذه الجمعية في وظائف كبيرة كرؤساء وولاه ومتصرفين ومدراء وقائمقامين في جميع انحاء المملكة.

وكان هؤلاء الرجال لقلة اختبارهم بالشعوب التي يحكمونها أداة ظلم وتخريب للبلاد وصاروا سبباً لتمزيق شمل الدولة وانهيارها الى الدرك الأسفل. حتى أنه عام 1312 ميلادية طمعت بهذه الدولة الشعوب البلقانية التي كانت محكومة منذ مئات السنين من قبل هذه الدولة.

وقد ثارت تلك الشعوب عليها وحاربتها وتمكنت بأقرب وقت من الانفصال عنها واستحصلت على استقلالها في حكومات وممالك متعددة بعد أن أملت عليها إراداتها بلا قيد ولا شرط وهذه الشعوب التي قامت في الثورات المذكورة وتوفقت في انتصاراتها هي بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود حسبما كانت تسمى في ذلك الزمن ولم تتركها هذه الدول التي قامت بحربها إلا وهي في آخر رمق بالحياة وقيدتها بمعاهدات جائرة في بدء عام 1914 ميلادية هذا ما عدى ما أصابها من المصائب والويلات وخسران الحرب في طرابلس الغرب مع الطليان وخروجها من هذه الحرب مقهورة ومغلوبة على أمرها وضياع تلك البلاد من يدها.

ولم تكتفي رجالات هذا الحزب بما جابهته من خذلان في الحروب التي انهكتها وما نالته من ضياع أكثر ولاياتها بل ساقت الدولة على الانخراط في هذه الحرب الضروس والتي لا تبقي ولا تذر بجانب حليفتها ألمانيا ناسية وهنها وضعفها وما كسبت من تعنت وقسوة الدويلات التي حاربتها بالأمس وأجبرتها على الخروج من بلادها وإجبارها على الاعتراف باستقلالها ولو أنها لم تحشر نفسها في هذا الموقف الحرج وكان عندها بعض من التفكير والعقل والتدبير لما أقدمت على الاشتراك في هذه الحرب الذي لا طاقة لها عليه ولا فائدة منه وتكتفي بأن تبقى على قيد الحياة لأنه خير لها وأبقى.

كل ذلك يجري ورجالات العرب وفضلائها وأدبائها قابعون كأنهم في وادي النسيان لا يسألون عن شيء ولا يؤخذ لهم رأي. ولما طفح الكيل من الظلم والاستبداد في أبنائهم وأموالهم وما صارت اليه بلادهم من الخراب والدمار وما تلاقيه شعوبهم من الجوع والأمراض وهتك الأعراض والعري وجلاء البعض من بلدانها بأسباب ويلات الحرب ملتجئين الى بلاد أخرى هي أتعس من بلادهم وأشقى لم يعودوا أن يصبروا ولا كان بالإمكان أن يهضموا هذه الأعمال ويخنسوا لهذا الضيم الذي لا يرضاه أي إنسان حتى ولا الحيوان.

كيف لا وهم يرون بأعينهم هذه الحالة البائسة المحزنة التي بات شعبهم فيها ذليلاً حقيراً تخيم عليه الزرايا ويفتك به الجوع والبلايا فقد تشاوروا في الأمر وبت رأيهم على أن يقوموا بالاحتجاج وجلب نظر رجال الحكومة لهذا الدمار الذي لحق بالشعب طالبين من هؤلاء الحكام إنقاذه من بؤس مع الكف عن هذه السياسة الرقاء التي لا تتلائم ومصلحة الدولة وحقوق الشعب.

لكن أحمد باشا كان لهم بالمرصاد فقد طوقهم بقوته وجبروته وفرق جمعهم ومزق شملهم وساق البعض منهم الى الدواوين العسكرية الحربية حيث حكم عليهم بالأعدام ونفذ فمنهم من صلب على أعواد المشانق والباقي أعدموا رمياً بالرصاص وما كفاه ذلك بل جاء على البقية الباقية من ذوي المكانة وأهل الزعامة ونفى رجالاتها مع عائلاتها الى بلاد الأناضول وتلك الجهات. ثم صم أذنيه عن سماع أي شكوى تقدم اليه من الجنس العربي غاضاً النظر عما هم فيه من الحاجة الى الغذاء رغم الأنين والبكاء الذي يراه ويسمع أصواته.

وقد طارت النخوة من رأسه وزالت الشفقة من قلبه تاركاً أمر ربه وما أمره فيه الدين والقرآن الكريم وبما أوصى به الرسول الرضا والسلام محمد رسول الله معتقداً بأن الجو سيخلو له وتقوى شوكته وينتظم سلطانه غير حاسب الى من بيده القوة وهو الحاكم العادل الذي قصم ظهور من سبقه من الفراعنة وأذل الأكاسرة والقياصرة وأزال ملكها ونفوذها وأطاح بدولها وقوتها.

ولم يكتفي بما ظلم الرجال فيه من القتل والشنق والنفي امتدت يده الى النساء يفعل يغضب الخالق والمخلوق حيث أن البعض النسوة عندما ضاقت بهن الحالة ولا يجدن ما يتغذين به هن وأبنائهن أقدمن أفواجاً الى قصره في مدينة دمشق وأحطن به مولولات ناديات بأصواتهن تقشعر لها الأبدان طالبات مقابلته ليطلع بنفسه بما هن فيه من الزراء والجوع الظاهر على وجوههن ووجوه أولادهن وكان الأبناء الصغار يشاركهن البكاء والصياح. فتنازل هذا الظالم وأطل عليهن من إحدى شرفات قصره وسألهن عن حاجاتهن فأبلغنه طلباتهن ويا للأسف هل تعرف أيها القارئ ماذا كان جوابه اليهن جوابه كان بلغة عربية فصحى: أعلمنني ايها النسوة من منكن في هذه البلاد ذبحت ولدها وطهت لحمه وأكلته من الجوع الذي تشتكين لي من دائه حتى أصدق بأنكن جائعات.

فأجبنه للآن لم يقع من هذا الأمر الذي تتطلبه وتريده ولكن إذا طال بنا الزمن سوف ترى بعينك صحة ما تريده وأننا آتيناك قبل أن يستفحل الأمر ويحدث ما أنت طالبه ضارعين اليك اتخاذ الاحتياطات لتلافي هذه المصائب راجين الشفقة علينا والإحسان الينا لأننا بقينا بائسات لا مال لدينا ولا متاع ولا سلمت الأعراض ولم يبق لنا رجاء في هذا الكون إلا أنت فأطعمنا خبزاً ولا تحرمنا.

فقهقه قهقة عالية كأنه مخبول أو مصاب بمس منالجن وجاوبنهن بقوله: إذا أنتن للآن في غناء عن الخبز ولم تكن جائعات كما تقولن وعندما أرى الوالدة تذبح ولدها وفلذة كبدها وتأكل لحمه حينئذ أصدقكن وأحسن اليكن فاذهبن الى بيوتكن واقبعن فيها ولا تتجولن في البلاد والشكوى من الجوع وعليكن إطاعة أوامري وكل اتني مهما كان أمرها تشكو فيما بعد وتتذمر فإني لا أرحمها ولا أقبل من يرحمها وسأعاملها معاملة الرجال واجعل نهايتها القتل والإعدام.

تلكأت النسوة في وقوفهن يكررن الرجاء والاسترحام فما كان منه إلا أن أمر حراسه بطردهن واستعمال الهراوي في ضربهن ففرن هاربات والى النجاة من هؤلاء الطغاة طالبات وقد تفرقن وهن يدعون على هذا الظالم الجبار وتستنجد عليه العزيز القادر.

يا لسخرية الأقدار ويا للفضاعة والجور نساء بائسات تشتكي الجوع والذلة وتطلب العطف والرحمة ويقابلن بالظلم والغلظة وبالتهديد والوعيد والإهانة وتغلق أمامهن أبواب الرجاء ويمتن مع أطفالهن جوعاً وشقاء. إنها لمصيبة ولا مثلها مصيبة ولا من منقذ ولا مشفق ولا سامع ولا مغيث ماذا يعملن وماذا يضعن وبماذا يتوسلن والأبواب سدت في وجوههن.

نعم عليهن ان يمكثن في البيوت ينتظرن زيارة عزرائيل لقبض الأرواح لكن صياح الأطفال الذي أقلق راحتهن بماذا يقولن لهم وهم يطلبون منهن الخبز والغذاء ليسدوا رمقهم من الجوع الذي فتك بهم والموت الذي يطلبنه بعيد المنال وهكذا فإننا نترك للقارئ زيادة الإجابة عنه لأنه لم يبق لدينا باب ندخل اليه لتخفيف السيئات التي جابهها بها ذلك الجبار الجزار فعفوك يا رب ورحماك.

فاقت الدنيا بأبناء سوريا وتوابعها وعم البلاء مجاوريها وقل الطعام فيها واشتد فتك الأمراض والوباء ولا من يرحم أو يشفق سوى النذر اليسير من عقلاء الأتراك ومتدينيهم والذين لم يكونوا من رجال حزب الاتحاد فقد تألموا لبؤس وشقاء هذا الشعب وهو مخيم عليه الجوع والعري واشمئزوا من أفعال "جمال السفاح وأعوانه" ولكن هؤلاء القوم القليلي العدد الذين لم يكن بيدهم أمر ولا نهي ولا حل ولا عقد ولا لديهم مال أو نفوذ بل مثلهم مثل أهل البلاد لكنهم كانوا يرثون المصاب هذا الشعب ويشاركونه حزنه ويبكون لاعتقادهم بأنهم جميعاً مواطنين والمصاب واحد ولعجزهم عن إنقاذه صاروا يهرعون بالدعاء الى الله أن ينقذهم من هذا المصاب الأليم.

ثم عندما يختلون بأنفسهم أو يجتمعون في سمرهم بالبيوت والمتنزهات يكون شغلهم الشاغل الحديث عنهم وصاروا يتطيرون من نتائج هذا الاستبداد وهذه النقمة ويقولون أن عاقبة هذا الظلم وخيمة وستؤدي بالدولة العثمانية وبالأتراك خاصة الى الدرك الأسفل من الخذلان والى السقوط والدمار لأن هذه الأعمال التي نراها تمثل دور "جنكيز خان" وسننتقم الله لهؤلاء القوم من الظالمين.

ثم انه سيأتي يوم ينتقم فيه العرب منا ومن أولادنا وأحفادنا لأننا زدنا في الجو عليهم بصورة لا يمكنهم بها النسيان لأنهم أهل أنفة وأباء ومن طبع العربي أن يتحمل ويصبر حتى يأتي الوقت المناسب اليه فيضرب ضربته ويستد ثأره ومع هذا فأنهم ينتقمون من الأتراك انتقاماً لم يسبق له مثيل والزمن كفيل وكل آت قريب.

كيف لا ينتقمون ونحن لم نكتفي بمقابلتنا اليهم في الظلم والإسائة بدون ذنب أساءوا به الينا وأهلكنا رجالاتهم وأبنائهم وهتكنا أعراضهم وسلطنا عليهم الجوع حتى فتك المرض بهم حتى حرمنا عليهم مشاركتنا في مناصب الدولة ووظائفها مع أننا نشهد بكفائتهم وأهليتهم ولم نزل مغمورون بأفضالهم وكرمهم ولو كنا اشركناهم في أمور الدولة وتساعدنا معاً واجبناهم كما يحبوننا وتعاونا وإياهم على السراء والضراء لكان ذلك أحسن وأوفى ولكن....

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

عندما أعلن الأتراك كلمة الجهاد التي تشدقوا بها فإن شريف مكة الحسين بن علي الذي توج فيما بعد ملكاً على الحجاز قد قرر الاشتراك في هذا الجهاد لاعتقاده أنه الجهاد الذي أمر الله سبحانه وتعالى بالقيام فيه في القرآن الكريم للذود عن الوطن وحياض المسلمين ورفع شوكة وطرد الناجين من بعض البلاد الإسلامية فأرسل أحد أبنائه وهو الأمير فيصل الذي فيما بعد ملكاً على سوريا ثم ملكاً على العراق ومعه المجاهدين في السكة الحديدية من المدينة المنورة والى الشام مستصطحباً كتاب خاص من لدن الشريف الموصي اليه الى القائد العام أحمد جمال باشا الذي يلعنه فيه الاشتراك في هذا الجهاد بالنفس والنفيس والمال والرجال ورجاه أن يقبل ولده فيصلاً نائباً عنه.

وقد اشترك هؤلاء المجاهدين مع قوادهم وأميرهم في الحرب مدة لا بأس بها وحاصروا مع الجيش التركي وبعض المجاهدين العرب قناة السويس وكادوا أن ينتصروا على الأعداء لولا الأحداث التي سقط فيها الشعب في عموم مدن وقرى سوريا وما يجابهه الأهالي من الجوع والتنكيل كان السبب في خذلان الجيش والمجاهدين في موقعة القنال وارتدوا عن القناة يجرون ذيل الهزيمة والفراء.

ولما وقف الأمير فيصل على حالة السكان وما هم فيه من الضيق ذهب لمقر القائد السفاح أحمد جمال ورجاه أن يرأف بهم وينعم عليهم بالخبز مع أن الحبوب كثيرة ومخزونة تكفي الجيش والشعب معاً وبدلاً من أن يوعده بتلافي الأمر توعده بالانتقام زاجراً إياه بأن لا يعود لمثل هذا الحديث لأنه يعده مضراً بمصلحة الجيش ولا يريد أن يسمعه منه مرة أخرى.

فأطاع الأمير فيصل أمره خوفاً من بطشه ووعده بأن لا يعود لمراجعته بشأنه وحسن له رأيه وأخيراً طلب اليه السماح له في الذهاب الى الحجاز ليأتي بمجاهدين أخرين وبعض ما يلزمهم من الأموال والمتاع فأذن له وسافر بالقطار الحجازي الى المدينة المنورة ومن هناك توجه الى مكة المكرمة وقابل أباه وأطلعه على على جميع الأحوال.

غضب الشريف حسين لهذه الخطة التي ينتهجها السفاح أحمد جمال باشا وصدق الأقوال التي كان يسمعها ممن أتى هارباً من البلاد العربية ملتجأً الى بيت الله العتيق وكلهم من رجالات العرب الأحرار السوري واللبناني والفلسطيني والعراقي وأهل الرأي والزعامة فيهم ومن معهم من القواد والضباط. وقد دعاهم الى قصره وأطلعهم على ما جاء فيه ولده من الأخبار المشؤومة تصديقاً لأقوالهم التي أطلعوه عليها عند وصولهم واستشارهم في الأمر وأخيراً تم الاتفاق على الثورة وعاهد الأنكليز على الأخذ بيده ونجدته وبما أنهم في حاجة ماسة الى من يتحد معهم ويساعدهم على قوى الأتراك والألمان فأنهم لم يجدوا طريقة أفضل وأعز الى كسبهم الحرب وانتصارهم على القوتين إلا بقيام العرب في هذه الثورة.

وحينئذ قام الشريف حسن بثورته المشهورة التي عم صداها الخافقين ونهض وأشباله في الحجاز ومن أتى من رجالات العرب الأحرار وقوادها وضباطها وجندوا الجند والمجاهدين ووردت اليهم الأسلحة والعتاد يرافقهما الأموال والأطعمة والثياب ونظموا الكتائب والسرايا وفرقوها على جهات متفرقة بخطط حربية نظمها الأركان الحربية. كل ذلك لأنقاذ العرب من براثن الظلم الذي حاق بهم من ظالميهم الاتحاديين وقد بذلوا كل القوى لطرد الأتراك الفاجين من البلاد كي تستقل العرب في بلادها وتحكم نفسها بنفسها.

قامت قيامة الاتحاديين وعلى رأسهم زعمائها في البلاد العربية وازدادوا عتواً وصلفاً ولا ضمير يردعهم ولا عقل يمنعهم مثابرين على أفعالهم ليتمكنوا من هلاك العرب وقطع دابرهم وإخراجهم من بلادهم الى بلاد الأناضول ليأتوا بأقوام أعجمية لإسكانهم في البلاد بدلاً منهم. فلم يتأخروا عن تنفيذ خطتهم وبدأوا بنفي بعضهم ثم ناؤوا بالأرض وأخرجوهم من بلادهم وأتوا بهم الى البلاد العربية لإساكنهم فيها كي يهلكوا الشعبين معاً.

ترك الاتحاديين فكرة تقوية الجيش وأهملوا أمر العدو الذي كان يستولي على القسم الأعظم من البلاد وداوموا على إخراج أهل البلاد من بلادهم والإتيان بغيرهم حتى يجبروا بعض من العائلات العربية أن ينتهزوا الفرصة ويفروا هاربين تحت جنح الليل ويلتجاءوا الى بلاد فلسطين التي أحتلها الجيش البريطاني منهم ليأمنوا شر الظالم السفاح جمال باشا وزمرته غير أسفين على ما تركوه خلفهم من المتاع والحلال والأملاك.

فاستقبلتهم الحكومة الأنجليزية التي تشكلت في فلسطين بالجل والترحاب إكراماً لصاحب النهضة وحفظاً على صداقة الشعوب العربية وقد قدمت اليهم المساعدات الممكنة التي لا غنى لهم عنها.

أما الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل فإنه اكتسح القسم من البلاد الحجازية واحتل موقع العقبة الذي له قيمته عظيمة في نظر الدولة وحليفتها انكلترا حيث أن العقبة هي الباب الرئيسي للبحر الأحمر والأبيض وبلادي مصر وفلسطين وسوريا.

وقد قام العرب اللاجئون الى فلسطين ينتظرون الأحوال فمنهم من بقي واخر القادر على الجهاد بنفسه التحق بالجيش العربي المخيم في العقبة للانتقام من هؤلاء العناه الغادرين. وكلهم آمال من أن هذا الجيش الذي تكلل جهاده بالنجاح والنصر حليف له سيخرج حكومة الأتراك من بلاده ويطهرها من ارجاسه ويوصلها الى الاستقلال.

أما الموظفون العرب الذين كانوا يخدمون الحكومة فكان منهم المنافق والخائن حتى أن هذه الفئة صارت تحذوا حذو رؤسائه وأسياده ويوافقهم على جورهم واستبدادهم ليكونوا في مأمن من شرهم ويتمكن من السلب والنهب.

وأما الفئة الثانية وإن كانوا لا يضرون ولا ينفعون لكنهم يساعدون الشعب في بعض الشيء سراً وهم صامتون أما تافيج فإنه كان من الفئة الثانية ولا يبخل عن تقديم الصدقات للمحتاجين مما كان يقدر عليه من ماله الخاص. لكن هذا العمل قد طال أمره ونفذ تافيج من المال الذي ادخره أولاً وآخراً ولم يبق له إلا الراتب الشهري وهو ثماني ليرات ورقية والتي أصبح قيمتها ثمانية ريالات تركية فصار هذا الشاب الكريم ينحدر تدريجياً الى العجز ومذلة الفقر كسائر أبناء هذا البلد دون أن تسول له نفسه أن يمد يده للرشوة وسلب الأموال كسائر الموظفين أقرانه أو يأتي هذا الخاطر على باله لعلمه بفضاعته وتحريمه وخيانته لأبناء وطنه والوطن معاً كما أنه يعد ذلك هدماً للقومية العربية.

وقد شاهد مرة بأم عينيه حادثة لم ينسها طيلة حياته وعلى سبيل الوقوف على ما كانت تعانيه أهل البلاد من البلاوي والرزايا واليك أيها القارئ كيفية الحادث. كان رجلاً من أهالي دير عطية أتى ذات يوم من قريته يحمل على ظهر حماره فردة من حبوب الحنطة ليدفعها الى عنبر الحكومة الذي أسس في المركز عن المطلوب منه من الحبوب بأسم ضريبة وبعد أن سلمها الى المأمور المختص خرج من العنبر بوعائه وحال وصوله وضع الوعاء على ظهر الحمار ليشد عليه الحبل حتى يعود الى القرية وقبل أن يتم عمله خر على الأرض ميتاً وقد جيء بالطبيب وعاينه ويا للأسف فقد ظهر له أن هذا الرجل قد مات جوعاً.

إن هذا الحادث المشؤوم الذي شاهده تافيج بنفسه وحضر على وقوعه ووفاة الرجل بهذه الصورة قد أنساه التفكير بالديرة والعشيرة وصار يفكر بالأمور التي تحدث نصب عينيه دون أن يحصل الفرج وقد تغيرت ظنونه في هذه الدولة وقنع بأنها خارجة عن الدين الإسلامي ومنفذاً لأمر وطلبات حليفتها ألمانيا بلا شك ولا شيبة وأنها ستصبح يوماً ما "مثل لقاطة دير علا لا كسبت لقاطها ولا حافظت على عرضها" لأن هذه المرأة تلتقط سنابل الحنطة من المزارع وبآخر النهار تأتي بها محمولة على رأسها وتخرج الحب منها وتضعه في عدل عندها فيأتي عشاقها في الليل فيما شرورها ويأخذوا الحنطة للباعة ويأتون بأثمانها حلواً وحلاوة يأكلونها معاً في ليلتهم وبالصباح تعود سيرتها الأولى.

فكضم غيضه وأتجه بفكره وقلبه نحو القائمين بالنهضة وصمم على القيام في الاشتراك لمعاونة هؤلاء المجاهدين من قومه وإخوانه لأن قيامهم هذا كان لقمع دابر المعتدين الظالمين وأعداء العروبة والإسلام. وقد صحا من رقاده وصمته وصار يبث الدعوة على نصرة إخوانهم الناهضين وفي سبيل الله والوطن مجاهدين واستمر على ذلك مدة يحرض الأهالي على العصيان والالتحاق برجال الثورة وتقديم كل معاونة هم بحاجة اليها حتى يتم الأمر اليهم ويخرجون الأفاكين من البلاد مذمومين مدحورين غير تاركين تارك العمل الذي اؤتمن عليه ولا يهمله حتى لا يجعل لرؤسائه عليه سبيلاً.

لم يسلم تافيج من شرور المفسدين الذين لا ضمير لهم ولا دين يردعهم ولا قومية تمنعهم وكان من مثل هؤلاء رجل يدعى حسين أفندي كان مأمور للمحاسبة الخصوصية "مأمور إعاشة" وإن كان هو عربي ويدعي حرصه على القومية العربية إلا أنه كان جاسوساً من حمية الجواسيس الذين بثوها الأتراك في البلاد وخائناً لوطنه لقاء دريهمات قليلة تصرف له من المصاريف السرية.

فإن هذا الخائن عندما كان يرى الأهالي يحيون تافيجاً ويحترمونه ويستشيرونه في أمورهم تتقد في قلبه نار الحسد أدى الأمر لأن يقدم أخباراً بحقه يلصق له خيانة الدولة ومشتركاً في الثورة ويحرض الأهالي على العصيان ومناوئة الحكومة وأنه جعل من بيته عشاً لاجتماع الخونة والمارقين وللمتحزبين للشريف الثائر للاتفاق على نشر المنشورات الضارة المبللة وأرسل هذه الأخبارية لسيده الذي كان يتجسس لحسابه دون أن يظهر عليه أحداً.

في ذات يوم وهو جالس خلف مكتبه بدائرة المالية إذ أتاه الجندي الذي كان يقف عادة حارساً أمام مكتب القائمقام وأعلمه بأن القائمقام بحاجة اليك وقد أرسلني خصيصاً لأخبرك بأن تتفضل وتأتي لمقامه ولما كان القائمقام هو المراقب لأمور التحصيل فقد لبى الأمر.

وحال وصوله وجده مكباً على قراءة برقية رقمية كانت أمامه على مكتبه وعلائم الكدر بادرة على وجهه فوقف أمامه وأتى بحركة نبه بها القائمقام الى حضوره فالتفت اليه وقال له: هاأنت قد حضرت يا تافيج فاجلس على هذا المقعد الموجود بجانب المكتب بالقرب مني وبعد الجلوس قال: ماذا عملت يا تافيج حتى تنسب اليك خيانة الوطن وماذا عملت الحكومة معك لتكون ضدها وتعاون أعداءها عليها.

بهت تافيج لهذا السؤال الذي لم يكن يحكم بألقائه عليه من قبل هذا الصديق الذي كان يوماً من الأيام يسمع منه كلمة توجب تكديره وأجابه: تعلم يا سعادة البيك بأنني ذلك الرجل العاقل الذي لا يهمه من دنياه إلا معاشرة الرجل ذوي الأخلاق الحسنة وأني أقوم بأمر الوظيفة بكل جد واجتهاد ونشاط وأمانة ولا فكرت بعمل شيء أقوم به ضد الحكومة وضد

أشخاص آخرين وبما أني أجهل كل ما تسألني عنه فأرجوك أيها الشهم الكريم أن توقفني على الحقيقة سيما وأني أعدك صديق صدوق وخل وفي ولا أعتقد فيك إلا كل مودة وإخلاص ودوماً ترشدني الى فعل الخير وتغمرني بفضلك وكرمك ولا أخاولك يا سيدي إلا معلناً إياي بما يسند الي حتى إذا كان صدقاً أقررت لك به وأطلعتك عليه وإن كذباً فجزاء من ارتكب تلك الجريمة بحقي عندك.

القائمقام: نعم إني والله صديقك لا بل أخوك الذي لا يريد إلا الخير لك مغموراً بكل سعادة ومع هذا فإني لا أحسب أن يعزى إليك شيء يسيء الى سمعتك إلا أنه في هذه الساعة وردتني برقية سرية من جناب والي سورية تحين بك فخذها وأطلع على محتوياتها وأعلمني الحقيقة ولا تخفي عني شيئاً. أخذ تافيج البرقية وقرأها وكان قد قال ترجتمها باللغة العربية:

قائمقام النبك:

"ورد الي أخباراً تتضمن اشتراك مأمور التحصيل تافيج الجيوري مع الثوار وأنه يحرض أهالي البلاد على العصيان وأنه يرأس عصابة سرية لمناوئة الحكومة ومقرها في بيته فبوصول برقيتي هذه إليك أسرع بإلقاء القبض عليه وتفتيش داره وإرساله مع الأوراق التي ستجدها مخفوراً لديواني ليساق الى الديوان الحرب العرفي لينال جزائه".

بعد أن انتهى تافيج من تلاوة البرقية خاف لأول وهلة من سوقه الى ديوان الحرب العرفي لأنه كان يسمع ما يقوم به عصبة هذا الديوان من أنواع الشدة والعذاب على من يرميه القدر في وجوههم وأيديهم وقد قيل بشأنه أن من يدخله يعد مفقوداً ومن يخرج منه سالماً يكون مولوداً. وقل من دخل اليه وخرج سالماً بل يذهب إما الى المشنقة أو السجن أو الى المنفى وكان رئيسه برتبة أميرالاي زعيم وأنه من تلامذة ذلك السفاح الذي يركن اليهم حيث يحذون حذوه بالبطش وكراهية الشعب وأخ الطائع بالعاصي والبريء بالمجرم. فاصفر لونه وكاد وجهه بإصفراره هذا يحاكي وجوه الموتى لأن ذكر اسم هذا الديوان سبب له هذه الحالة.

فلما رأى القائمقام ما صار اليه هذه الشاب من الإصفرار وسوء الحالة انتبه الى ما يراه أن ذلك لم يكن من أسباب التهمة بل خوفاً من الإرسال به الى تلك الطغمة التي لا ترحم فرثى لحاله وبدت الشفقة في قلبه عليه وقال له: لا تيأس يا أخي ولا تخف يا عزيزي وثق بأخيك يا تافيج وكن عند حسن ظنك به فوالله لا أسلمك الى هؤلاء الطغمة الأشرار لكي ينتقموا منك وسأساعدك بكل ما أقدر عليه ولا أنيلهم مطلبهم لأني أعلم الناس بك وبأعمالك وأفعالك. أما قولهم يا أخي بأنك خائن للدولة والوطن فإنه مردود عليهم ولم تكن أنت الخائن بل انت الشريف وهم الأشرار الخونة وهم الذين باعوا الوطن ومزقوا كيان الدولة شر ممزق وبأفعالهم وأعمالهم التي يقومون بها تجاه السكان سيسببون على إجبار الشعب البائس على العصيان وبالقيام بالثورات وأما تألمك من أفعالهم ورثائك لحالة هذا الشعب البائس فإنك محق به وموافقك عليه ويعلم الله أني مشاركك فيه لأن الاتحاديين لا يهمهم من أمر هذه الدولة إلا كنز الفضة والذهب أن عمرت البلاد أو خربت وقد سبق لهم أن كانوا السبب في ضياع بلاد الألبان منهم والتي هي بلادي وأرهاقهم قومي وأبناء عشيرتي وتركوا الوطن ولجأوا الى الأعداء ناجين هم وأبنائهم ونسائهم من بطشهم والإذلال التي يواجهونه منهم فلا تكترث بهذه السقاسف وهذه الإخباريات الكاذبة والترهات الزائفة واركن الى ربك فإنه سيجعل لك من هذا الضيق مخرجاً ومن البلاء فرجاً وسلاماً.

فاذهب الآن الى بيتك وانتظرني به لأني سآتيك يرافقني فضيلة القاضي الشرعي وقوماندان الجندرمة (قائد الدرك) زائرين إنما بصورة رسمية مفتشين لبيتك ومنقبين على ما يظنون به ويزعمونه بوجود أوراق ومنشورات تحريض على العصيان فيه وسنعمل ضبطاً في شأن ذلك لاعتقادي بأن لا وجود شيء منها عندك. فأجابه تافيج أني وإن كنت شاكراً لسعادتك هذه المقابلة الأخوية والثقة التي طوقتموا فيها عنقي مشفوعة بلحنو والمساعدة ويعلم الله أنني براء من هذه التهم التي لا أساس لها بل هي كذب وافتراء إلا أني لا أذهب الى بيتي إلا ماشيا بمعيتكم لازدياد الثقة في براءتي.

ذهب القائمقام محمد راسم بك الارناؤوطي وفضيلة القاضي الشرعي محمد فضلي أفندي التركي وقوماندان الجندرمة واليوزباشي محمود بك الجركسي يرافقهم تافيج بصفة زيارة لداره وهناك بعد دخولهم الدار وجلوسهم في الغرفة المخصصة للزائرين قام القائمقام وأبلغهما كيفية الحادث والغاية التي أتوا من أجلها.

وبما أن الثلاثة هم من حزب واحد ولا يختلفون في أي شيء من الشؤون ومن أصدقاء تافيج فإنه تم ما بينهم فينل اجتمعوا من أجله على تنظيم ورقة ضبط في نفي هذه التهمة. نظم الضبط الذي اتفقوا فيه على ما أرادوه من تكذيب الخبر والمخبرين وما كانت هذه الأخبار إلا من صنع الحاسدين والجواسيس والمنافقين والكاذبين ووقعوه بإمضاءاتهم وسلم الى القائمقام ليقوم بما يتوجب عليه من الرد على البرقية الأنفة الذكر وعادوا لدار الحكومة دون أن يشعر بهم أحد.

بعد وصول القائمقام لمركزه أبرق الى الوالي بما أجراه من التحري والتفتيش وظهور كذب الأخبار وعدم صحة ما أسند الى تافيج من الأفعال. وحيث أن جناب الوالي له ثقة تامة في ذلك القائمقام ويعتمد عليه كل الاعتماد فإنه اقتنع بما جاءه وأمر بحفظ الأخبارية والمخابرات الجارية بشأنها في إضبارة الإهمال.

الفصل الثاني عشر

غضب رئيس ديوان الحرب العرفي على تافيج ووضعه إياه تحت مراقبة جاسوس

كان القائد العام جمال باشا عند وصوله الى سوريا واستلامه زمام الحكم ومهام القيادة قد شكل في البلاد الدواوين الحربية العرفية وفي نفس الشام ديوان الحرب العرفي الذي يرأسه الميرالاي والذي كان صنيعة السفاح جمال ومن أكبر قواده يثق به كل الثقة لما يعلم عنه من شدة البأس والصلابة لا يرحم صغيراً ولا يوفر كبيراً ومن شدة بأس هذا الرئيس الذي كان لا وجدان له ولا أمانة تعميه عن البطش ولا ضمير يؤنبه عن أفعاله المجرمة فقد عين له جواسيس ممن لا أخلاق لهم ليقوموا بخدمته وبذلك قويت شوكته وعم بلاؤه.

وبما أنه كان يتعطش دوماً لأراقة الدماء وتعذيب الأبرياء فقد حث جواسيسه على العمل وبناء على أوامره صارت الإخباريات الصادقة والكاذبة ترده يومياً وأسبوعياً وشهرياً. ومن جملة جواسيسه حسين أفندي مأمور المحاسبة الخصوصية في مركز البنك والذي يشبهه في أفعاله وقدم هذا الجاسوس تقاريره إليه ومن جملة التقارير الإخبارية الكاذبة الذي أرسله اليه يحكي بحق تافيج.

ولأن هذا المتهم هو من موظفي الحكومة وحتى لا يغضب الوالي الذي لم يتمكن من استمالته لجهته فقد أرسل له ذلك التقرير ليرى ما يبديه فيه ويرغمه على ارساله للديوان الحرب العرفي بواسطته دون أن يعلم أن هذا الوالي لابد وان يحقق في الأمر حتى اذا ما وجد التهمة غير ثابته فإنه يهمل أمرها. مكث هذا الرئيس مدة من الزمن ينتظر بها ارسال ذلك المأمور الذي يزعم بأنه خائن بلاد ديوانه ولما طال الامد ولم يرسل اليه أو يأخذ جواباً عنه عاد فكرر السؤال عنه مرة أخرى مؤكداً على الوالي سرعة أرساله مع الأوراق المختصة به.

ولكن جاءه خلاف ما كان يتوقعه ويتشوق اليه فخاب أمله وانكسرت شوكته حيث أن الوالي أخبره بجوابه على التأكيد بأنه حقق في أمر هذا الموظف بواسطة القائمقام وظهر له عدم صحة هذه التهمة والموظف الموجه اليه هذه التهمة بريء منها ولثقة القائمقام المذكور قنع بأن لا صحة لهذه الإخبارية وقد أمر بحفظ أوراقها في إضبارة المهملات.

فغضب ذلك الرئيس لهذه الصدمة التي صدمه بها الوالي بجوابه وبما أنه لا يتمكن من مجابهته وتكذيب قائمقامه صمت على مضض واحضر لديه مدير الشرطة السورية الذي هو له من أطوع بنانه ومن المشتركين في الحزب الاتحادي وأوقفه على قضية ذلك الموظف العربي وملابساتها وأنه غير قانع بتحقيق القائمقام ويريد منه إرسال شخص يعتمد عليه الى النبك ليقوم بالتجسس على هذا الموظف الخائن العربي الدميم وان يكون له اتبع من ظله في غدواته وروحاته حتى يتمكن من اقتناصه.

وافق مدير الشرطة على أوامر الرئيس وعاد الى مكتبه وانتخب شاباً من الشرطة السرية والذي له به ثقة والمقدرة على القيام بهذا العمل وهو تركي الأصل عربي المولد ولا يشك من يراه أو حادثه إلا ويقول بأنه بعيد عن الجنس التركي وصميم من الجنس العربي فأحضره لديه وأبلغه بما عهد به اليه واتفق الاثنين فيما إذا كان يراد نجاح هذه الغاية أن يعين هذا الجاسوس بوظيفة موزع في بريد النبك ليتمكن من الوقوف على جميع مخابرات هذا الموظف الرسمية والخصوصية وأحواله وحركاته وبموافقة مدير البرق والبريد العام في سورية تم أمر التعيين ووفق الجاسوس بأمر تعيينه وكتاب توصية بحقه يأمر مدير بريد النبك فيه أن يساعده بأعماله ويوقفه على جميع أسرار الدائرة حتى يتم له الأمر الذي أرسل بشأنه.

سافر هذا الموزع الى مركز وظيفته وحال وصوله قدم لرئيسه ما لديه من أوامر استلم مهام الوظيفة بالصورة التي يرغبها. وبما أنه شاب في مقتبل العمر حلو الصفات طلق اللسان لطيف المعشر فإنه بأقل وقت اندمج بالموظفين والسكان معاً وصار دأبه الحديث عن ما يجده العرب من المصائب وظلم الأتراك اليهم ويظهر رثائه لهذه الأحوال التي تردى بها أبناء جلدته من الفقر والجوع فأحبه كل من يتعرف عليه حيث أنسوا به وركنوا لعشرته وصادق البعض منهم ومن الجملة فإن تافيج وقع في شباك مصيدة صداقته وأصبح الأثنين صديقين حميمين لا يفترقان كأنهما شقيقين لا يفترقان.

ولما توثقت عرى الصداقة بينهما وتآلفهما لبعضهما كأن الواحد منهما مؤلف للآخر اتفق على أن يسكنا سوية في دار تافيج وقد تمت هذه السكنى يسرحان ويمرحان في سهراتهما ونزهاتهما دون أن يعلم الشاب تافيج طيب القلب ما يضمره

هذا الصديق اليه وما ينطوي عليه قلب هذا الماكر اللعين من الخداع والنفاق وأنه ليس بصديق بل عدو لدود وحية رقطاء ادخلها في عبه لتلدغه بأسنانها وتفريغ كل سمومها في جسمه وتقذف به الى أبواب الأبدية والقضاء على حياته.

دام هذان الصديقان على صداقتهما واستأنس تافيج به حتى أصبح لا يتسلى إلا به وبوجوده ولا يصبر على فراقه واعتقد أن الله سبحانه وتعالى وان كان حرمه من شقيق لكنه رزقه أخاً كريماً وسوف لا يتركه مدى الحياة. وصار تافيج يرافقه معه عندما يسافر الى القرية لتعقب التحصيلات بغية التعرف على الأهالي ومعرفة أحوالهم والوقوف على أحوالهم ومعائشهم بناء على ما التمسه ذلك الوغد الحقود.

وكان تافيج لحسن طويته ونقاء سريرته لا يرفض لهذا الشاب الذي اعتقد بإنه أخوه ومن طينته أي ملتمس يلتمسه منه دون أن يدري بأن هذا الصديق لا يرافقه إلا لحاجته في نفس يعقوب وهي المهمة التي انتدب اليها ولكن الله الذي كان له بالمرصاد أبى أن يوفقه الى مبتغاه وأنه سيعود من هذه المهمة بخفي حنين خاسراً ذميماً ويجر أذيال الخيبة والانحار.

أما مدير برق وبريد النبك وإن كان تركياً إلا أنه عربياً من جهة والدته ومولود في بلاد عربية وعلى جانب عظيم من الديانة يخاف الله ويتقي دعوة المظلوم ويبغض الاشتراك في الآثام والشرف فخاف عاقبة أمر هذا الجاسوس وما يكيده الى تافيج واسمه صالح أفندي فلم يعجبه ما يراه من الأعمال التي يقوم بها هذه الجاسوس وقد قال في نفسه: ما الذي ينفعك يا صالح تدينك وانت ترى الباطل يظهر على الحق والصدق وتسكت عليه فالسكوت على مثل ذلك يعد جريمة لا تغتفر فكيف أقابل خالقي وأنا شريك لهذا اللئيم بما سعى اليه وعلى أن أزيل هذا الشر قبل وقوعه وأجري على الله ولابد من تحذير هذا الشاب المظلوم من الوقوع في الهاوية التي يحفرها ذلك الشيطان الرجيم له.

عندما اختمرت هذه الفكرة برأسه قرر أن يدلي بأقواله هذه الى القائمقام لكن خوفه من فضيحة هذا السر على يديه وتكون العاقبة وخيمة ويفقد وظيفته التي براتبها معيشة أطفاله والله يعلم أن القضية لا تتوقف على عزلي وقطع رزق عيالي بل ستتخطاهما الى أعظم من ذلك حيث أساق الى ديوان الحرب العرفي بجريمة فضح أسرار الدولة ويحكم علي بحكم جائر لا يقل عن الشنق لاسيما والاعتقاد السائد بين الناس أن ملك الموت رابض أمام ذلك الديوان المشؤوم لتنفيذ مهمته.

تصور المشنقة أمام عينيه فارتعدت فرائصه ومن شدة خوفه أزال فكرة سر الجاسوس من رأسه. صبر هذا الصالح يوم ويومين وثلاثة وعاودته هواجسه وأنبه ضميره على كتمان ما يجري تحت نظره فناداه شرفه أن تكون الشهامة رائدة وطاعة الله تعالى بين عينيه وأن يقوم بهذا الواجب العظيم لانقاذ هذه الضحية من مخالب الشرير وعليه أن يقدم على أخبار القائمقام عن تلك العملية لأنه ليعلم بأن القائمقام هو صديق تافيج الأمين ولا يتركه دون مساعدته.

وفي ليلة من الليالي ذهب صالح أفندي لدار القائمقام بقصد الزيارة له والسمر عنده بعد أن مضى ما يتجاوز الخمسة عشر يوماً على مجيء الموزع الى النبك فاستقبله مرحباً مكرماً إياه بإجلاسه على طنفسة نظيفة بجواره وصارا يتسامران مع بعضهما وبأثناء السمر قال القائمقام: يا صالح أفندي أرى أن موزعكم الجديد على ما يقولون أنه شاب طيب لطيف المعشر حسن السلوك ومن إنسانيته أنه حالاً تصادق مع رفيقنا تافيج وأراهما يحبان بعضهما ولا يفترقان فاهنئك به أيها الصديق الكريم.

فاجابه صالح أفندي: أني أشكر لسعادتك على ما لقبتني به من اللطف والإنسانية وطيب العنصر ولكني أرجوك أيها الشهم أن لا تهنئني في هذا الموظف الذي تراه محسناً في الظاهر بل ادعوا الله تعالى أن يخلصني منه لأنه مسيئاً في الباطن وتنهد تنهيدة حارة وقال أن رفيقنا تافيج مسكين وطيب القلب وأسأل الله تعالى أن لا يفجعنا به لأني أرى المياه تجري من تحته وهو لا يحس بها.

فانتفض القائمقام لما سمعه من الأقوال وتعجب من حديث هذا المدير الذي يعتقد بأخلاقه وصدقه وأنه لا يقول كذباً بل دأبه الصراحة والوفاء وقال له أفصح يا صالح وزدني صراحة لأن قولك هذا يقضي مضجعي وأكاد أن أنسب اليك الحسد الى موزعك. ثم ازعجتني على رفيقنا تافيج عند ذكرك إياه ولا بد أنك قد اطلعت على شيء يضر بصالحه فأعلمني

بصراحة على ما هو متعرض اليه ولا تكتم عني أمراً وثق بأني أمين على أسرارك وسأكتم في قلبي ولا أظهر عليه أحداً والله على ما أقول وكيل.

عندما سمع المدير ما تعهد به القائمقام من كتمان السر تهللت أساريره وقال: لا تنزعج أيها النبيل ولا تظن بي سوءاً وسأخبرك بالقصة من أولها الى آخرها ولا أكتم عنك شيئاً وساعتمد على مرؤتك بإخفاء ما أحدثك به حتى لا أفقد وظيفتي وقطع رزق عائلتي وبعدها أساق الى ديوان الحرب العرفي وأنت تعرف الأمور التي تجري فيه. فأكد القائمقام له العهد ووعده بكتمان السر وأوصاه أن لا يخاف ولا يفكر.

حينئذ قام المدير وروى اليه الحديث كما جرى وكما أمر بجعل الموزع أن يطلع على المكاتبات التي تختص بتافيج رسمية كانت أو خصوصية وكان يتجسس عليه في الخارج دائماً يرسل تقاريره الى رئيس ديوان الحرب العرفي وأنه من رجال المباحث السرية الذين يستخدمون في الجاسوسية تحت إمرة مدير الشرطة العام ولم يترك واردة ولا صادرة إلا وحدثه بها وأوقفه على محتوياتها فأريدك أن تدبر الأمر وتحافظ على هذا الشاب حتى لا يرد موارد التهلكة التي يريد هذا الجاسوس له موردها.

ودليلي على صحة أقوالي هذه فإني أطلعك على كتاب التوصية التي وردتني من مدير البرق والبريد العام في سورية وقدم له الكتاب وكرر قوله بإنه للآن لم يحدث الى تافيج شيء مما ذكر إلا أن هذا الشرطي إذا بقي مواظباً على صداقة هذا الشاب فإنه سوف يوقعه في الاحبولة التي نصبت اليه.

أخذ القائمقام كتاب التوصية وبعد أن قراءه ووقف على محتوياته التي جاءت مصداقاً للأقوال محدثه أعاده اليه وقال: اشكرك أيها العزيز الشكر الجزيل على ما أوقفتني عليه من جلائل الأمور التي لم تكن تأتي على فكري ولم أكن أتصور حدوثها من ذلك الجاسوس الشرير ومن أسياده المردة الجبارين وأعلم أيها الصالح الكريم أن إخبارك إياي بحادث يجري حول شاب أديب وأمين لم يك منك إفشاء لأسرار الحكومة ولا يعد خيانة للوطن ولكنك قمت بعمل شريف تنقذ به حياة امرئ برئ من تهم كاذبة لا نصب لها من الصحة وبذلك تكون قد احييت نفساً تشكر عليه ويجزيك عنه الخالق العظيم أجراً عظيماً.

ثم اني أجدد لك عهداً القسم بالأسم الأعظم بإن الحديث الذي جرى بيننا من الأسرار التي لا يطلع عليها أحد ولا تفشى وسأقوم على ملاقاة هذا الأمر وأفرق بين الأثنين وانقذ تافيجاً من أيدي هذا الماكر ولا نريد من هذه الخدمة إلا العفو والغفران من ربنا والأجر والثواب.

عندما سمع المدير ما قاله القائمقام أعجب من نخوته وشهامته ومحافظته على الصداقة والأصدقاء فرح واستبشر وقال له: الآن قد استراح ضميري واطمئن بالي فجزاك الله عني وعن هذا الشاب البائس خيراً وها أني استودعك الله وقام مودعاً عائداً الى بيته.

تمدد القائمقام بفراشه لينام كعادته ورغم تقلبه به فإن الأفكار ساورته ولم يجد للنوم سبيلاً وصار الفراش الذي يتقلب عليه كأنه شوكاً ساماً يلذغ جسمه وصار يتلوى كأنه يتقلى على جمر الفضاء وبعد قلق دام ملازماً له بضع ساعات غفى في نومه وفي الصباح الباكر صحى من نومه مهدد الجسم وارتدى ملابسه وذهب تواً الى دار الحكومة غير عادته وأرسل رسولاً الى تافيج يستحضره من بيته ليختلي به دون أن يقلقهما أحد وجاء تافيج ودخل عليه في مكتبه وبعد أن أغلق الباب أجلسه بجانبه وبادئه في الحديث قائلاً: في مدة ليست بالقليلة ما رأيتك يا عزيزي وقد اشتقت إليك فأرسلت خلفك في هذا الوقت الباكر ولأشاهدك أولاً ونتكلم عن سير التحصيل آخراً.

وعلى فكرة أريد أن اسألك عن صديقك الموزع الذي اسكنته معك في دارك وكيف حاله تجاهك وعسى أن تكونا في وفاق ووئام. فأجابه بقوله: نعم أني رأيت يا سيدي من هذا الشاب لطفاً وعشرةً حسنةً وسمواً في خلقه وسلوكه والحق أنه خليق بأن يصادق وأنه من الأشخاص الذين يركن الى صداقتهم ويعتمد عليهم وفي المدة التي تعاشرت بها معه لم أرى منه

ما يكدرني وينغص علي معيشتي ولكنه منذ يومين أسرى لي بأنه غير راضٍ عن أفعال هذه الحكومة وأظهر لي تألمه لحالة الشعب والقسوة التي يعامل بها حتى أنه صار يشوقني لنفر معاً ونلتحق بجيش الثورة الذي يقوده سمو الأمير فيصل والمخيم بأراض العقبة غربي مدينة معان. ونشترك مع إخواننا في جهادهم وننقذ البلاد من ظلم الغاصبين لأن الواجب يحتم علينا بأن لا نتقاعس عن نصرة إخواننا ونشاركهم في سرائهم وضرائهم عسى أن نتوفق وننقذ البلاد من هؤلاء القوم الذين لا يرعون ذمة ولا عهداً ونتمكن من الوصول الى استقلالنا ونحكم أنفسنا بأنفسنا ونصون حرياتنا واعراضنا وسيسطر لنا التاريخ هذا الجهاد في مداد من الذهب.

وبماذا أجبته يا تافيج على حديثه. أجبته أنني أعيش من فضل حكومتنا أيدها الله ولا يمكنني خيانتها ولا الخروج عليها ونسيان فضلها والاشتراك مع أعدائها وإذا كنت تريد تنفيذ قولك وتلتحق بنفسك فهذا شأنك وأرجوك من الآن وصاعداً أن لا تفاتحني بمثل ذلك. ولما سمع مني ما قد سمع كتم ما في نفسه ورجاني بأن لا أبوح بسره وأن أكون حافظاً لسريرته حتى لا يكون عرضة لبعض الأذى. فوعدته بالكتمان ولو لم تكن أنت من الأصداقاء الأوفياء وعزيز علي وأني مغمور بفضلك طيلة حياتي ما أطلعتك على هذا السر راجياً عدم البوح به وإخفائه.

عندئذ قام القائمقام من مجلسه واقفاً وقبل تافيج بين عينيه وإمارات البشر والسرور تطفح على وجهه وقال له: مرحى بك أيها الأخ مرحى على هذا النبل الذي تجابه به هذا اللئيم لقاء كيده إليك والى كل من يكون لديه ذرة من الوطنية وقد ازحت عن صدري كابوس الضيق وانفرج همي واستراح ضميري على ما قمت به من الرد على ما جاءك به هذا النذل من الأقوال وبجوابك إليه هذا الجواب جعلت كيده في نحره.

فاعلم أيها العزيز أن هذا الدنيء لم يكن عنده ذمة ولا ضمير يردعانه عن غيه ولا شرف ولا ناموس يمنعانه عن أفعاله وأزيدك إيضاحاً بأن دأب هذا الخادع الماكر والخيانة وقوله الذي هو شوقك للإقدام عليه لم يكن به صادقاً. وبما أنه بعيد عن فعل الخير للوطن والوطنية ولا يحجم عن شيء يؤذيك به حتى ينال رضاء مرسليه وقد علمت بالأمس أن هذا الشخص لم يأت الى هنا موظفاً كما يدعي ويقال بل أرسل خصيصاً باسم الوظيفة التي يقوم بأعمالها ذراً للرماد في العيون ويتمكن من التجسس عليك خاصة ليوقعك في فخ نصب إليك لاقتياضك في الاحبولة وإرسالك الى أعواد المشنقة وتشويه سمعة الوالي وانعتك بي أيضاً لإقدامنا على تكذيب الإخبارية الأولى. فاحرص على نفسك من هذا الوغد اللئيم ولا تركن اليه ولا لأقواله التي تشبه المثل العربي:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وإياك أن تعاتبه أو تظهر بأنك قد وقفت على أسراره وخذ منه ولا تعطيه وكلما قدرت إقصائه عنك فلا تتأخر وخفف من الاجتماع به ومن غدواتك وروحاتك وسهراتك واترك الزيارات لاصحابك أو غير اصحابك واقتصر السفر الى القرى والاكتفاء بتدقيق المعاملات التحصيلية في المركز حتى تسلم من عاقبة تجسسه وتزول هذه الغمة ويفرجها الله.

فلما سمع تافيج من محدثه هذا الخبر الذي وقع عليه وقوع الصاعقة غضب على نفسه في تقديم الإحسان الى هذا الذميم الناكر للجميل وإسكانه في بيته حتى يكون تحت مراقبة بلا تعب ولا عناء فكظم غيظه واكتفى بما اشار به عليه صديقه وعقد النية في تجنبه ولا يترك له مجالاً للتحدث معه بشيء له مساس للدولة متوكلاً على خالقه.

وبعد الانتهاء من هذا الحديث والموافقة على ما عقدوا النية عليه قام تافيج وودع القائمقام شاكراً له هذه الرعاية داعياً الى الله الكريم أن يعزه ويحفظه واعداً بتنفيذ ما أوصاه به وذهب تواً الى مكتبه ليقوم بأعمال وظيفته كعادته كأنه لم يجر شيء.

مكث هذا الموزع مدة ثلاثة أشهر يفتش ويسترق السمع دون أن يتمكن من إيجاد ما يصبوا إليه ولا دليل يتهم تافيج به وقد حاول أن يجد أحد من يشكوه ولو بأتفه المسائل فلم يظفر به وقد ذهبت أتعابه هشيماً تذروه الرياح.

انتبه تافيج الى أعمال هذا الشرير وبدلا من أن يكون هذا الجاسوس هو المتجسس فإن تافيج قابله بمثل ما يقوم به وقد ظهر له بعض الشيء من نواياه وتأكد من صحة ما أخبره به إلا أنه خجل أن يطرده من بيته صابراً صبر الكرام على هذا الضيم الذي يصادفه فكتم أمره ولم يشكو لأحد ما في ضميره ولم يجد وسيلة لتلافي ما يصنعه ويأمن شروره إلا أن يقبع في داره وينقطع عن جميع معارفه لا يزور ولا يزار ولا يسهر ولا يسمر كأنه عابد في صومعته في برية خالية ووضع كل اهتمامه في أمر وظيفته والتحدث في شؤونها غير مهتم بأصدقائه وما يتقولون به عليه على هذا الانقطاع الذي لم يألفوه منه ولا سبق له الإتيان بها.

الفصل الثالث عشر

مجيء عشيرة بن مجلاد لهذه الديرة وغزوها أهلها ونهب أغنامها

إن بادية العراق المجاورة لبادية الشام من جهتها الشرقية آهلة بالسكان البدو الرحل من عشائر "شمر" والعدد الذي لا يحصى من عشائر "اعنزه" والمتعددة الأسماء في الجزيرة العربية وفيها "أهل الناقة" أي اقتناء الإبل من إناثها وذكورها وآخرون يربون الماشية من الأغنام ومعها الإبل ولدى الجميع خيول عربية أصيلة كثيرة ولا يخلو بيت من بيوتهم على أقل من رأس ليكون لكل رجل من رجال كل حي جواداً حيث يعدونها لمجابهة الأعداء ومطاردتهم على ظهورها. وتعينهم في هجومهم على من يغزون عليه من العربان المناوئة اليهم كما هو دائبهم في غزواتهم لإحراز النصر عليهم وكسب ما يقع في أيديهم من البوش والحلال.

ولا يحجمون عن بذل كل روح عزيزة لديهم وغالية تجاه مقاومة اعدائهم لاسيما والشيوخ منهم يحرضونهم على مثل هذه الغايات التي يفتخرون بها والشعراء ينشدونهم في نداوتهم الأشعار الحماسية والأطناب في مدح الفرسان وما يقومون به من الفروسية والبطولة ويترنمون بأشعارهم في علو قدر الفارس الذي يحرز مقاومة الأعداء ويكلل رأسه بتاج من الفخر والنصر ويكون نصيبه زيادة في الكسب. يتنقلون هذه الأقوام كالجراد المنتشر في مراتع بلادهم ينشدون الكلأ والماء لمقتنياتهم من الإبل والمواشي وسائر الحيوانات في أي موقع يجدون فيه الريف والكلأ. وعند اللزوم إذا وجدوا أن بلادهم خف كلائها وسمعوا أن ريف البلاد السورية هو أخصب من ريف بلادهم فإنهم لا يتوانون عن الدخول إليها ويتمتعان في خصبها وخيراتها.

ومن جملة هذه العشائر هي عشيرة بن مجلاد التي تعد فخذ من أفخاذ تلك العشائر ومن خيرة أفخاذها وهي على جانب عظيم من القوة وشدة البأس وتصبوا دوماً الى تحدي من يعاديها وتغزوا من كان غريباً عن عربانها فإنها بأواخر فصل الشتاء لعام 1917 ميلادية انتقلت بخيامها ومتاعها وحلالها "أي ماشيتها وإبلها" ودخلت الأراضي السورية وخيمت في السهول الكائنة في شرق مدينة تدمر الأثرية حيث وجدت الخصب والمراتع الواسعة وخلو هذه الأراضي مما يعكر صفوها وهنائها.

جاء فصل الربيع من تلك السنة بخصب كلاءه وخيرات نباته وذهب رعاة أغنام أهالي بلدة النبك ومن يجاورها من القرى ذات الأغنام في بيوتها ونسائها وأطفالها الى سهول أرض الدير الكائنة شرقاً ولا تبعد عن هذه البلدة إلا بمسافة ساعة ونصف وخيموا بها كعادتهم كل عام وانتشرت أغنامهم في تلك السهول ترعي بها.

أما هؤلاء الرعاة فإنهم كانوا خليط من حضر القرى والعربان التي يقال عنها "المشوية" أي أن صفتهم دوماً رعي المواشي من عرب النصير يسكنون بجوار تلك القرى في البلاد يعيشون من الناتج الذي يأتهم من الأجور حسب ما يتفقون عليه وأصحاب الأغنام على شروط كما وأنهم لا يحسبون من البدو الرحل ولا من الحضر المقيمة.

وفي يوم من أيام هذا الفصل الشائق والأزهار تعبق روائحها في الأنوف البشرية والرعاة مع الأغنام راتعين في هذه السهول إذ بمجيء الوجيه عبد اللطيف ساره من فسيحية النبك ونزل ضيفاً في بيت راعي أغنامه ليتفقد أحوالها وكان وصوله ضحى من النهار وماكث إلا القليل إلا والصباح قد علا من جهة الشرق ومن الموقع الذي كانت الأغنام جميعها ترعى به وسمع قائلاً يقول: الأغنام أوخذت "أي أن الأغنام نهبت". فقام هذا الوجيه وركب فرسه متجهاً نحو موقع الغوغاء والصياح ليستجلي الخبر ويقف على حقيقته والأسباب التي أوجبت نهب هذه الأغنام وما أن أشرف على الوصول الى هذا الموقع إلا وقد رأى فرساناً غائرة وتجمع الأغنام عمومها في صعيد واحد وتسد الطرق على الرعاة حتى لا تفر وتنهزم.

فأسرع نحوهم ليقف على أمرهم ويسأل لماذا يقومون هؤلاء الفرسان بعملهم الذي لم يسبق حدوثه في هذه البلاد أو مشاهدته. ولما ان قرب منهم وقبل محادثتهم بهذا الشأن أو سؤاله إياهم عن أغنامه التي وجدها من جملة الأغنام المسلوبة وإذا بأحدهم يطلق عليه عياراً نارياً من بندقيته فأصابت الرصاصة عضم ذراعه الأيمن وكسر قسماً منه ويعتقد أن هذا الرامي لم يطلق هذا العيار على هذا الوجيه إلا لخوفه من مجيئه بأنه مناوئاً.

وعندما جرح هذا الرجل وأصيب بكسر في عظم ذراعه خاف العاقبة ووجه رأس فرسه الى الخلف هارباً والى النجاة طالباً وبأقل من ثلاثة أرباع الساعة وصل هذا الجريح دار الحكومة ويده مشلولة والدم يقطر منها وأعلم القائمقام بالحادث مستنجداً بالحكومة لأن ترسل قوة خلف الغاصبين واستعادة الأغنام المسلوبة مع رعاتها المأسورين.

فخاب ظنه في القيام بإرسال قوة بالوقت الحاضر لاسترداد المسلوبات والرعاة لأن القائمقام بعد أن رثا لحاله قال له: ماذا أعمل يا عزيزي وها أنا جالس هنا في هذه الدار لا حيلة لي ولا قوة إلا أن أقوم بمخابرة الوالي وإعلامه بالحادث ليرى رأيه في إرسال قوة من الشام لتأديب هؤلاء العصاة المارقين واسترداد ما سلبوه من الأهالي الطائعين وفعلاً فإنه طير برقية مستعجلة لمقام الوالي طالباً نجدته لهؤلاء الأهالي المساكين.

ولكن انى لهذه القوة أن تحضر من الشام وتتمكن من الوصول الى النبك وتلحق بالقوم لاسترداد المسلوبات بهذا اليوم مع أن المسافة بعيدة وتحتاج الى سفر يومين متتاليه لاسيما ووسائط النقل هي الخيل والخيل ليس لها أجنحة تطير بها حتى تنزل على رؤوس الغاصبين قبل وصولهم الى مأمنهم.

ثم أنه لو فرض أن قامت حكومة الشام وأرسلت هذه القوة فإنه لا يمكنها إرسالها إلا أن يمضي على وصولها الى النبك مدة أسبوع وتكون الطيور طارت بأرزاقها وأصبح لا فائدة ترجى من مجيئها وما على أصحاب هذه الأغنام إلا أن يطلبوا العوض من الله ويعود كل من كان موجود منهم بموقع الحادث الى قريته يندب حظه ويشكو مصيبته الى ربه.

عاد الجريح الى بيته وبوصوله استقبله أهله والأولاد ومن حضر هناك من الجيران والأقارب والأصدقاء والمحبين بالبكاء والعويل وما صدقوا أن يعود اليهم سالماً لأن الأخبار التي وردت اليهم بإنه قتل وقد فارق الحياة. ففرشوا له فراشاً وجيء اليه بالطبيب ضمد له جرحه وجبر له كسر عظم ذراعه واضطجع به متألماً وغاضباً متألماً من أوجاعه وغاضباً على ما آلت اليه نهب أغنامه وأغنام مواطنيه.

ولما سمع تافيج بهذا الحادث استنكره وأخذته الغيرة على هؤلاء المواطنين الذين أصيبوا بهذه المصيبة وباتوا محزنون يائسين وذهب حالاً الى القائمقام محتجاً على قلة الأمن في هذه البلاد حتى آل ما آل إليه من نهب أغنام المواطنين وقال: سيدي القائمقام إن السكوت على هذا الحادث غير جائز لأن ذلك يسيء حالة اختلال الأمن ومما يزيد في طمع البدو الذين لا يرعون ذمةً ولا عهداً ولا شفقة ولا رحمة للعودة الى هذه البلاد وسلب البقية الباقية من أموال الأهالي الذين يقومون بدفع الأموال والأتاوات الى الحكومة بغية المحافظة عليهم وعلى أرواحهم واعراضهم وأموالهم وها نحن نرى الحكومة واقفة مكتوفة الأيدي عن نصرة هؤلاء المساكين وتأمينهم في بلادهم وحمايتهم من المتعدي عليهم من المجرمين فالمثل البدوي يقول: "من يأكل الخروف عليه أن يحمي أمه". وعلى الحكومة أن تتخذ العدة وتضع القوة الكافية في هذا للقضاء الذي هو مطمع أنظار الغزاة لتأديب العصاة المارقين على الدولة وحفظ أموال الشعب الهادئ.

أما المخابرة مع الوالي بوقوع هذا الحادث لإرسال قوة بعد فوات الأوان لا يجدي نفعاً ومن الواجب على الدولة أن تجرد جيشاً كافياً يغزي هؤلاء العربان العصاة في الأراضي التي يخيمون فيها وتنهب أموالهم وتأسر رجالهم وتشرد من يبقى منهم في البراري على وجوههم ليكونوا عبرة لغيرهم وتعيد ما سلب الى أصحابه حتى تعيد الأمن الى نصابه هذا إذا كانت الدولة تريد الإصلاح وتحافظ على شعبها.

مع هذا فإني أقول يا سيدي ولا أحفل من شيء وكفاني صبراً يأست من الحكومة التي تهمل أمر شعبها وتتركه عرضة لنهب أمواله والفتك باعراضه وأرواحه ويأس من يركن اليها ويعتمد على قوتها. ثم اكرر القول بأن هذه الحكومة بدلاً من أن تجرم الأبرياء وتقوم باعدامهم بلا حق ولا صدق بواسطة رجال من اشرار رجالها عليها أن تقوم بأودهم وتحفظهم من كل مكروه. وثق يا سيدي بأنني يأست من هذه العيشة الذليلة وهذه الحياة التعيسة في حكومة لا ترعى ذمة ولا عهداً ورفع يديد الى جهة السماء قائلاً: رحماك يا رب فأنقذنا من هذا الذل ويسر لنا من يرحمنا ويشفق علينا لأننا بقينا لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً.

فأجابه القائمقام: أنت محق يا تافيج في أقوالك وأشاركك بأن أقول يأست من هذه الحكومة ورجالها الذين لا هم لهم إلا تقتيل الشعب وكنز الدراهم والدنانير ولكن ما في اليد حيلة وما علينا إلا ان نأيس هذه الحكومة ونطلب لهؤلاء المساكين العوض من الله.

قام تافيج وغادر المكان بعد أن ودع صديقه القائمقام وذهب تواً الى دار الجريح ليراه ويستعلم عن الحادث منه قائلاً في نفسه قد جاء الوقت المناسب لأن أقلع عن جسمي رداء الكسل وأرتدي رداء الفخر وأقوم بعمل إما أكون به موفقاً وأعود سالماً وغانماً وإما أن أموت مناصراً وشهيداً.

وصل لدار الجريح وأدخل إليه فوجده مضطجعاً في فراشه ورجال البلدة حوله وبعد أن استخبر عن الحادث وعدد الغزاة والوجهة التي ساروا إليها قال: "اعلموا أيها الرجال بأن هذا الحادث قد أحدث في قلبي جرحاً لا يندمل ولا يمكن لأي عربي أبى أن يراه أو يسمع به أن يتقاعس عن الانتقام من الفاعل ولذلك فأني عزمت على اللحوق بهؤلاء السالبين لاستعطفهم على الأقل عساهم يكرمونني ويردون لي بعض الشيء من أغنامكم.

فأجابه الحاضرون بلسان واحد إياك يا ولدنا والمخاطرة بحياتك ولا نريد أن تلقي بنفسك في التهلكة ونرجوك أن تقلع عن هذه الفكرة ولا تذهب خلفهم لأننا نخاف عليك من كيدهم ويقتلوك قبل أن تتمكن من التفاهم معهم كما جرى بهذا الجريح. ونزيدك أيضاحاً أيها الشهم بأننا صرفنا النظر عن التوسل لإعادة أغنامنا من هؤلاء العربان الغائرين لأن كل توسل بهذا الشأن لا يجدينا نفعاً ولا يعيد لنا من مسلوباتنا شيئاً وعوضنا على ربنا. وبالنظر لثقتنا بك ومحبتنا لك فإننا نكرر لك رجائنا بأن لا تخيب لنا طلباً حتى لا نفجع بك وتزيد خسارتنا خسارة أخرى.

فأجابهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وسأعود بعون الله سالماً وغانماً ولا يردني عن ما عزمت عليه أي إنسان فاتركوني وشأني ولا تثبطوا عزيمتي واجعلوا نصب أعينكم الاتكال على الله.

ولما لم يتمكنوا من ردعه عن هذه المخاطرة قالوا له: طالما وأنت مصمم على تنفيذ فكرتك أيها الأبن البار فاذهب بحراسة الله تكلئك العناية الربانية ونقول إليك أنه مهما استرجعت من الأغنام فإنه حلال عليك وحرام علينا ولك أن تتصرف به كما تشاء دون أن يكون لنا حق في المطالبة به. وإذا لم تقبل منا هذا العرض فإنا براء منك من دمك ولا نريد منك نجدة ولا عوناً.

فرد عليهم قائلاً لهم: تعلمون ولا شك أيها الأهل والأصدقاء بأن النخوة العربية تهيب بي أن استوفي أجراً على خدمتي إليكم التي هي من أجل إغاثة الملهوف ولا أسطر على نفسي شيئاً من هذه الدنائة وكل ما في الأمر هو التوسل الى الله ان يوفقني لما أصبوا إليه وأعيد إليكم ولو البعض من الأغنام أو الاستشهاد في سبيل الله.

ثم تركهم وخرج من دار الجريح وذهب تواً لداره وركب جواده بعد أن تقلد سلاحه وسار متوجهاً ومسرعاً نحو أراضي الدير. وبأثناء سيره في الطريق تذكر ما قاله الشاعر المصري سامي البارودي فتمثل به وقال:

بادر الفرصة واحذر فوتها　　　فبلوغ العز في نيل الفرص
واغتنم عمرك أبان الصبا　　　فهو إن زاد مع الشيب نقص
وابذر مسعاك واعلم أن من　　　بادر الصيد مع الفجر قنص

وبأقرب وقت وصل نزل الرعاة المسلوبين فوجد النساء والأطفال يبكون ويندبون فراق رجالهم وسلب أغنام معلميهم وبدون أن يتوقف داوم سيره في الجهة التي سار بها السالبون. وبعد مسيرة من النزل بمسافة نصف ساعة قابله رجل من الرعاة المأسورين فاستوقفه وطلب إليه أن يوقفه على هذا الحادث ويسأله عن الجهة التي سار به الغزاة فأعلمه قائلاً:

أعلم أيها الشاب أني أدعى "سالم النصيري" ومن الرعاة المعتدى عليهم وأخذت مع من أخذ أسيراً وبالطريق غافلتهم وفررت هارباً وأن القوم الذي غاروا علينا ونحن آمنين وسلبونا أغنامنا وأخذونا أسرى هم من عربان "بن مجلاد" من عشائر شمر الجزيرة وعددهم خمسون فارساً وعقيدهم "سعدون بن مجلاد" شاب في مقتبل العمر وتوجهوا بكسبهم عن طريق

الثنية الشرقية وهذه الثنية يا ولدي هي واد عميق كائن بين جبلين شامخين يمتد من الغرب الى الشرق والطريق فيه ضيقة والمرور صعب فيها ولا يتمكنوا الخروج من هذا الوادي بأقل من ساعتين أو ثلاثة والقصد من مرورهم في هذه الطريق الضيقة هو ضياع أثرهم وعدم الاهتداء اليهم.

فإذا أردت اللحاق بهم وتأمن شرورهم وغدرهم عليك أن لا تمشي خلفهم بل واظب على سيرك بهذا الطريق حتى إذا وصلت التل الكبير المرتفع الذي تراه أمامك حول وجهتك الى الشمال حيث تقودك الى مدخل الثنية الشرقي وهناك تكمن فيخرج عليك فارسان الواحد تلو الأخر وقد عينهما العقيد سعدون طليعة له وخلفهما الأغنام والرعاة وهناك يفعل الله ما يشاء. وأعلمك يا ولدي بأن خروج هؤلاء القوم من وادي الثنية ومعهم الأغنام التي لا يمكن أن تجاري الخيول في مشيها لسوف تصل الى مبتغاك قبل خروجهم هذا إذا بقيت مواظباً السير.

كما وأني أقول طالما وقد جئت مغرراً في نفسك ملقياً فيها بالتهلكة غير عابئ بما سوف تقابله من الكرب وكثرة الأعداء باذلاً كل مرتخص وغال في الحياة منتصراً لنا فلا يسعني والحالة هذه أن اتركك وحيداً وأفر عنك فرار الجبناء وبما أن حياتي ليست بأغلى من حياتك فإني صممت على مرافقتك بصفتي دليلاً لك وأقوم بواجبي نحو مساعدتك والأعمار بيد الله، ثم إن الأغنام التي سلبها منا السالبون تقدر بخمسة الآف رأس والرعاة التي يرعون بها والذين اسروا من أجل سوق الأغنام اليهم يزيدون على خمسين رجلاً فإذا شاهدونا آتين اليهم ولنصرتهم فإنهم لا يبخلون بأرواحهم وسوف نجد منهم نجدة في مساعدتنا فهيا نسر في طريقنا وأمرنا الى الله.

ولكني أريد قبل ذلك أن تعلمني عن اسمك ومن تكون ومن أي البلاد أنت لأنه لم يسبق لي المعرفة بك أو مشاهدتك كي افتخر بصحبتك وصداقتك.

انت محق يا عم في طلبك هذا حتى تعرف من هو هذا الشخص الذي سترافقه وتساعده على هؤلاء الأعداء الفجرة فأسمي "تافيج ولد حمد الجبوري" بدوي من عشائر البلقاء ومستخدماً في إحدى الوظائف بحكومة النبك وعندما سمعت الخبر ولما لم أجد ناصراً لهؤلاء المنكوبين فقد تطوعت بهذه الخدمة وجئت لاحقاً بالسالبين عساهم أن يردوا بعض الأغنام تعويضاً لأصحابها عن جملتها.

تعجب الراعي لشهامة هذا الشاب وغرست محبته في قلبه وازداد تشوقه على مرافقته والاشتراك معه بما ينوي عمله وواظباً السير معاً يتحدثان وينشاوران إلا أن تافيج وإن كان قد اغتبط بهذا الرفيق وفرح بمجيئه معه وعدى ذلك فائلاً حسناً لكن الأفكار والوساوس التي راودته في نفسه عن المصير الذي يجهل نتيجته وهل يخرج من ورطته سالماً غانماً أو يلقى حتفه ويفقد فيه حياته وتكون سبباً لانقطاع ذريته فتذكر بيتين من قصيدة لمحمود سامي البارودي وصار يتمثل بهما ويغني:

فيا قلب صبراً إن جزعت فربما	جرت سنحا طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها	وسيبدوا ضياء البدر في ظلمة الوهن

وصل الرفيقان الى باب الثنية الشرقي بعد الظهر بقليل وكمنا هناك ولم يمكثا إلا ساعتين إلا وخرج عليهما الفارسان المار ذكرهما فانقض عليهما تافيج انقضاض الطير على فريسته وبأسرع وقت صرع أحدهما فتسلمه رفيقه وسلبه بندقيته وجميع سلاحه وقيده وربطه مع فرسه بذلك المكان وأثنى تافيج بالفارس الثاني الذي شده لهذه المعاملة وقبل أن يدافع عن نفسه صرع وسلم الى الراعي ثم ربط مع رفيقه وقد تسلح سالم بإحدى البنادق وما انتهيا من صرع هذين الفارسين إلا وبرزت أول الأغنام وبعض الرعاة فأوصاهم سالم بإطاعة أوامر هذا الفارس وإجراء ما يجب عليهم في الاشتراك بالمقاومة ثم انتخب منهم رجلاً وسلمه البندقية الثانية وطلب اليه أن يسرع ويصعد الى رأس الجبل الجنوبي لوادي الثنية ويظهر نفسه للأعداء مصوباً البندقية نحوهم وأنه أي سالم النصيري سيصعد الى رأس الجبل الغربي ويقوم بهذه المهمة

ليخدع الأعداء بأنهم ملحوقين من قبل الأهالي بأسلحتهم وقد حشروهم في هذا الوادي وضيقوا عليهم مساربهم ويجبروا على التسليم لفارسهم وقد نفذا ذلك بكل هدوء وراحة.

أما باقي الرعاة فإن تافيج جعل منهم رجلين لحراسة الفارسين المأسورين وبعضهم يسوقون الغنم ويدورون فيها خلف الجبل للجهة الجنوبية والباقي جعلهم معه ودخل بين الأغنام لبطن الوادي وكلما وجد أحد أو جماعة من الرعاة كلفهم باللحوق به وكانوا مسلحين في العصي ذات الدبابيس الخشبية وغيرها الطويلة التي يقال لها "المذاريب" وما أن تخلص من الغنم حتى قابله عقيد القوم "سعدون بن مجلاد" يعتلي ظهر جواده يختال عليه كأنه النمر ومتقلداً سيفه وبتدقيته لا يحسب لأحد حساباً أو ينتظر ظهور هذا الفارس أمامه وبندقيته بيده وقبل أن يجري حديث بينهما إذ بتافيج يصوب بندقيته ويغرسها في صدره ويقول له: لا تغتر يا سعدون بنفسك أو تطمع بالسلامة فيما إذا عصيت فاختر لك أحد الأمرين إما أن تموت انت الآن ويقتل رجالك من قبل قومي الذي انتشروا في الجبلين للمقاومة أو تسلم مع رفاقك الى تافيج الجبوري بلا قيد ولا شرط.

فهال سعدون هذا الأمر لاسيما وشاهد الطليعة في رأس الجبلين وأصبح أن لا مناص له من شر هذا الفارس الذي أوقعه الله به وهاهو مصوب بندقيته الى صدره ويكاد أن يرسل اليه الموت بأقرب من لمح البصر إلا بموافقته على التسليم اليه كما طلب منه وبغير ذلك فإنه لا يتمكن هو ورجاله الخروج من مأزقهم الحرج بالنظر لوعورة الموقع وضيق الطريق التي لا تتسع للعبور فيها إلا بفرس واحدة إنما أراد أن يقابله بخدعة ليجد حيلة تفرج بها كربه ويتقي شر هذا الفارس الذي ظهر أمامه فقال له: أنني لا أعرف بأن هذه البلاد تحوي فارس مثلك فأريد أن تعلمني بشأنك وما تريده من مجيئك الينا واللحوق بنا.

فإجابه انني اعلمتك باسمي وقد جئتك يا سعدون نجدة لأهل الأغنام التي سلبتها ظلماً وعدواناً لاسيما وهم قوم سالمون وأمنون في بلادهم لا يعادون ولا يعتدون وليس بينك وبينهم علاقة أو عداوة وأريد استرداد الأغنام وأسركم وسوقكم معاً الى الحي الذي غرتم عليه بخيلكم وخيلائكم.

ضحك سعدون هزؤاً وقال: أنت أتيت يا هذا الغلام الصغير تريد أن نسلمك ما كسبناه وفوق ذلك تاخذنا اسرى ونحن قوم لا قبل لك بنا فانصح اليك أن لا تخاطر بنفسك وان تشفق على شبابك وتبقي على حياتك وساعطيك خمسين رأساً هدية مني اليك عن اتعابك.

فلما سمع تافيج هذا الهزؤ وقال له ثكلتك أمك يا سعدون ابمثل هذا القول يقال لابن حمد الجبوري والذي صرع فارسيك واستلم الغنم وصارت تحت حراسة رجاله متوجهة نحو أرضها في حرز أمين وبعد ما رأيت في عينيك طليعة رجالك الذين يحوطونك ويحيطون برجالك في رؤوس الجبال تتشدق في هذه الأقوال السخيفة التي لا يقنع بها الأولاد الصغار فاترك يا بن مجلاد المكابرة بالمحسوس واصدقك القول بأنه يمر على خداعك هذا ولا اخدع به بتاتاً واعلم يا سيد قومك "أن خيل البغي عثورة والبوق يعود على أهله بالبوار والدمار"، كما وأنك سجلت على نفسك وعلى عشيرتك بأفعالك الرذيلة عاراً لا يمحى أثاره بين العربان وسائر العشائر العربية.

وأخر نصيحة أنصحك بها هو التسليم أنت ورجالك بلا قيد ولا شرط الى هذا الغلام الصغير الذي تهزأ به ومن نظرك تسقطه حتى ينظر هو وقومه بأمركم ويحكمون عليكم بالجزاء العادل الذي تستحقونه وهو جزاء من يفسد في الأرض القتل والنفي.

فاغتاض سعدون مما سمعه من تافيج وقال كفاك يا غلام إهانة لنا وامتهاناً فإني لا أريد سماع قولك ولا أقبل لك نصحاً ودونك والحرب إن كنت فارساً وستجدني لملاقتك صابراً ولو أدى ذلك لإزهاق روحي ولا تعيرني نساء قومي وبنات عشيرتي "يقصد بقوله دونك والحرب" "لينصاع تافيج لقوله ويتركه يخرج من وعورة وضيق هذا الوادي الى السهول للمجابهة".

عند ذلك فإن تافيج لم يمهله الازدياد في ترهاته بل أهبط بندقيته الى صدر فرسه واطلق عياراً منها عليها فخرت صريعة تتخبط بدمائها ووقع سعدون على الأرض فتلقفه الرعاة وأوثقوه. وهناك في محل حريز وقف تافيج وصار يصرع كل فارس يقرب إليه والرعاة تتلقفه وتضعه وثقاً عند العقيد سعدون أما الباقي من هذه العصبة عندما شاهدوا عقيدهم وخمسة فوارس منهم قد أسروا ولا يقدرون على خلاصهم أو الإقدام جملة واحدة الى الأمام أو الفرار الى الخلف خوفاً من بأس هذا الفارس ورجاله المنتشرين باعلى رؤوس الجبال وقفوا حائرين.

وقد اخرجهم من حيرتهم وذهولهم الأمر الذي نطق به تافيج بصوته الجهوري العالي بقوله لهم: يا قوم إن عقيدكم سعدون قد خدعكم وأوقعكم في هذا المأزق الحرج حتى اقدمتم على ما اقدمتم به من الاعتداء والفعل الشائن الذي تأباه كل نفس شريفة وجعلكم تتمردون في عار لا يمكن نسيانه لموافقتكم إياه بالإغارة على أهالي هذه البلاد المسالمين ونهبكم مواشيه وأغنامه دون عداء أو إنذار ولهذا فإني أنصح إليكم المبادرة الى التسليم حتى لا يصيبكم من رجالنا مـاأنتم لـه مستحقون.

ثم وجه خطابه الى سعدون قائلا: وأنت يا سعدون هاأنت وقعت في الأسر ولا يمكنك النجاة من الغدر الذي غدرت به هؤلاء السكان الأمنين فعليك أن تأمر رجالك أن ينقادوا لمطالبي حتى لا تراهم في أم عينيك صرعى واعتقد يا رجل بأني سوف لا أتوانى عن تنفيذ ما نطقت به.

ولما قنع سعدون بأن الحالة قد تغيرت وأقل عناد سيكون عاقبته وخيمة ويخسر روحه وأرواح رجاله ولم يبق له ولقومه أي خلاص إلا بالموافقة على ما يطلبه هذا الفارس ويأمر به ولهذا فإنه نادى على رجاله قائلاً: أيها الأخوان إننا غُلبنا على أمرنا وليس لنا خلاص من ورطتنا هذه إلا طاعة هذا الفارس والتسليم إليه ليرى رأيه فاتركوا العناد ووافقوه على ما يريده ولا تخالفوا له أمراً.

عندئذ ترجل الرجال عن خيولهم تنفيذاً لأمر عقيدهم وسلموها مع جميع الأسلحة الى تافيج وقد قام تافيج وفرق الأسلحة على رجاله واركبهم الخيول وجعل منهم المحافظ والحارس والراعي وأمر المعتدين المشي أمام رجاله مترجلين ما عدى سعدون الذي أركبه إحدى الخيول بعد أن أخذ عليه العهد بالوفاء له ولا يفر من بين ايديه كما هي الشيمة العربية التي تجبر العربي أن يكون محافظاً على وعده وعهده وعدم نقضها.

وقد سار الاثنان مع بعضهما يتحادثان ويتسامران كأنه لم يجري بينهما أمر. ثم بعد قليل خرج الجميع من وادي الثنية الى السهول يسيرون لجهة الحي وبأثناء السير الذي يسيرون بوجهته نحو ذلك الحي شاهد سعدون بأن لا وجود للقوة التي ذكرها له هذا الفارس وأنه نشرها في أعلى رؤوس الجبال ولم يرى إلا الرعاة الذين سبق له أن أسرهم واحضرهم لسوق الأغنام التي كسبها من أصحابها وعلى هذه الصورة فقد قنع بأن تافيج لم يأت إلا وحيداً وأنه خدعه في خدعة جازت عليه فقال له:

والله "يالجبوري" كنية الى لقب عشيرته أنك قمت بعمل لم يسبقك اليه أحد وانك أيها الشاب لفارس زمامك وأهل للقيادة والطعن والضرب وانك خلقت للحرب والى الحرب ومثلك من يكون عقيداً وقائداً مخططاً. لأنك أيها الفارس بالخدعة التي خدعتني بها غلبتني على أمري وكسبت النصر فبمثلك أيها الشجاع تكون الرجال وأني أشهد اليك بالرجوالة والإقدام والفروسية وشدة البأس وحسن التدبير ولا تجارى في الحنكة بالقيادة.

فأجابه تافيج: لا تمدحني يا ابن مجلاد فوق ما استحقه وأرى شهامتك كلفتك بأن تنطق بما نطقت به وأني لا أحسب من الرجال الذين يفوقونك في الفروسية ولم أشترك فيما سبق بحرب أهلية ولا غير أهلية ولكن الله جلت قدرته سخرني أن ألحق بكم نصرةً لهؤلاء المساكين وقد وفقني لاسترداد مواشيهم وزوال كربهم.

وأما الخدعة التي ذكرتها بحديثك فثق أيها الكريم بأني لا أعرف عن خدع الحرب منها شيء سوى أني كنت أسمع بعض من لهم خبرة في الحروب يقولون " أن الحرب خدعة" والخداع في الحرب فيما إذا كانت الغلبة للخادع يكون

محموداً وقد الهمت بها وشاء القدر أن تنطلي عليكم وانتصر بالنتيجة حتى حصلت على ما كنت راجياً. ومع هذا فإني أعود وأقول بأن هذه الخدعة لم تكن الوسيلة لتفوقي بل الله الكريم رحم هؤلاء الحضر الطيبين ونصرني عليكم ثم سلمني من شروركم بعد أن خاطرت بحياتي وسأعود اليهم سالماً غانماً.

ثم تركا هذا الحديث واشتركا في حديث غيره وما أن قربت الشمس الى المغيب الا وقربوا من موقع الدير فأرسل تافيج أحد الرعاة على متن جواد من جياد الغائرين ليبشر أهل الحي بعودتهم مع المواشي المسلوبة سالمين.

ذهب الرسول على متن جواده مسرعاً كأنه طير طائر في الجو السمائي وحال وصوله أعلم أهله والمجاورين ممن سلبت أغنامهم بما أظهره الفارس تافيج من قوة الشكيمة والفروسية نحو الأعداء واستنصاره عليهم واسترداد المسلوبات وأخذ رجال الغزو جميعهم بما فيهم قائدهم أسرى وبشرهم بأن هذا الفارس وجميع الرعاة عادوا سالمين يرافقهم الأسرى والأغنام.

خرجت النساء والأطفال والشيوخ العاجزين لخارج البيوت من أجل استقبال هذا الفارس ومن معه ولم ينتظرون الا القليل من الوقت حتى اشرف المنتصرون عليهم فاستقبلوهم بالحداء والزغاريد والأغاني البدوية الحماسية وبقوا على هذه الحالة حتى وصلوا النزل وهم جميعاً في غبطة وسرور.

وبعد ذلك ترجل الجميع عن الخيول وضمت مع الخيول التي لم تركب ووكل بها بعض من الرجال المسلحة لحفظها بالمرعى وقرب بيوت النزل ثم ادخل الأسرى الى بعض البيوت التي أخليت من أهلها لهذه الغاية ورتب الحراس لحراستهم من الفرار والمحافظة على أرواحهم من غدر بعض الرجال الذين لا يقدرون لمعنى الأسر قدر ولا قيمة.

ثم أمر تافيج بأن يؤتى بقدر كافٍ من الخرفان السمينة واحضرت فذبحت وطهيت بلا ملح وبعد نضوجها قدمت الى الأسرى طعاماً لعشائهم حتى لا يبقون جواعاً فأكلوا حتى شبعوا وناموا.

أما عدم وضع الملح في الطعام فهو "بأن الأسر لا يمنع من اجراء ما يريده في أسراه من قتل أو تعذيب إلا بعد أن يتذوق الملح في الطعام أو بغيره حسب العوائد الجارية بين البدو وسائر العربان" وعلى ذلك فإن تافيج أقدم عليها حتى لا يخل بالعادة المتبعة.

تركهم تافيج نياماً في النزل وعاد الى بلدة النبك ونام في بيته الذي لم يجد به ذلك الجاسوس موجود فيه كأنه لا ذهب ولا عاد وبالصباح الباكر عاد الى النزل ليتفقد الأحوال هناك وعند وصوله وجد أصحاب الأغنام الحقيقيين وكثير من الأهالي قد سبقوه الى الحي ليتفرجوا على الأسرى ويرون عودة الأغنام ليطمئنوا ويقنعوا بصحة ما سمعوه الذي يشابه الكذب.

ولما أن وقفوا على حقيقة الأمر وشاهدوا الأغنام والأسرى بأعينهم اخذهم العجب لهذه القوة الهائلة التي يتصف بها هذا الشاب وهذا النصر الذي احرزه على قوة غاشمة عدد رجالها خمسون فارساً وما علينا إلا أن نقوم بشكره ونشركه في أمرنا ونطلق عليه لقب "فارس مكمون" ونجعله زعيماً لنا والآمر علينا.

وأما تافيج فإنه عند وصوله دخل للبيت الذي به الأسرى وزعيمهم وبعد ان حياهم جلس بجوار سعدون يتجاذب الحديث معه وما شعر إلا وقد دخل عليه الرجال الذين اتوا من البلدة والقرى. قام من مجلسه مستقبلاً لهم هاشاً باشاً بوجوههم مرحباً بهم وبعد تبادل التحيات جلسوا بجواره ثم قال:

أيها الأخوان هاأنا بررت بوعدي ولحقت بالغزاة وقد أيدني ربي بالنصر واستعدت أغنامكم واوصلتها المكان الذي نهبت منه وهاهي موجودة أمامنا فأرجوا منكم أن يتفقد كل واحد منكم أغنامه ويتسلمها غير منقوصة سوى ما ذبحناه في الليلة الماضية وطهيناه طعاماً الى ضيوفنا جميعاً فإن وافقتهم على السماح لي به فأعده كرماً منكم وأن لم تسمحوا فإني مستعد لدفع ثمنها.

ودون أن يردوا إليه جواباً خرجوا الى البرية وعقدوا مجلساً لهم وبعد المحادثة والتشاور فيما يجيبون به فارسهم ومن جملة حديثهم قالو لبعضهم ان أغنامنا نهبت من بلادنا وقد سلبها منا هؤلاء الغزاة وكنا لا نأمل أن يعود الينا منها شيئاً

وبما أن الله العظيم قد قيض لنا هذا الفارس مخاطراً بحياته وردها الينا دون أن يكلفنا تعباً ولا نصباً ولقاء ذلك يجب علينا أن نقابله بالكرامة حتى نكسب صداقته ويبقى لنا ذخراً وسنداً.

وأخيراً تم مجلسهم بالاتفاق من جميع أصحاب الأغنام عموماً أن يقابلوا هذا الشاب بإعطائه ثلث الأغنام قياماً بواجبه وهدية منا اليه مشفوعاً برجائنا إياه على القبول واذا لا سمح الله بخل علينا بالقول وفشلنا نقوم بنحرها أمامه وأمام أسراه ونعتقد بشهامته بأنه سيكرمنا ويعطينا ما نسأله ويوافقنا على قبول هديتنا.

ولما انتهوا قاموا واتوا الى مجلس الشاب تافيج ومن معه ودخلوا لعندهم وحال دخولهم ودون أن يجلسوا وجهوا خطابهم اليه بواسطة كبيرهم قائلين: إننا اتيناك أيها الفارس الكريم قاصدين ونرجوك التكرم بقبول عرضنا ولا تخيبنا وان تعطينا عهداً بإجابة مطلبنا لأن الله أرسلك الينا رسولاً لإنقاذ مسلوباتنا ولولا هذه النجدة التي خاطرت بروحك فيها من شأننا لما حصلنا على أغنامنا ولذهبت منا أدراج الرياح. وها نحن الأن صرنا قريري العيون بسلامتك كاسباً غانماً.

واعلم يا ولدنا بأننا إذا قلنا الحقيقة التي لا تنكر فإنك المستحق اليها جميعها وصارت بالنسبة لموقفك الرجولي وشجاعتك الباسلة ملك يدك ولا يحق لأي إنسان أن يشاركك فيها وقد بت الأمر بيننا أن تقبل على الأقل ثلث الغنم هدية منا وإذا وجدت ذلك كثيراً فالربع لأن نفوسنا قد خرجت عن هذا القسم. ثم نرجوك أن تترك الوظيفة والحضرية وتعود الى البداوة وسكن البادية وتبني لك بيتاً في هذه البقاع وتلم شملنا حولك وتقينا شر الغزاة وكيد المعتدين. أما إذا خيبت ظننا وقطعت أملنا ولم تقبل رجائنا فثق بالله بأننا لا نتوانى عن نحر ما خرجت عنه نفوسنا أمامك وأمام الحاضرين.

فلما سمع تافيج هذا الحديث تغير وجهه وبين على ملامحه الغضب لكنه صمت قليلاً وعادت اليه حالته الأولى وقال: أي أهلي وعشيرتي إن ما طلبتموه من تركي الوظيفة فابشروا بنواله وهاأنا تاركها من الآن وسيغنيني الله من فضله أما الهدية يا أخواني فإن قبوله ثقيل على طبعي وشهامتي ولا أوافقكم عليها لأني ما استرددت لكي انهب ولا قمت بهذا العمل الذي ما خسرت فيه من مالي الخاص سوى طلقة واحدة طلقتها في سبيلكم أو تعب ساعتين في سفرتي من أجلكم حتى أوجر عليه هذا الأجر.

ثم هل تعرفون أيها الأحباء أنما جئتم به من هذا العرض لما يجعلني عرضة للقيل والقال والمعرة والامتهان وليس لي فخراً به وتاركاً للنخوة والفضيلة ولا أريد أن يسمع عن ابن حمد بأنه كان مأجوراً فكفوا عن هذا الطلب وانبذوه جانباً حتى أكون لكم وتكونون لي والشهامة رائدنا.

ازعجهم قول تافيج وذلت نفوسهم لعدم إجابته طلبهم فكرروا القول إليه: يا ولدنا لا تحتقرنا ولا تذلنا فإننا ما جئناك مغصوبين وكما انك ذو شهامة ونخوة فإننا لا ننقص عنك شهامة فإن لم تجب مطلبنا وتقبل هديتنا فإننا نأبى أن يكون لك علينا منة وفضلا ونترك جميع الأغنام في هذه البرية سائبة تتخاطفها الذئاب والوحوش الكاسرة ولا نقبل منها شيئاً فأنت اعدتها ولا لزوم لنا بها وانت وشأنك وما تريد.

فارادوا أن يقوموا من مجلسه ويغادروا الحي الى قراهم ومساكنهم إلا أن احدهم قد قال: لا تتسرعوا أيها الرفاق وخفضوا من وطئتكم لأن ولدنا تافيج لا تجيبه القوة والغلظة ولا يأتي إلا بالمعروف وها انني ارجو ولدنا بأن لا يحرمنا من نور وجهه ولا يفجعنا بغيابه وقام واقف ورمى بنفسه عليه يقبله ويبكي بين يديه ثم تبعه الأخرون وحذوا حذوه ورجوه بأن يشركهم في هذه الفضيلة حتى لا يحرمون من جواره.

كل ذلك يجري والأسرى يسمعون ويعون فاكبروا في تافيج هذه الأنفة واشتركوا مع القوم بالرجاء وتوسلوا اليه بأن لا يفشل قومه الطيبين ويقبل هديتهم.

ثم قال سعدون بدوره: اني أكبر فيك أيها الشهم هذه المروءة ولقومك الأبرار تلك النخوة والكرامة فارجوك ان لا تمتهنهم واقبل مكرمتهم وقام واقفاً وقبل تافيجاً بين عينيه.

تجاه هذا الرجاء والالتماس قبل تافيج هذه الهدية شاكراً لهم فضلهم داعياً الى الله أن يعوض عليهم. استلم بعض الرعاة هذا القسم والبالغ الف ومائتين وخمسين رأس ولما صار بحوزته فرق منه مائتين رأس للفقراء والمحتاجين ممن جاء لمشاهدته وتهنئته وباع خمسمائة رأس الى تجار كان وجودهم هناك صدفة بألف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهب باعتبار ثمن كل رأس ثلاثة ليرات عثمانية واستلم الثمن أما الباقي فإنه سلمه لرعاة يحفظونه لحسابه جاعلاً الخمسين رأس ذبائح لضيوفه ومن يأتي لتهنئته.

ثم بعد ما تم ذلك أرسل رسلاً الى قرية يبرود والكائنة غربي بلدة النبك والمسافة بينهما ساعة وابتاعوا منها شقاق الشعر العريضة والطويلة وحبال المرس والأعمدة الخشبية وما يلزمه من التوابع من ستارات ورواق وفرش وبسط وجيء بهذه الأشياء وخيط البيت وبنى مرفوعاً على أربعة أعمدة كما كان بيت أبيه من قبله وبعد بنائه وفرشه دخل تافيج الى داخله وتميز خفاته فأعجبه رونقه وانشرح له صدره وحينئذ غادره حزنه واختفت كآبته وقنع بأن أحلامه صدقت وآماله حققت.

فنقل أسراه وضيوفه اليه وأدخلهم الى شقة واعيدت البيوت التي كانوا فيها الى أصحابها.

الفصل الرابع عشر

ترك الأسرى وشهامة تافيج

في اليوم الثاني من بناء تافيج بيته جاءته وفود الأهالي منها والموظفون تهنئه بالسلامة وشرف الانتصار الهائل الذي أحرزه في الغلبة على المعتدين واسترداد ما سلب دون اراقة أي دماء اوخسارة بل سجل لأهالي هذه البلاد كل مفخرة وسيادة.

وصار يستقبلهم ويكرم وفادتهم ببشاشته المعهودة بالترحيب والكياسة وكان يجيبهم على أسئلتهم بكل لطف وأناة ولا يكتم عنهم مما جرى شيئاً ثم صار يخدمهم بنفسه قياماً بالواجب الأخوي نحوهم احتراماً لهم مبتعداً عن الكبر والكبرياء حتى لا يجد لهم عليه سبيلا.

فازدادت محبتهم واحترامهم له وصاروا يتغنون بفروسيته ويمتدحون كرمه ووفائه. وباليوم الثالث وفد عليه القائمقام وبمعيته فضيلة القاضي الشرعي وقائد الدرك وجميع اصدقائه من الموظفين وهنئوه بهذا النصر المبين وقد قام باكرامهم بوليمة عملها اليهم وبعد تناول طعام هذه الوليمة شكروه وعادوا الى بلدتهم فرحين بنجاته ومسرورين.

وقبل أن يغادروا هذا البيت قام تافيج وكتب عرض استقالته من الوظيفة وسلمه الى القائمقام بعد أن رجاه القيام في مساعدته بقبول هذه الإقالة مبيناً له في عدم إمكانه ترك أغنامه سائبة وبيته عرضة للمتسللين الحاقدين.

وبما أن هذا القائمقام يريد الخير الى تافيج وأن يراه يرفل بالهناء والسعادة لمحبته له فقد سر سروراً بالغاً بهذه الحالة التي وافاه السعد بها وحصل على هذه الثروة التي لم ينتظر أحد مجيئها والتي أغنته عن الوظيفة وراتبها فإنه أكد له بالسعي الحثيث بقبول هذه الإقالة.

وفعلاً فإن القائمقام قد أوفى بوعده وتوسل حتى قبلت وكتب اليه يهنئه بخلاصه من رق العبودية وما أفاء الله عليه من النعمة. أما الجاسوس الخائن لعهد الصداقة والأخوة فإنه عندما علم بما آلت اليه حالة تافيج عاد الى سيده فاشلاً حزيناً.

مضى عشرة أيام كان تافيج يستقبل بها المهنئون وبعض الضيوف ويولم اليهم الولائم والأسرى لا يزالون موجودين دون أن يتمكنوا محادثة آسرهم بأمرهم.

وفي الحادي عشر قام سعدون وخاطب تافيجاً قائلاً:

يا الجبوري صار لنا عشرة أيام في ضيافتك إن لم نقل بأسرك دون أن نتمكن بالحديث اليك في امر أسرنا لما نراه من اهتمامك في قبول الزوار والمهنئين وقد اغتضيت عن سؤالنا وتظهرنا على ما تريده وترضى به طالما وقد اصبحت مستريح الفكر وخالي البال فنرجوا منك أن تعاملنا معاملة الناس حيث توافق على الفداء حسب العوائد المصطلح عليها بين العربان وما ذلك عليك بعزيز.

فإجابه تافيج قائلاً: تعلمون ولا شك بان كل من يسلب أموال الناس الأمنيين ويؤذيهم ويعبثون في الأرض فساداً يكونون عرضة لغضب الله والناس أجمعين وجزاؤه القتل والشنق ولا ريب بأنكم توافقونني على أن فعلكم هذا كان شائناً ويأباه كل شهم وشريف ولا يقدم عليه إلا كل أفاق ذميم وأن اعفائي عن سؤالكم وعدم البت في أمركم هو انشغالي في استقبال المهنئين والضيوف وأبغي من كل نفسي أن أقابلكم بالإحسان عن الإساءة حتى أزيد به فخراً وافتخاراً.

ولكن يا بن مجلاد قومي الذي احسنوا الي واشركوني بأموالهم رغماً عني كما شاهدتموه بأنفسكم فإنه لا يمكنني أن اخذلهم واجعلهم محزونين ولا أقدر على البت بأمركم دون استشارتهم واخذ رأيهم ولا أقطع شيء الا بموافقتهم. فاعذرني أيها الكريم وامهلني حتى اجمع وجهائهم واعرض عليهم أمركم ليبتوا فيه وابلغكم إياه.

قام تافيج من بينهم وذهب لجهة أخرى من النزل حيث كان بعض الوجهاء اصحاب الأغنام حاضرين وهناك عرض عليهم ما هو آت بسببه.

أعلموا اني قد جئتكم لنتحدث بشأن هؤلاء الأسرى وبماذا نقوم به نحوهم مع العلم بإننا ولله الشكر قد اعدنا ما فقدناه واتينا بهم اذلاء وصاروا بلا حول ولا قوة. وبما أن عقيدهم عرض علي أن اعاملهم المعاملة الجارية بين العربان على الأصول العشائرية وأن أفك قيود أسرهم بفدية ترضونها.

فقال أكبرهم سناً: يا بني أننا اناس من الحضر ولا نعرف شيئاً من أصول العشائر وانت أعرف منا وبما أنك القائم في هذا الأمر وتبدي مصلحتنا على غيرنا وتحافظ على كرامتنا فإننا نوكلك أن تجري ما تراه مناسباً لشرفك وشرفنا فهيا واعمل بما تريد فإننا لك طائعون ولأوامرك منفذون وانفض مجلسهم وعاد تافيج الى بيته لينهي عمله.

بحال دخوله لبيته اشرأبت اعناق الرجال اليه ينتظرون قرار اسرهم الأخير فقال: أعلم يا ابن مجلاد قد تحادثت مع جماعتي وتم الاتفاق بيننا على ان أكون وكيلاً مفوضياً بمحادثتكم واطلب ما أريده منكم وبناءً على طلبكم اوافق على قبول الفدية التي اقدرها عليكم من أجل سلامة ارواحكم وخلاصكم من اسركم.

والفدية هي عشرين رأس من الإبل نصفها ذكوراً والنصف الآخر إناثاً عن زعيمكم وعقيدكم ويحرم من سيفه وبندقيته وان يدفع ثلاثين ليرة عثمانية ذهب دية للجريح الذي جرح من جماعتي وللآن لم يزل يأن في فراشه.

وأما الباقي من الأسرى ففدية كل واحد منهم ثلاث نياق من الإبل الجيدة وتضبط فرسه وسلاحه وعلى أن تبقوا هنا أسرى لدينا حتى تقوموا بالوفاء في مدة لا تزيد على عشرين يوماً فما انتم قائلون هل توافقونني على هذا الطلب أو نقوم بعمل آخر فيه راحتنا وبلاء لكم وويلاً عليكم وبذلك نكون معذورون عن تحمل خطاياكم وبرأنا من دمائكم.

وعليكم أن تعاهدونني بالله العظيم بإن لا تعودوا لغزوة هذه البلاد لا بأنفسكم ولا بواسطة اقربائكم وعربانكم والعشائر المهادنة لكم ولا تحرضوا أحداً من غير عربانكم على غزونا في هذه البلاد واذا فرض وغزاها احد من عربانكم أو من العشائر الأخرى المهادنة اليكم وليس لكم به علم فعليكم أيضاً ان تقوموا بإعادة المنهوبات الى أصحابها مهما كلفتوا بشأن استردادها من الآن الى آخر الزمان باعتباركم معاهدين الينا وحلفاء لنا.

وعليكم ان تضعوا عليكم وعلى عربانكم وجه شيخ مشايخ عربان عنزة "ابن الطيار" حتى يقوم بوجهه فيما اذا نكثتم العهد وتكون جميع عشائر عنزة ضدكم.

وبعد سكون وصمت تكلم سعدون قائلاً: يا تافيج الجبوري اننا ما قتلنا منكم احد حتى تسلمنا الى الدولة لتضعنا في سجونها عرضة للبق والبراغيث ونحرم من السكن في البيوت التي تخفق الأرياح فيها وبدلاً من أن نكون في ضياء النور والهواء الطلق نرمى في السجون ذات الأربع جدران لا نرى ولا نُرى ويعلم الله ماذا تكون آخرتنا وهذا معناه الذل الذي لا يرضى به إنسان كما قال عنتر العبسي:

خيبة بالذل لا نرضى بها　　　　جهنم بالعز افخر منزل

مع هذا وضميرنا يدلنا على انك أرفع مقاماً وأعلى جناباً ولا تقبل لنا هذا الذل ولا تلغي الدستور الذي اتفق عليه جميع العرب والمقدس عندهم واذا تبقى مصر على تسليمنا الى الحكومة بالله عليك ان تبادر الى قتلنا واراحتنا من هذه الحياة هذا من جهة.

أما الجهة الأخرى وهي تقديرك للفدية فإنا نرضى بها ونعدها بالنسبة لأنفسنا بسيطة وقليلة واننا قابلون بها ومنفذون لشروطها ونعاهدك عهداً لا ينقض ولا ينكث نحن الحاضرين وعن جميع أفراد عشيرتنا وإن كانوا غائبين بتنفيذ ما تكلمت به بوجه "ابن الطيار" شيخ مشايخ عشائر اعنزة وفوق هذا الوجه عهد الله وميثاقه.

ثم نرجو منك أن تسمح لخمسة رجال منا للذهاب الى اهلونا ويأتونا بالإبل والمال بأقرب فرصة من الوقت وقد وافقه رجاله على هذا التعهد.

بعد هذه الموافقة انتخب رجال من الأسرى بما فيهم "فرج" عبد سعدون ليكونوا رسلاً الى والد سعدون وعشيرته ويخبرونهم بالكيفية ويأتون في بدل الفدية ويبلغونهم ما عهد عليه سعدون بوجه "ابن الطيار" زعيم عشائر اعنزة وبالوقت ذاته جيء لهم بخيولهم فاعتلوا ظهورها وتوجهوا نحو أراضي "تدمر الزباء".

أما عشيرة ابن مجلاد فإنها قد قلقت لغياب رجالها كل هذه المدة مع انها تعلم بإن البلاد التي غزاها رجالها هي قريبة منها والمسافة ما بين موقعها والموقع المغزى لا تتجازو الأثني عشر ساعة. فاجتمعت ذات يوم عند العصر في بيت زعيمها "الشيخ محسن ابن مجلاد" والد عقيد الغزو وشكت له أمرها وفقد رجالها ولا من مخبر عنهم وطلبت اليه أن يبث السعاة ويرسل الرسل ليأتوا اليها بأخبارهم لأنه لم يعد بإمكانهم الانتظار أكثر من ذلك.

فصار الشيخ محسن يمنيهم ويخفف من غلوائهم ويطلب اليهم التريث والصبر وسوف يقوم في بث السعاة في الجهة التي غزوها.

وكان في هذه العشيرة ابنة للشيخ محسن ابن مجلاد وشقيقة الى سعدون واسمها "ليلى" وقد قرن اسمها باسم آخر وصارت تنادى باسم "ليلى المجلادية" على جانب عظيم من الجمال والأدب والكمال والفروسية تحب مبارزة الفرسان على ظهور الجياد في الميدان وقل من كان يعلو عليها ويغلبها وكانت تحب أخاها ولا تصبر على فراقه وقد هالها غيابه فصارت كل يوم صباحاً ومساءً تصعد الى بعض الروابي تترقب عودته وقد تسلط عليها الحزن والبكاء عليه.

وفي اليوم الذي اجتمع فيه رجال العشيرة يزعمهم والدها في البيت للبحث عن سعدون ورجاله وكانت ليلى واقفة خلف الستار تسترق السمع لما يقال في هذا الاجتماع وقبل الغروب بقليل دخل عليهم الرسل الذين جاءوا من قبل سعدون وفرج العبد معهم فاشرأبت أعناق المجتمعين اليهم حيث بوغتوا بدخولهم على غرة على غير انتظار وإذ بالشيخ محسن يقول: أين سعدون ورجاله يا فرج انبئني بسرعة قبل ان تستريح.

فجاوبه قائلاً: لا تخف يا عماه فكلهم سالمون وفي الراحة وبحبوحة العيش راتعون ثم اعلمهم بجميع ما جرى وصار وكيف انهم في بدء الأمر كسبوا وغنموا وعادوا من الطريق الثنية التي هي وإن كانت اضيق طريق إلا أنها أقرب الطرق الينا وكيفية اللحوق بهم من قبل شاب لا يتجاوز العشرين عاماً واتاهم من الشرق وسد عليهم طرقهم وطرائقهم وبالنتيجة كسرهم واخذهم أسرى واعادهم معه الى بلاده واسترد الغنيمة كلها.

ثم أعلمه بما تعاهد عليه سعدون وذلك الشاب الذي يقال له تافيج الجبوري والذي هو لم يكن حضري وإن كان يرتدي ثياب الحضر إلا أنه بدوي الأصل ومن عشيرة كبيرة في الجنوب. وأنبأه بالشروط التي تم الاتفاق عليها من مقدار الفدية وعدم التعدي على قومه في المستقبل بوجه "ابن الطيار" زعيم اعنزة ولا وارده ولا شارده إلا واظهره عليها مع الأطناب الزائد في شجاعة اسرهم وفروسيته وجوده وكرمه.

فصادق على قوله باقي الرجال الذين اتوا معه معلنين لزعيمهم محسن ولباقي الرجال امتنانهم لهذا الشاب الذي قابلهم بالمعروف والإكرام.

فقال محسن: يا قوم والله أني نصحت ولدي حفظه الله أن يقلع عن غزو هذه الأقوام الفلاحين وهؤلاء الحضر المساكين فلم يقنع وقد خالفني وعصى أمري وانقاد الى طمعه الذي اوقعه في هذا الأسر حتى نال هذه الإهانة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهيا بنا يا قوم للننفذ هذا العهد واجمعوا الإبل لترسل غداً الى زعيم الحضر لخلاص ابنائنا من قيود الأسر وارجوكم الا تتأخروا ولا تهملوا هذا الأمر لأن من عاهد وصالح يجب عليه أن يفي ويدفع.

أما فرج فإنه قام من لدن سيده ودخل الى المحرم وأدى التحية الى سيداته أم سعدون وليلى ثم التفته ليلى بالأسئلة والوقوف منه على اخبار اخيها وكيف تركه هناك وقالت له: أراك يا فرج تطنب كثيراً بأفعال هذا الحضري وما لديه من الشجاعة والفروسية وما يتوفر عنده من الكرم والسخاء والصفح والوفاء فهل ما تقوله صحيحاً وانت به صادقاً لأنني ما

سمعت في حياتي أن في الحضر رجال كما وصفت وأراك تغالي في مدحك هذا الشخص فأريد منك أن تعلمني حقيقته ولا تخفي عني من أمره شيئاً.

فأجابها قائلاً: تعلمين يا سيدتي بأنني رجل لا أكذب ولا احب الكذب وميلي دوماً الى الصدق والنطق به وبما أنني أعرف بإنك سيدة كريمة ذات عقل راجح وتقدرين الأمور حق قدرها ولا يغيب عن فكرك ما تنطوي عليه ألسنة الناس من كذب أو صدق فثقي بأني ساطلعك على الحقيقة حسب حدوثها وعندما يأتي سيدي سعدون الى هنا وتسأليه فإنه سيصادق على أقوالي حرفياً وربما يكيل له زيادة في المدح.

وانبرى في الحديث وسرد لها القصة من اولها الى اخرها وكيف ان تافيج سلك بخدعة حربية فوزه الكامل واستعاد بها الغنيمة التي غنمناها واخذنا اسرى اذلاء لبلاده ولكنه قابلنا هناك مقابلة الكرام الى الكرام والصديق للصديق واسبغ علينا لطفه وجوده وكرمه وحسن الضيافة مابهج السنتنا له بالدعاء وطول العمر.

أما هذا الفتى فإنه لا يتجاوز الواحد والعشرين عاماً صبوح الوجه ضاحكه يزن القول عند تكلمه ولا يفحش بأقواله ويغض الطرف عن نساء قومه كريم شجاع يحترم كل من جاء منزله ويعفوا عن من يتجاوز عليه ويسامح كل من اساء اليه ولكنه شديد التعصب لقوميته ولا يتسامح مع اعداءهم ولا يعفوا عن من يتجاوز عليهم او يسيء لهم الا بعد رضاهم وقد اذهلني عطائه للفقراء والمساكين عندما عاد سالماً غانماً ولو حدثتك مدة سنة عن وصفه وأفعاله وأعماله لما تمكنت من إعطائه حقه من الأطناب والمدح.

بعد أن سمعت ليلى من عبدها ما سمعت حصل عندها الشوق لرؤيا هذا الشاب وتشاهده عن كثب حتى تطمئن عن صدق ما قيل عنه وتستوثق هذه الأوصاف التي ذكرت به وتركت الأمر للتقادير.

في الصباح الباكر قامت من فراشها ووجدت والدها قد قام مبكراً ومجتمعاً برجاله والإبل المطلوبة للفدية قد جمعت ولم يبق إلا السفر فدخلت على هذا المجلس وحيت الجميع تحية الصباح ثم ركعت أمام والدها تستمطر رضائه وقالت: والدي أن لي عندك حاجة اروم قضائها وارجوك أن تعاهدني على نوالها.

ابشري يا قرة العين بنوال مطلبك مهما كان غالي الثمن وثقي بإنك لا تقومين من مجلسك هذا فاشله فتحدثي واذكري حاجتك.

إن حاجتي يا والدي بسيطة ولكنها تحتاج الى رضاك واعتقد بانك لا تبخل علي بهذا الرضا وان توافق على ذهابي مع إبل الفدية لاشاهد أخي بعيني واعود به كي يستريح فكري ويرتاح ضميري وارى ان اخي لم يزل في قيد الحياة لأن وساوس قلبي تحدثني باني سوف لا اراه بعد ما سمعت ان ذلك الحضري أطلق عليه عياراً نارياً بطريق الخدعة وقتل فرسه. ومع هذا فان عبدنا فرج هو معي ورفيق بسفرتي وسنأخذ أحد الخيول من خيولنا ليمتطيها عزيزنا سعدون ويأتي عليها.

صمت الشيخ محسن قليلاً مفتكراً بماذا يحدث من الإشاعات التي ستشاع بين الناس ويقولون بإن ابن مجلاد أرسل ابنته لهذا الحضري ترجوه إخلاء سبيل أخيها فصعب عليه هذا الأمر ووجده غير لائق بحقه وكرامة ابنته وإن يوافق على إرسالها رسولة لهذا الحضري الذي لربما يعتقد بإنه ما جاء بهذه الإبنة بهذه الصورة إلا لضعف عشيرتها وخوفها من بطشه وهناك يكبر شأنه ويحتقر العشيرة وعز عليه بان يفشل ابنته ويمنعها من الذهاب لتشاهد شقيقها وتأتي به مع رجاله.

وهناك عرض الأمر على رجاله ليشركهم الرأي فتم الرأي على موافقة طلبها. انفرجت الأزمة وزال الكابوس عن ليلى ونالت مبتغاها وقدمت شكرها لوالدها ومن اشترك معه من رجال العشيرة وقامت من حضرة ابيها راضية ودخلت للمقر النسائي لتتهيء الى السفر.

ومع انها كانت فائقة في الجمال وحائزة على بياض الوجه المحلى بحمرة طبيعية وعينين سوداوان وشعر اسود طويل وعنق يشبه عنق المها لا بالطويلة ولا بالقصيرة فان فرحها بالسفر لمشاهدة ما صارت تحلم به زادها رونقاً وجمالاً.

وبما أن ملابس نساء العراق بدوها وحضرها هو الثوب الأسود حريرياً كان أو كتانياً ترتديه المرأة فوق سروال وقميص من الأقمشة الأخرى وتضع على رأسها خماراً حريرياً وفوقه عصبة تلفها على رأسها ثم تتلفح بعباءة من الجوخ الأسود تضع أعلاها على رأسها وتلتف بجوانبها على سائر جسمها وهكذا كانت فتاتنا ليلى.

وما أن تهيأت القافلة على السفر حتى اعتلت صهوة جوادها وسافرت مع المسافرين وما ان بدأت الشمس على المغيب بقليل وصل الوفد بإبله وخيوله وترجلوا عن خيولهم واستقبلوا استقبالاً شائقاً.

ولما دخلوا الى الشق وجدوا سعدوناً جالساً على فراشه متصدراً المجلس وحوله رجاله معززاً ومكرماً ولما شاهدهم ورأى شقيقته بينهم قام واقفاً معانقاً لها ومسلماً وصارت دموعها تنهمر من عينيها فرحة اللقاء وقبل الجلوس قام سعدون وارشدها الى تافيج فسلمت بدورها عليه وحيته التحية العربية ثم حيت باقي الرجال الموجودين وجلست بجانب شقيقها وصار الجميع يتسامرون حتى صار وقت تقديم طعام العشاء الى الجميع حيث ان تافيج أولم وليمة خصوصية لهذه الضيفة التي جاءت من بلاد بعيدة لاسيما وهي بنت ابن مجلاد ويرى ان واجبها لا يقل عن واجب اخيها والواجب يحتم عليه أن يقوم نحوها بالتكريم والاعتزاز.

أما ليلى فصارت تسترق السمع لحديث مضيفها الذي كان يخرج الكلام من فيه كأنه الدر والياقوت وتستوعب جميع ما ينطق به وعيناها لا تمل من النظر اليه ثم شهدت إكرامه واحترامه لأخيها فوق ما عليه من النجابه والجمال ولهذا اكبرته واحترمته في نفسها وعلق قلبها في حبه وصدقت أقوال فرج وما ذكره عنه وقالت في نفسها والله ان فرج قد قصر في الاطناب بحقه والإشادة بشمائله وان هذا الشاب لجدير بان يحب ويكرم.

أما البطل تافيج فإنه عندما وقع بصره على هذا الغزال الغير نافر وجماله الفاتن والحديث الشهي الذي كان صاغياً اليه قد احبها من فوره ولو لم يك رزيناً لهام بها من ساعته ولكن الشهامة التي جبل عليها انسته العبث في مثل هذه الأمور تجاه هذه الحورية الحسناء وما عليه إلا الازدياد في إكرامها بان يعفي جميع الأسرى من الفدية وإعادة حريتهم وخيولهم وسلاحهم اليهم والإنعام على أخيها بفرسه بدلاً عن الفرس التي قتلها وارجاء كل ذلك حتى يجري الحديث في هذا الشأن.

في صباح تلك الليلة التي ناموا فيها الجميع في بيت تافيج والرجال في الشق وليلى في الحرم قاموا مبكرين وبعد شرب القهوة وتناول طعام الفطور بدء سعدون الحديث موجهاً كلامه الى تافيج قائلاً: يا الجبوري انك قد غمرتنا بافضالك واكرمتنا في بيتك وعاملتنا معاملة الضيوف لا معاملة أسرى أذلاء ولو عشنا مدى الدهر فاننا لن نتمكن من مقابلتك بمثله وبما أن بدل الفداء قد حضر فنرجوك قبوله وتأمر رجالك باستلامه وتفسح لنا لنعود الى اهلنا وكلنا حامدين وشاكرين رافعين لك الراية البيضاء والثناء العاطر.

ثم تلته ليلى بقولها: اننا جميعاً الحاضر منا والغائب دايم الله لمعجبون بك ومقدرين لشجاعتك ومغمورون بافضالك وما لقيه اخي سعدون ورجاله من التجلة والاكرام بضيافتك وقد وكلني والدي ان اقوم عنه في تقديم الشكر اليك فارجوك ان تقبل منه شكره وتحياته.

وثق ايها الفارس بان والدي حفظه الله لم يك راغباً في غزو هذه البلاد ولا كان راضياً عن هذه الغزوة إلا ان اخي سعدون خالف أوامره حتى قدر عليه ان يخفق في مسعاه ويداهمه هذا المصير.

فلما سمع تافيج ما جاءا به هذان الشقيقان استحوذت عليه الشهامة مرة اخرى لاسيما وحديث آسرة قلبه الذي كان وقعه على نفسه برداً وسلاما.

انتخى تافيج اليهما وقال: طبا نفساً وقرا عيناً وستسافرا انشاء الله مع رجالكما باقرب وقت ترافقكم جميعاً الصحة والسلامة ولكن احتراماً لوالدي ووالدكما الذي لم تره عيناي لن اسمح اليكما بالسفر الا بعد الغد مع ان ذلك رغماً عني

وبدون خاطري واعتقد لو كان الأمر بابقائكما في يدي ما تركتكما تغادرانني في هذه السرعة لكن اشتياق حضرة الوالد والوالدة وأهل الحي في عشيرتكم الى رؤياكم جميعاً فلا يسعني والحالة هذه الا ان ابادر في المساعدة على سفركم بعد الغد.

اما مسألة الفدية فإني ما طلبتها للكسب والغنى بل لأرى واجبي عندكم وبما انكم قد قمتم بهذا الواجب فاني قبلتها واقدمها اليكم تذكاراً لصداقتنا واما الخيل والسلاح فهي هديتي الى والدنا الشيخ الوقور واما دية الجريح فتفضلي يا ابنة ابن مجلاد واقبليها ضيافة لك كما واني ارجو واتوسل الى اخي سعدون بحنان الوالد الكريم ان تقبل فرسي هدية مني اليك عوضاً عن الفرس التي قتلتها انا بيدي ليتم بذلك سروري وروابط الصداقة بيني وبينك وبين رجال عشيرتك ورجال هذه البلاد عزيزة ومتينة واني لا اقبل اي عذر او عدم الانصياع الى أقوالي وبفرض عدم قبولكم عطائي هذا فاني لا اتأخر عن نحر الأبل وقتل الخيل وحرق السلاح والله على ما أقول وكيل.

عند ذلك فانه لم يسع سعدون وجماعته الا الرضوخ والموافقة على قبول العطاء لكنه قال الى تافيج طالما وقد حكمت علينا بما حكمت ولا يمكننا مخالفتك فاني اريد ان احكم عليك بمثل ما حكمت ولكن بشيء زهيد لم يك من واجبك الا انه تذكاراً مني لعدم فصم عرى المودة بيننا ونبقى اخوين شقيقين وولدين الى محسن بن مجلاد فارجوك من اجله ان تقبل الفرس التي جاءت بها اختي ليلى معها وهي فرس جميلة المنظر واصيلة المنبت وهي من فروع خيولنا القديمة التي ورثناها عن الاجداد واني اجبتها اليك واهل لان تعلوا ظهرها وتنعم بالراحة عند ركوبك اياها.

قبل تافيج هذه الفرس وعدها عربوناً للصداقة المتينة والمحبة الاخوية.

اما ليلى فانها وان كانت قد طلبت سرعة السفر لبلادها ظاهراً إلا انها كانت تخفي شيئاً في باطنها حيث تحب المكوث في هذا البيت لارواء ظمئها من مشاهدة وجه هذا الشاب الذي تعلق حبه في قلبها ولكن الشرف منعها اظهار ما تضمره وتركت الأمور للتقادير تفعل ما تشاء.

وبعد تناول طعام الغداء ركب تافيج الفرس المهداة اليه وركب سعدون فرس تافيج المعطاة له واخذا بعض من الرجال المأسورين ومن غيرهم وذهبوا الى بدلة النبك وهناك نزلوا في بيت الجريح عبد اللطيف ساره فاستقبلوا بكل حفاوة وترحاب وقدمت اليهم القهوة فتركوا الفناجين بقهوتها امامهم وقالوا له لا نشرب قهوتك يا عبد اللطيف الا ان تعطينا ما نحن آتين لأجله "إن عدم شرب القهوة ووضع الفناجين بقهوتها امام من صبت اليه لها معنى عند جميع العشائر العربية ولا تشرب الا بعد قضاء حاجتهم من قبل صاحب الضيافة" وبما أن عبد اللطيف كان شهماً ويقدر قدر الرجال فإنه قال اليهم: اشربوا القهوة على ما جئتم من اجله وابشروا بما تريدون.

ثم قال تافيج: بارك الله فيك أيها الشهم وهانحن نشرب قهوتك وكلنا أمل بإعطائنا ما نصبوا اليه وقد قصدناك راغبين والى صلحك طالبين فافرض علينا ما تريده من اجل رضاك عن ما حدث عليك وكسر غضدك.

فابتسم اليهم وسر سروراً لما يقوم به تافيج من هذه الأفعال التي لم يسبق لهذه البلاد ان حصلوا عليها لا من بدواً ولا حضر وجاء هذا الفارس ورفع قدرهم مما جعل البدو وأهل الطعن والضرب يحسبون حسابهم ويجبرون على الرضوخ اليهم فقال: انني بفضل الله قد تماثلت للشفاء وعدت كما كنت وقد جبر كسر يدي ولم يبق خوف عليها من التعطيل فإكراماً لكم جميعاً فإني اسامح عشيرة ابن مجلاد بهذا الكسر وديته وعلى وجه فارسنا تافيج الجبوري.

وقد قام من مجلسه وخرج الى غرفة أخرى وعاد وبيده قصبة طويلة وضع برأسها قماشة بيضاء مقدار ذراع واحد وسلمها الى سعدون وقال له: إن هذه الراية راية الصلح فاقبلها مني ايها الكريم ويكفينا من ذلك أن صرنا اصدقاء بعد العداء بفضل زعيمنا تافيج وحسن إدارته وأفعاله.

فقام سعدون وعانقه وقبلا بعضهما وزال الحقد من القلوب وبعد تناول العشاء في بيته عادوا بعد الوداع الى مقرهم امنين فرحين.

وفـي اليـوم الثـاني عملـت الوليمـة وقـد حضـرها كافـة وجهـاء القضـاء وقبـل مناولـة الطعـام تفـاهموا وتصـالحوا مـع سعدون ورجالـه وطـوي هـذا الحـادث وعـاد السـلام والوئـام بـين الطـرفين بـدلاً عن العداء والخصـام وبعد تنـاول الطعام تفرقوا والقلوب صافية والحب خيم على رؤوسهم.

وفـي صـباح اليـوم المقـرر لسـفر الضـيوف سـعدون ورفاقـه قـاموا مبكـرين وودعـوا مضـيفهم وسـافروا الـى اهلهـم وعشيرتهم بقلوب بملأها البهم وفرحين بنتيجة ما آلت اليهم أحوالهم يرفعون راية المدح والأطناب لهذا الفارس الذي غمرهم بجوده ووفائه.

بعد مغادرة هؤلاء الضيوف احس تافيج بفراق ليلى واشتعلت نيران الفراق بفؤاده ولكنـه صبر على مضض حيث كان يقول في نفسه ان هذا الحب فاشل ويجلب لجسمه الضعف والمرض لأنـه لا يعرف ما تكنه لـه هذه الفتاة لـه ثم ان بلادها بعيدة الشقة عن بلاده وهذا الفراق اصبح ابدياً ولا فائدة له من رؤياها مرة أخرى وعليه ان يبعد التفكير بها ويصور نسيانها ولا يحدث نفسه أو أحد بذكراها حتى يتم له سلو حبها ويكفل له الزمن السلوى عنها.

عاد الى بيته بعد وداعهم مشتت الأفكار والفضاء مدلهم في عينيه وشبح غانيته متمثلاً لديه ولا يغيب عن ناضره وتراكمت جميع الهموم عليه وصار ارقاً لا ينام ليلاً ولا نهاراً وتولاه الأنين والخور في الجسم لا يحلو له طعاماً ولا شراباً كل ذلك دفين بقلبه غير مطلع أي انسان على اسراره وما يكنه واتخذ الفلا ملجأ لـه للخلوة بنفسه وبهذه الخلوة صار يتغنى بها وبذكراها وصار يتمثل في ابيات قالها الرقاشي في قصيدة له:

صفاة وحسن او رثا القلب لوعة تضم في احشاء قلبي متيم

تمثلها نفسي بعيني فانثني عليها بطرف الناظر المتيم

يحملني حبي لها فوق طاقتي من الشوق دأب الحائر المتقم

الفصل الخامس عشر
زواج تافيج بليلى المجلادية

وذات يوم وهو في نجواه إذ بالخادمة التي تقوم على خدمته جاءت اليه وهو جالس بوحدته في المكان الذي خصصه لخلوته خارج الحي وقد كان شارد الفكر والاصفرار ظاهر على وجهه فلما رأت ما هو فيه من العي هالها أمره وكادت تصعق لمرأه فقالت له: أراك يا سيدي على غير عادتك ووجهك مصفراً وجسمك ناحلاً فبالله عليك أن تعلمني مالذي اصابك وما سبب وحدتك وهل تشكو مرضاً او تحمل في نفسك هماً دفيناً دون ان تظهر عليه احد. فان كان لك حاجة فأعلمني عسى أن أقوم بقضائها وان كنت مريضاً فاني سأقوم باحضار طبيباً حتى يقوم بمعالجتك فاصدقني القول ولا تكتم عني لأني خادمتك وأمينة على اسرارك وحفظ عهودك من المصلحة اليك ان تثق بي وتخبرني عن كل شيء انت بحاجة اليه حتى لا يزداد بك نحول الجسم واصفرار الوجه الذي لا يعقبهما الا الهلاك والزوال.

وبما انه قرر في نفسه عدم البوح بسره لاحد كي لا يفضح حبه لهذه الفتاة وتكون سيرتها ومضة في الأفواه فقال لها: لا يهولنك ايتها الفتاة ما ترينه على وجهي من الأصفرار ونحول الجسم ولا تفكري باني ادفن بقلبي هماً او اني مصاب بداء وكل ما في الأمر ان السبب من ذلك كان من نتيجة التعب والسهر الذين قضيتهما في الأيام السابقة ولربما انه حصل لي برداً لم اكترث لاتقائه وثقي بانني لم ازل قوي الهمة وسيزول هذا العارض وتعود صحتي الى ما كانت عليه بعد استراحة قليلة من الأيام فلا تقلقي وعودي الى البيت وسألحق بك في أقرب وقت.

فاكتفت هذه الخادمة بهذا الجواب الذي وجدته مقنعاً وقامت لتغادره الا انها فطنت بانها جاءت لأمر اخر تريد ان تعلمه به وقالت: انني جئتك بخبر كدت اسهو اعلامك به وهو ان عبد بن مجلاد المدعو فرج العبد ومعه فارسان من ذوي الهيبة والوقار ونزلوا ضيوفاً في البيت ولما سألوني عنك اجبتهم بانه موجود يستنشق الهواء وعبير الزهار في البرية قرب النزل وبعد ان جلسوا على الفراش الذي فرشناه لهم جئتك لتحيط بهم علماً وبحضورهم عليماً.

ولما علم من مجيء هؤلاء الضيوف في هذه المدة القريبة مع ان جماعتهم لم يغادروا هذه البلاد الا منذ اسبوع فقط. تعجب لمجيئهم بهذه السرعة وتراكمت حوله الهواجس وخاف ان يكون قد اصاب سعدون وجماعته حادث في الطريق ولم ينتظر البدء بتحيتهم والجلوس عندهم بل قال لهم وهو واقف: ان مجيئكم في هذه السرعة المتناهية لما يوجب التخوف فاعلموني جزاكم الله خيراً الحقيقة السبب في مجيئكم وهل جرى الى سعدون ورفاقه حادث عكر صفو راحتهم وهل ان اهلكم عموماً في خير ونعمة ولم يصابوا بمكروه لا سمح الله.

فأجابوه بقولهم: لا تقلق ايها الفارس وكن في بال مستريح ونحن ولله الحمد والشكر لعلاه في اتم هناء واعظم سرور وقد جئناك رسل دعوة لا رسل حزن ومصيبة واعلم ايها الكريم ان الشيخ محسن الذي تركناه يحن اليك ومشتاق الى رؤيتك قد عنف ولده سعدون لقصوره عن دعوتك عند مغادرته هذا المنزل وامرنا ان نكون وفدا اليك حتى تلبي طلبه وتذهب معنا لعشيرتنا ضيفاً عزيزاً مكرماً وقد ارفقنا بكتاب منه يرجوك فيه قبول دعوته وتسرع في الحضور كي تتعرف على رجال العشيرة وابا سعدون ويتعرفون عليك وتزداد عرى الصداقة بينك وبين رجال العشيرة وتزول اتراحنا وتبدل في هناء وحبور على ان يرافقك جمع من رؤساء رجالك وقومك وقد قدموا الكتاب له ففتحه وقراءه بنفسه وبعد ان وقف على محتوياته اخفاه في جيبه.

ثم قام العبد فرج وأشار اليه ان يخرج معه لخارج البيت كي يسر له بعض الكلام فخرج معه ولما ان بعدا عن مسمع الناس قال له: ان سيدي سعدون يهديك تحياته ويرجوك ان لا تخيب طلب والده حتى ينتهي من تغيضه. اما سيدتي ليلى فانها ما كادت تسمع في هذه الدعوة الا وقد طربت اشد الطرب وازال عنها البؤس والغضب لأنها من تاريخ مغادرتها هذه البلاد تبدلت احوالها وبينما كانت دوماً مستبشرة ضاحكة اذ بها صارت حزينة بائيسة وهذه الحالة لا تخفى علي لأني رجل تجارب واعرف أحوال الناس واعلمك بأن سيدتي وقعت في حبك وهواك كما احبك واهواك من اجلها لأنها عزيزة علي وقد خدمتها بكل امانة واخلاص من صغرها حتى الان ولا يغيب عني من اطباعها شيء حتى انها قالت الي لولا الخوف من اهلي وانتقاد عشيرتي لاتيت معك يا فرج احد الرسل لهذه الدعوة وهي تهديك تحياتها وترجوك اذا كنت تبادلها حبها

يجب ان تقبل الدعوة وتأتي معنا لتروي ظمائها من رؤياك ومشاهدة وجهك وها انا ابلغتك الحقيقة لتكون على بينة من الأمر واكتم هذا السر واياك ان تعتذر لأن تخلفك عن قبول الدعوة معناه موتها او انتحارها فاختر لنفسك ما يحلو.

فقال له تافيج والله انك يا فرج بتجهمك هذه المشقات قد احسنت الى وبحديثك هذا قد جعلتني اسيراً للطفك وانسانيتك والأنسان عبد الاحسان واني قبلت هذه الدعوة وسنسافر لاهلكم قريباً ولنترك الأن امر هذه الدعوة ونتحادث بغيرها ولتمثل بقول امرؤ القيس اليوم خمر وغداً امر وعادا الى البيت واشتركا مع الموجودين بما فيهم الضيفين اللذين اتيا مع فرج في السمر والاحاديث المتنوعة وما فيه بالبلاد من الأخبار الى أن جاء وقت النوم.

كانت الحكومة العثمانية قبل دخولها نار هذه الحرب شكلت قوة عسكرية أهلية قوامها ماية جندي بمعداتها وبكامل اسلحتها وخيامها وحيواناتها اللازمة للنقل من محل الى آخر ومعها الحيرة والعلف تحت ادارة الزعيم العربي المدعو محمد الجيرودي والذي يسكن بلدة جيرود ولقب فيما بعد بـ "محمد باشا الجيرودي" لقوته وقدرته على الكفاح والاصابة في الرأي ولا يرحم من تسول له نفسه بغزو البلاد التي يحافظ على الأمن فيها من تدمر شمالاً الى قرب جبل الدروز جنوباً لتحافظ على الأراضي الشرقية من النبك وتوابعها لأن هذه الأراضي هي مفتاح باب الجزيرة العربية ولا يؤمن من جانب العشائر الممتدة في بلاد الجزيرة من العبث في الفساد وسلب ونهب أموال الآمنين من العباد وخوفاً من امتداد فسادهم الى داخل جميع البلاد السورية الكائنة شرقي دمشق الشام وجانبيها من الشمال والجنوب وقد استتب الأمن في هذه الربوع لوجود هذه القوة حيث امنت الأهالي على نفوسها وأموالها وسميت باللغة العربية "قوة البادية".

ولما جاءت هذه الحرب الغاشمة واشتد بطش الأتراك في العرب فقد امتدت ايديهم الأشمة الى هذا الزعيم والقت القبض عليه وعلى من يلوذ به من الأقارب رجالاً ونساء ونفتهم الى بلاد الأناضول في تركيا وبعد ذهاب هذا الزعيم الغيت هذه القوة وعادت "حليمة لعادتها القديمة" من الاختلال في الأمن واخر واقعة مجاسرة ابن مجلاد لغزو هذه الغزوة التي نحن بصددها ونهب مواشي اهل البلاد دون ان يجدوا من ينتصر اليهم لاستردادها لا من قبل الحكومة ولا من قبلهم الا الفتى تافيج الذي خاطر بنفسه وروحه وراح لاحقاً بالمعتدين وقد أمده الله بمقدرة عجيبة ونال شرف استرداد المنهوبات.

وبعد ذلك عن للقائمقام ان يخبر الوالي بما نجح فيه تافيج ويتوسل اليه بإعادة تشكيل قوة البادية تحت إدارة هذا الشاب الباسل فنظم بذلك تقريراً مسهباً وارسله اليه راجياً سعيه في تنفيذ هذا الطلب حتى لا يتكرر وقوع مثل هذه الحوادث.

وبمدة قصيرة نفذ هذا الطلب وجاء الرد بقبول ملتمسه وان قائد الآي الجندرمه العام قدم جميع اللوازم من اسلحة وعتاد وذخائر وخيم وحيوانات وارسلت الى النبك بواسطة قائد الدرك هناك وجاءته الأوامر بتعيين تافيج قائداً للقوة ومحافظاً للبادية وتكليف مأمور مستودع الحبوب لصرف حبوب الحنطة للجنود والشعير الى الحيوانات عن ثلاثة اشهر على ان يستمر هذا الصرف حتى نهاية الحرب.

ثم أعلم بان القيادة العامة قد سمحت لقائد هذه القوة ان يستخدم الجنود الفارين من الخدمة العسكرية في هذه القوة. وقد وصل كل ذلك في مساء ذلك اليوم الذي وصلت رسل ابن مجلاد الى تافيج من اجل الدعوة وفي الصباح جاء الى تافيج رسول القائمقام يحمل معه كتاباً منه يقول له فيه بان يحضر لعنده لأمر هام يعود عليه بالخير.

امتطى تافيج ظهر جواده وسافر تواً الى النبك وهناك اجتمع بالقائمقام حيث ابلغه أمر الوالي ووصول الذخيرة وطلب اليه أن يأتي برجاله للاستلام. فسر تافيج لهذا الخبر المفاجئ الذي لم يخطر له على بال وعد ذلك نعمة من الله ساقها اليه فوافق على التعيين وقبول الذخيرة وبعد ان شكر محدثه على اريحيته ومساعدته وارسل من اتى ببعض رجاله فحضروا وتم الاستلام وعادوا بهذه الغنيمة الى نزلهم فرحين مستبشرين.

وبعد الوصول جيء برجال العشيرة الذين لم يكن لهم علاقة في رعي المواشي وانتقى منهم خمسون رجلاً اقوياء وطلب اليهم التطوع في خدمة هذه القوة ولو مؤقتاً لبينما يعود من سفرته التي ازمع عليها.

فلبوا طلبه بالموافقة وفرق عليهم العتاد والأسلحة ورتب اليهم الأمور بعد ان أقام عليهم رقباء وعرفاء ذوي رأي سديد منهم ثم سلم الرقباء باقي الأسلحة وعتادها وباقي الذخائر والمؤن التي جيء بها موصياً اياهم الدقة والأمانة والصدق في الخدمة وكل منهم ذهب لعمله.

وبعد ان تم له ما أراد قام وارسل الى وجوه البلاد يدعوهم للحضور الى بيته ليطلعهم على ما قابلته فيه الحكومة ويرسلوا له المتطوعين من الرجال الفارين من الجندية على ان يأت وان يكون لديه جواداً لركوبه ويشترك في الخدمة بقوته ويستثني من الجيش في الخدمة ويعرض عليهم كل من يريد الموافقة معه لتلبية الدعوة التي دعاهم اليها الشيخ محسن ابن مجلاد مجهزين بالخيول والأسلحة.

اما الضيوف لما شاهدوا ما شاهدوه من تعزيز هذا الفارس بالأسلحة والرجال من قبل الحكومة وتعيينها له محافظاً للبادية تهيبوه وزادت محبتهم اليه وغبطوه على هذه النعمة التي انعمها الله عليه.

وباليوم الثاني من وصول الذخيرة صباحاً تواردت الرجال من الوجوه ومن بيدهم الحل والربط في قراهم وبلدانهم وبعد ان اجتمعوا في البيت قام واطلعهم على ورود جميع الذخائر من الحكومة وتعينه محافظاً للبادية وقبول كل فرد من رجالهم وفار من الخدمة العسكرية بالاستخدام في هذه القوة ويستثني من خدمته الأساسية في الجيش. ثم اطلعهم على ما جاء فيه الرسل الموجودين من الدعوة فاتفقوا معه واطاعوا امره ووافق على السفر كل من له قدرة على السفر حتى بلغ عدد المسافرين خمسة وعشرين فارساً واستراح الجميع ذلك اليوم.

في صباح اليوم الثالث بعد صلاة الفجر اعتلى الجميع متون الخيول وساروا ملبين الدعوة ودليلهم فرج. عند العصر من النهار وصل المدعوون لقرب النزل فنظروا بسهول خرائب "تدمر" البيوت السوداء المنتشرة هناك كأنها حجارة سوداء مما تقذفه البراكين حول موقعه وشاهدوا في الجهة القريبة من هذا النزل بيت كبير مرفوع على ستة أعمدة وهذا البيت هو بيت الزعيم لهذه العشيرة الشيخ محسن ابن مجلاد. فلما وصلوه ترجلوا عن جيادهم ودخلوا شق البيت واستقبلوا استقبالاً هائلاً وبعد ان تم التعارف وتبادل التحية والسلام اجلس الضيوف على الفرش الوثيرة والسجاجيد والبسط الثمينة الممدودة في ارضية الشق. وقد تواردت رجال العشيرة وحيت الضيوف وفارس الحضر ويقدمون اليهم أشواقهم واحترامهم.

كل ذلك وليلى واقفة خلف الستار لتسمع الحديث وتنظر من الخروق الصغيرة في الستار لمحيا الضيوف وضيفها الحبيب وبعد انتهاء الرجال من السلام ارسلت تستأذن اباها لتدخل الى الشق وتحي الضيوف الذين هم قاموا بأكرامها واكرام اخيها ورجاله في بلادهم. فوافق والدها ودخلت ووقف لها الحضور اجلالاً واحتراماً فحيت وسلمت وعندما صافحت تافيج وتلاقت عيونهما كادت نظراتهما ان تفضحهما وبعد ان انهت سلامها عادت الى خدرها في سكنى الحريم.

اما الضيوف والشيخ محسن وولده سعدون ورجال العشيرة جلسوا في مواضعهم يتحدثون ويسمرون الى ان اقبل طعام العشاء فأكلوا وشربوا وقد قال تافيج ممازحاً: سعدون انت يا أخي اطيب مني فقد اطعمتنا الطعام بملح ونحن بخلنا عليك فيه واطعمناك الطعام عذباً. فأجابه سعدون: ان عملك كان بحق ولا تؤاخذ عليه ولو أني كنت مكانك لما تقاعست عن الاقدام على فعلك ونشكر الله الذي بدل عدائنا في حب وصداقة وزال كل مكروه.

ثم ان تافيج ازداد في الحديث اليهم وسامرهم بطلاوة حديثه والاداب في كلامه كاد ان يسحرهما بلطفه ورقة قوله بصورة جعلتهم يريدون عدم مفارقته او يتركون مجلسه الا ان مرور الوقت من الليل اجبرهم على تركه لينام ويستريح من عناء التعب والسفر.

مكث تافيج ورجاله اربعة أيام في ولائم وضيافات يقدمها اليهم الشيخ محسن ورجال العشيرة دون ان يتمكن من رؤيا حبيبة احلامه وفي اليوم الخامس استأذن من الزعيم السماح له ولرجاله بالعودة الى البلاد وزاد قائلاً: ارجوك ايها الوالد الحنون ان تسمح لنا وتأذن في عودتنا الى بلادنا لاننا اطلنا الغيبة عن اهلنا ويعلم اخي سعدون بان حينا خالي من الحرس ولم يبق في البيت سوى الخادمات ولا يوجد به من يقوم مقامي وقد تركته مع الحلال بين ايدي الرعاة.

واذ بسعدون يجاوبه قائلاً: مهلاً عليك ايها الأخ العزيز فاعلم ان طلبك هذا لا يمكن اقراره ولا نسمح لك ولرجالك ان تغادروننا بهذه السرعة المتناهية لأن هذه المدة القصيرة التي مكثتم بها في بيوتنا لم تروي ظمأنا من رؤياكم والحديث معكم ولابد لكم من مجاراتنا وتمكثوا عندنا مدة كبيرة لا تقل عن مدة شهر على الأقل. كما وانك لست باعظم منا تأسرنا في بيتك وتأسرنا هنا في بيوتنا وتهرب من بين ايدينا ونحن كالحجارة جامدون.

كلا ايها العزيز لا نصمت ولا نجمد ومثلما اسرتنا ولم تتركنا فاننا مقابليك على فعلك ولا نقبل لك عذراً ولا نسمح لكم بمغادرتنا في هذه السرعة المتناهية ولاسيما وان عمنا فرج اعلمنا وما اخفى عنا شيئاً وصار لديك قوة مسلحة ترهب بها كل عدو ويغتبط بها كل صديق واعلم ان والدنا الشيخ الذي كان متلهفاً لرؤياك والاجتماع بك فانه للان لم يرتوي ظمائه من بحر لطفك وطلاوة حديثك وانه صار يميل اليك ويحبك محبة الوالد لولده وصرت عنده كاحدنا نحن ابنائه وخلقت من اصلابه ولهذا نرجوك ومن معك الراحة على فراشكم وغداً نغزوا البرية لصيد المها والغزلان ونعود انشاء الله كاسبين غانمين.

فرد عليه تافيج قائلاً: بارك الله بك ياسعدون ومتعني في حياتك ويجعلك ذخراً لي ولعشيرتك وثق بأنني ما استأذنت بالعودة الى بلادي ملاً وبودي ان ابقى بينكم دوماً الا ان الضرورة لها أحكام وانت تعلم يا اخي منهم الرجال الذي تركتهم خلفي فانهم قليلوا الخبرة بتدبير الشؤون وغيابي عن بيتي يجعلني غير مستريح الفكر عنه لاسيما وقد تركته خالياً من اناس يقدرون حرمة الضيف والخادمة الحضرية لا تقدر هذه الفكرة كنساء البدو والعشائر العربية وفوق ذلك فان حلالي هناك اصبح عرضة لطمع الأقوام واخاف ان تصاب أموالنا بغيابنا ونفقد شرفنا ونصير معيرة بين الناس وهذا مما لا ترضوه لنا ولا توافقون عليه وهاأنتم قد غمرتمونا بافضالكم وصرنا غرقاء في بحور جودكم وكلتم الينا من الكرم بدل الصاع كيل فنرجوكم ان تأذنوا لنا بالسفر والعودة.

ثم تكلم الشيخ محسن وقال: يا ولدي انك بهذا الطلب تظلمني وتجعلني افقد كل مسراتي وتبدلها لي باحزان لم يك لي قدرة على تحملها لأن حبك خرق قلبي وصرت لا استسيغ من الحديث الا سمرك فارجوا منك ايها الأبن البار ان تكف عن هذا الطلب ولو لمدة اخرى لإشباع نهمي بقربك واكرمني انا الشيخ الذي صرت لك اباً محباً وان تطيعني وان لا تعصي لي امراً.

فقام كبير رجال تافيج واقفاً ووجه خطابه الى الشيخ محسن قائلاً: هل لك يا ابا سعدون ان تسمح لي بكلمة اقولها وترون رأيكم فيها.

فسمح له بالكلام وقال:

يا ابا سعدون هاأنت وعشيرتك قد أكرمتمونا وملئتم بطوننا لحوم وزاد وشراب وما عادت بطوننا تتسع لأكثر من ذلك ونخاف التخمة والمورض لاسيما وان الحضر غير ميالين لأكل اللحوم بمثل ما نأكله هنا ولا نخجل بل نقول ان الطعام واللحوم بكثره في بلادنا. ومع هذا فان الكرم ليس بالطعام وتقديم الكثير من اللحوم بل له جهة ثانية فاذا كنت تريد اكرامنا وتعزنا ونكون لك اصدقاء اوفياء فعليك ان تكرم فارسنا بشيء لم يسبقك احد اليه وهو بحاجة اليه.

وهانحن وان كان فارسنا لا يعلم ما اريد قوله ولم يخطر له على بال الا اننا نكون سعداء لسعادته مثلما تحبونه كل هذه المحبة فاننا نزيد عليكم حباً وفداء ولهذا جئناك نحن قومه والمرافقون اليه في سفرته قاصدين ولقربك راغبين بان تمن على فتانا وتسعده وتنعم عليه بقبوله خطيباً لابنتك وصهراً لك ولعشيرتك لاسيما وهو من عشيرة عظيمة وذكرها شائع بين العربان ولا يقل عنكم حسباً ولا نسباً. فخجل تافيج مما سمعه من الشيخ محسن وما جاء به أحد رجاله وبقي صامتاً لا ينبث ببنت شفة.

وقبل ان يجاوب الشيخ محسن على قول هذا الرجل قام من مجلسه وطلب الى سعدون وبعض وجوه عشيرته ان يلحقوا به الى بيت الحريم للاستشارة في هذا الطلب والفصل في امره ويكون على وفاق مع قومه حتى لا ينتقدوه فيما اذا

خرج عن آرائهم ومشورتهم وهناك اجتمعوا وتشاوروا وقال احدهم لابد وان نأخذ رأي ليلى ووالدتها أولاً وبعد ذلك نبت في هذا الأمر اما بالرفض او بالعطاء ووافقوه على رأيه وقام الشيخ محسن لجهة اخرى من المحرم واجتمع بزوجته وعرض عليها طلب الضيوف وبما انها وابنتها كانتا تسمعان للحديث من خلف الستار وتعلم ان ابنتها متيمة بحب هذا الشاب لما كانت تقوم به هذه البنت من كثرة الحديث عنه والأطناب بجوده وشجاعته والسماع لحديثه عندما يتحدث الى الرجال ونظرها من فتوحة الساحة لوجهه فقالت اليه.

اننـي يا ابا سعدون قد سمعت هذا الحديث من خلف ستار الساحة وأرى من الواجب علينا الموافقة على هذا الطلب وان تنعم على هذا الفارس بزواجه من ابنتنا ليلى لأنه كفوء لها وباعتقادي لو بذلت له الغالي والرخيص لما قدرت على مكافئته ومقابلة معروفه الا باتخاذك اليه صهراً ولابنتنا زوجاً وعشيرا وتمثل بقول من قال: "الاحسان يقطع اللسان ولولا الوئام لهلك الانام" اما ابنتنا ليلى فلا تحتاج الى الاستشارة والذي نريده اليها ستوافق عليه ان كان حراً او عبداً وسر في طريق عطائك ولا تخشى احداً وعليك ان تجاري السموأل بما قاله:

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

قام محسن من مجلس زوجته واتى للرجال واطلعهم على رأي زوجته وبعد المشاورة تم الاتفاق على العطاء وقاموا جميعاً ودخلوا الى الشق وجلسوا.

اما الوالدة بعد ذهاب زوجها والرجال ووقوفها على الموافقة دخلت الى مقر ابنتها فوجدتها مضطجعة في فراشها فاستقبلتها الأبنة بالاحترام اللائق بها وبعد جلوسها ومجاذبة الحديث بينهما اطلعتها على الموافقة بخطبتها الى فارس احلامها وهنأتها في هذه الخطبة ثم قبلتا بعضهما بعضاً فرحاً وسروراً.

اما محسن بعد ان شرب القوة توجه نحو تافيج وقال: انك يا ولدي قد احسنت الينا وقمت نحونا بمعروف لم يسبقك اليه احد وهاأنت جئت الى عشيرتنا متكرماً بقبول دعوتنا حيث تشرفنا بك وبقومك والآن لم نجد ما نكرمكم به الا قبولنا لخطبة ابنتنا ليلى على ولدنا تافيج وعلى هذا فإننا وافقناكم على طلبكم واعلموا جميعاً ايها الحاضرون قد اتخذت هذا الفارس صهراً لنا وزوجته ابنتي ليلى فباركوا هذه الخطبة علينا.

حينئذ قام تافيج من مجلسه واخذ يدي الشيخ وقبلهما وجلس امامه يقول: انني ما كنت أحلم بان أقابل منك ومن عشيرتك في هذه المقابلات والمآدب واخيراً بالموافقة على خطبتي لابنتكم المصونة وهاني اقبل لنفسي هذه الخطبة واشكر لكم هذا الفضل الذي غمرتموني فيه والذي لا يمكنني نسيانه طيلة حياتي واقبل منكم ما تفضلتم به من تبنيكم اياي وجعلتني ولداً من اولادك فثق يا والدي بانك ستجدني ولداً مطيعاً اكرم من يكرمك واعادي من يعاديك ويعادي عشيرتك ومن الآن فصاعداً فساكون منسوباً لعشيرتك واني منها واليها اعود واكون مخلصاً وفياً لأخي سعدون وعلى سعادة العزيزة ليلى اميناً ولعهدها موفياً واني اقدم اليك يا والدي ثلاثمائة نعجة صداقاً ومهراً يرافقها فرسي التي جدتم علي بها فارجوك القبول ولا تخجلني امام قومي وعشيرتي هذه ولا تجعل للامتهان علي سبيلا.

نعم العطاء يا ولدي عطائك وهذا الصداق الذي فرضته لنا والذي نجده كثير بالنسبة الى مهور بناتنا في عشيرتنا واني اقبله منك حامداً وشاكراً. ثم التفت الى عبده فرج وقال له ائتي بخطيب العشيرة فوراً ليقوم بعقد القران في هذه الساعة السعيدة.

قام العبد فرج واسرع كأنه الطائر في سرعان طيارنه لفرحه بهذه النتيجة السارة التي يرغب من صميم قلبه بنهايتها وما غاب الا قليلاً الا واتى بخطيب العشيرة وبوصوله اجرى المعاملات والادعية وانهى كل ما كلف به وصارت النساء في داخل المحرم تغني وتزغرد حسب العادة.

واراد الشيخ محسن ان تباشر العشيرة الأفراح والغناء والزغاريد والأهازيج الوطنية لاجراء العرس عندهم في هذه الليلة لأنه صار يعتقد بان العريس والعروس هما ولديه ومن الواجب عليه بان يقوم بزواجهما في عشيرته وتشترك العشيرة

رجالاً ونساءً في هذا الفرح ويتم لتافيج كل ما يصبو اليه حتى يجزم بوفاء هذه العشيرة وانها اتخذته ابناً من ابنائها وزعيماً من زعمائها.

واذ بكبير القوم الذين جاءوا برفقة فارسهم تافيج يقوم من موضعه ويجلس راكعاً امام هذا الزعيم الذي غمرهم بفضله قال: انا قاصدين والى حماك مستجيرين ومثلما تبنيت فارسنا وانعمت عليه بهذا الزواج نرجوك ان تكرمنا حتى لا نكون محرومين من افضالك واحسانك وان تسمح لنا بان يكون عرسه في بلادنا ونفرح به ولا تحرمنا من سيدنا والاشتراك في افراحه هذا اذا كنت تريد ان تختم عملك الشريف بعمل فيه الاحسان الينا ولك منا مزيد الشكر والامتنان.

عند ذلك فكر ملياً ووجد ان طلب هذا الرجل واقع بمحله ولا يجوز له ان يحرمهم من الاشتراك فر فرح عرس فارسهم ويجب عليه ان يوافقهم على طلبهم وقال:

ايها الضيف الجليل انك افحمتني بقولك وبيدكم الحق في هذا الطلب واسأله تعالى ان يديمه اليكم مع دوام العز والسعادة عليكم واني اوافقكم على ذلك لكني ارجو منكم ان تقنعوا ولدنا تافيج بان المهر الذي تكرم به واهداه الي ان يقبله مني هدية لابنتنا ليلى ونقوطاً مني اليها والفرس نقوطاً مني اليه وان لا يخالفني بذلك اذا كان هو حقيقة ولدي ومطيعاً لاوامري.

وقد حصلت الموافقة وانقشعت الغيمة عن الجميع ورجوا الشيخ محسن بالسفر في الصباح الباكر ليعودوا مرة اخرى في اقرب فرصة مع جماعة آخرين من فضلائهم مع نسوة يرافقهم لاستلام العروس والاتيان بها الى بلادهم لبيت فارسهم حسب العادات المتبعة في البلاد العربية من بدو وحضر.

وقد مكثوا ذلك النهار وتلك الليلة في مسامرات وانس وفي الصباح الباكر صار الوداع وسافر تافيج وصحبه متوجهين لبلادهم والسرور طافح على وجوههم بهذا الكسب الذي احرزوه وهذا النسب الذي قوى مركزهم وزاد في شوكتهم وبعد ما كانوا فيما مضى خانعين مخذولين صاروا اعزاء مرهوبين الجانب اقوياء.

فوصلوا حيهم سالمين وجاء الرجال والنساء يهنئون بالعودة وعند سماعهم في الخطبة يباركونها وبات الرفقاء تلك الليلة عنده وفي الصباح توجهوا الى النبك ونزلوا جميعاً في دار الشيخ النضوري واجتمع في مجلسهم هذا الرجال فنشروا اليهم خبر الخطبة فعدوها فاتحة خير لبلادهم لأن هذا الزواج قد اكسبهم صادقة اكبر عشيرة في الجزيرة مرهوبة الجانب بعددها وعددها واختتموا حديثهم هذا بلزوم اذاعة هذا الخبر السار بين اهالي القرى ودعوة وجاهائها لبيت النضوري للشورى بينهم بشأن الذهاب لأحضار العروس وما يلزم اليهم ليقدموا هدية الى العروس ووالدها لأن أهل هذه البلاد عموماً هم أهل هذا الفارس الذي جاد بروحه وانقذهم مع اغنامهم من الغزاة السالبين وارسلت الرسل لهؤلاء الوجوه بعد ان عين يوم لحضورهم وهو لا يتجاوز الثلاثة أيام.

وباليوم المعين اجتمع عموم الوجهاء وبعد المشاورة تم الاتفاق بينهم على شراء سيف قبضته وقرابه مصنوع من الفضة الخاضة وثلاثين عباءة من الجنس الجيد وثلاثة اكياس من القهوة وثلاثة اكياس من السكر واربعة اكياس من الارز هدية لوالد العروس.

اما العروس فهديتها كانت زوجي اساور وثلاثة خواتم من الذهب الخالص وفصوص الأحجار الكريمة وسلسلة من الذهب تحتوي على فستقة مرصعة بالأحجار الكريمة.

وقد قيل بدلا من ان تذهبوا الى الشام وتشتروا هذا السيف الذي يحتاج صنعه لمدة طويلة يوجد هنا أحد التجار عنده سيف صيغ من فضة وقبضته من ذهب جلبه هذا التاجر من الشام منذ أكثر من ثلاثة شهور لاسم زعيم من شيوخ البدو وللان لم يحضر لأخذه ودفع ثمنه فاحضر هذا السيف منه ودفعوا ثمنه له ثم قام بعض الموجودين بشراء الباقي ولم يمض يومين الا وصار كل شيئاً حاضراً ثم جمعوا الرجال والشباب والنساء والبنات مع الجمال اللازمة وصنعوا لها الهوادج

المغطاة بالشراشف الحريرية واستحضروا جميعاً بخيولهم وسلاحهم للذهاب صباح الغد الى نزل العريس فيكون السفر من هناك.

وفي الصباح سارت هذه الجموع لصوب النزل وعند الوصول استقبلت من قبل أهل النزل وقد نزل وجوه القرى في الشق واطلعوا تافيج على كل شيء اخذوه معهم فاثنى عليهم وعلى اهل النزل والرعاة بإكرام هذه الجموع وأولمت اليهم الولائم واقرتهم غداء وعشاء حيث ذبحوا الذبائح وطهوا اللحوم والطعام وقدموها اليهم.

وحال وصول هذا الجمع الى هذه البيوت بدأوا في الغناء والرقص والزغاريد ولعب الدبكة واللعب بالسيف وبأيدي النساء الطبلات والدفوف يقفن عليها والشباب في فمها الاراغيل يصدحون بها وقد بقوا على حالتهم في قصفهم ولهوهم ولعبهم حتى أواخر الليل.

عند فجر اليوم الثاني اركبت النساء والبنات في الهوادج وامتطت الفرسان خيولها وسار الشباب على اقدامها تحمل بنادقها على اكتافها وساروا جميعاً ووجهتهم عشيرة ابن مجلاد بأراضي تدمر الأثرية وتحدق تافيج ينتظر عودة هذا الوفد برفقة عروسه ويعد العدة لارسال رسول خاص ليدوا والده الاغا ووالدته زوجة الاغا من الشام ليحضوا فرح عرسه وليشاهدوا ما هو فيه من نعمة اسبغها الله عليه فذهب تواً الى بلدة النبك واستحضر صاحب العربة السوداء التي يجرها جوادين والتي هي معدة للسفر دوماً الى الشام وتعود منها تحمل الركاب بالأجرة واستأجره مع عربته ليأت بالاغا وزوجته ونقده الأجرة سلفاً ثم ارفقه بكتاب الدعوة وقد سافر صاحب العربة وقضى ما عهد اليه وثاني يوم عاد يحمل والديه العزيزين فنزلا في البيت وبعد ان قدما لولدهما الهدايا وقد سرا سروراً بالغاً لرؤياه وسروره وصل الوفد برجاله ونسائه الى العشيرة بعد الغروب واستقبل بكل حفاوة واكرام وبعد ان قدم الوفد هداياه احيا الليلة مع أهل الحي في السرور والمسرات والغناء والنشيد حتى الصباح وبالنهار تكررت المهرجانات والولائم وبقوا على هذه الحالة يومين بثلاث ليالي.

وعند صباح اليوم الثالث فجراً اركبت العروس في هودجها الذي عمل خصيصاً إركابها فيه وركبت النساء الهوادج الأخرى وامتطى الفرسان خيولهم والشباب أمام الجميع بعد الوداع الذي اودعوا به جميعاً واذ بفرج يتقدم سيده وقبل يديه وبكى اماه وقال:

سيدي تعلم باني ربيت سيدتي ليلى من صغرها واعدها أغلا من ولدي ولا اقدر على العيش بعيداً عنها وبما انها ستعيش في بلاد الغربة ولابد لها من سمير يؤنسها اثناء غياب زوجها وتحتاج الى خادمة تبغيها في الخدمة على شؤونها وشؤون بيتها واخاف ان تتغلب في المعيشة من جهة الخدمة والخادمات وقد جئتك قاصداً كي تقيلنا انا وزوجتي من الخدمة هنا وتلحقنا في خدمة ولديك تافيج وليلى حتى اكون بركاب ولدك تافيج اميناً وتكون زوجتي الى محروستك ليلى امة واجعلنا من جملة عطاياك وما تفضلت به.

فلما سمع الشيخ ما طلبه عبده فرج اكبره في عينيه وانشرح صدره لما جاءه به وقال له: ابشر يا فرج فاني اوافقك على طلبك لان ولدي تافيج وليلى يحتاجان اليك ولزوجتك فهيا واحضر زوجتك وفراشكما واشيائكما وحضر جملاً ليحمل متاعكما واركب زوجتك بالهوادج عند ليلى للقيام بخدمتها وسمرها واما انت فخذ فرسك وسلاحك وارفق الهودج تحرسكم جميعاً السلامة.

فحالاً أجرى فرج ما أمره به سيده الشيخ محسن واركب زوجته في هودج ليلى وحمل على الجمل متاعه وسار الوفد بعروسه وباثناء مروره في السهول والمنبسطات صاروا يهزجون بحدائهم وغنائهم والعيارات النارية يطلقونها من افواه بنادقهم والفرسان تلعب على ظهور جيادها حتى كادوا ينسون انفسهم لكثرة ما تجلت فيهم الغبطة ورافقهم الهناء والسرور وما شعروا الا وقد غربت الشمس عليهم قبل ان يقطعوا ثلثي الطريق فقرروا النزول في هذا المكان وينامون هناك الى الصباح حتى يأتوا النزل في اربعة النهار.

ولما تم الاتفاق اناخوا ابلهم واوقدوا النيران وجددوا لهوهم وغنائهم كأنهم كانوا في بيت العرس وقد ارسلوا رسولاً الى فارسهم يخبروه بمكان نزولهم وانهم آتون الغد.

وفي الصباح قام الطرفان من مضاجعهم وكل منهم توجه لملاقاة الجهة الأخرى. وعند الضحى من النهار وصل الوفد مع العروس ومن ذهب لاستقبالهم في الطريق الى النزل فاستقبلهم تافيج استقبالاً باهراً وانزلت العروس من الهودج وادخلت الى البيت للمحل الذي خصص لها في المحرم وقد تواردت الناس والنساء منهم لمشاهدة العروس والرجال لتقديم التهاني والتبريك في العريس الذي كان يشكر لهم احساساتهم ويلاطفهم بحديثه حتى صار كلهم منه ممنونون وبزواجه فرحون.

وصارت تتراء الذبائح عليه لمعاونته في قرى الوافدين والمشتركين في الأفراح فانبرى بالذبائح واولام الولائم وتقديم الأطعمة اليهم والمهرجانات سائرة على قدم وساق حتى كان بعد صلاة العشاء زف العريس بما يليق به وادخل لحجرة عروسه وتركا يتناجيان ويتسامران ويبثان اشواقهما واظهار حبهما لبعضهما.

وفي الصباح الباكر خرج تافيج من مخدع زوجته واتى الى الشق وبعد ان جلس بمجلسه جاءه المهنئون والمباركون وقدموا الهدايا له والنقوط كل على حسب مقدرته وقد دامت هذه الأفراح وهذه الولائم مدة اسبوع والناس جميعاً مغتبطون ومسرورون والعرسان في عز وسعادة.

الخاتمــة

بعد شهر من زواج تافيج اجتمع رجال عشيرة ابن مجلاد في بيت الزعيم الشيخ محسن وقالوا له: ان ابنتنا ليلى قد تزوجت في بلاد الغربة ولم نقم بما يحتميه الواجب علينا نحوها ولم نهدها شيء من النقوط هدية لزواجها وها نحن جئناك لعرض ما قد فكرنا به واجمع رأينا عليه وهو اننا جمعنا من بعضنا بالاشتراك معاً حتى لا تفوت البعض منا هذه الخصلة الحميدة ماية ناقة من أجود الابل لتقدم الى العروسين هدية منا اليهما ونريد منك يا ابي سعدون ان تؤلف وفد من وجوه قومنا يسافر هذا الوفد برآستك الى بلاد ولدنا تافيج يستصحبون هذه الهدية ويقدمونها اليه ولزوجته ايضاً لواجبهما وتعظيماً لقدرهما ونرجوا منك الموافقة على ما جمعنا عليه وسرعة تنفيذه.

فشكرهم واثنى عليهم ووافقهم على تنفيذ ما اقروه وابرموه وطلب اليهم ان ينتخبوا منهم رجال الوفد وسيكون هو معهم واوعدهم بانه لا يتأخر ابداً.

وقد انتخب خمسة عشر رجلاً منهم وبعد يومين سافر الوفد مع زعيمهم العشيرة وبعض العبيد والرعاة ليكونوا خدماً اليهم والى سوق الابل معهم وما ان غربت الشمس الا وقد وصلوا النزل الذي يقصدونه فاستقبلهم تافيج وقومه استقبالاً لم يسبق له مثيل عندهم حيث قدموا الى هذا الوفد والزعيم المحبوب كل تبجيل واحترام وبعد نزوله ادخل رجاله الى محل المضيف للجلوس به واخذ الراحة من التعب واولمت الولائم وتجددت الأفراح وبات الشعب هناك في رقص وغناء واهازيج وحداء وعمرت الدبكة على انغام الاراغيل والدق على الطبلات والدفوف كأن العرس حدث في هذه الليلة وفرح الجميع فرحاً عظيماً.

مكث هذا الوفد في ضيافة صهرهم الكريم مدة اسبوع وكل يوم يزداد اكرامهم عن اليوم الذي سبقه مما جعل رجال الوفد ان ينسوا انفسهم ويدهشوا لما يقابلون به من قبل مضيفهم ورجاله من الاكرام ويشيدوا باعماله ولطفه وجوده وقد مضى الأسبوع عليهم كأنه يوم واحد.

وفي الثامن استأذن هذا الوفد ورئيسه بالرحيل والعودة الى العشيرة فاستنكر ذلك عليهم لهذه العجلة التي لم تأت على فكره واراد منهم البقاء عنده مدة اخرى الا انهم اقنعوه بأسباب لم يجد له عنها منصرفاً فاذن لهم بالسفر نهار الغد صباحاً مبكراً حتى تتمكن اقوامه في البلدان والقرى للمجيء بهذا اليوم لوداعهم فوافقوه ومكثوا ذلك اليوم وتواردت عليهم الأهالي للوداع وبالصباح غادر الوفد هذا النزل حامدين شاركين.

مضى الربيع وموسم الحصاد وفصل الصيف وجاء الخريف وتافيج وزوجته يرتعان في بحبوحة من العيش وبدلت اتراح الزوج بهناء وافراح وزالت ايام الشقاء والاهانة وجاءت اليه المهابة والسعادة. ولكنه كان يتذكر العهد الذي قطعه على نفسه لعشيرته عندما وعدهم بليلة فراره بأنه سيجد ويجتهد ويجمع المال والحلال ويعود اليهم ويعيش معهم في بلادهم وها انا قد توفقت واصبحت ما كنت اتمناه فلماذا لا اوفي بوعدي ولكن مهلاً حتى يؤون الأوان ويأذن الباري بالعودة وما بعد الصبر الا الفرج.

كل ذلك والثورة العربية سائرة في طريقها ويندلع نيران حربها مع الاتراك وجيشها يكتسح البلاد التي يحاصرها ويشتت الاتراك ويفرق شملهم اينما حلوا ورحلوا وقد اتخذ الشريف فيصل ابن الشريف حسين الذي صار ملكاً على الحجاز فيما بعد موقع العقبة مركزاً له ومحلاً لقيادته يرسل منها السرايا والكتائب المحاربة الجيوش التركية في الأراضي السورية وقد اجتمع لديه من رجالات العرب الأحرار والمتوثبة لأخذ الثأر والاستقلال عالم كثير جم غفير منهم الجندي الباسل والقائد العظيم والكاتب الأديب والشاعر الذي لا يجارى وكلهم تواقون للاشتراك في هذا الجهاد وقد شاع ذكر هذا الجيش وانتصاراته في سائر الافاق.

ويوجد في عشيرة ابن مجلاد شاعر قدير له مكانة عظمى لدى الشعوب التي تقطن بلاد الجزيرة وكان يقصد الأمراء والزعماء فيمتدحهم بأشعاره ويسامرهم في احاديثه واخباره فتنهال عليه العطايا والاكراميات ويعود الى عشيرته مليء الجيوب بالدراهم والدنانير وما يرافقه من الابل والاغنام فيعيش عيشة راضية لا تسول ولا احتياج لحاجة وقد سمع هذا

الشاعر بهذه الثورة ومحل اقامة قائدها ومدير امرها الشريف فيصل وما كان عليه من خلال كرمه وقوة الحجة وحر البيان وما يعطيه لقاصديه من العطاء وبذل الأموال فسافر من عشيرته ووجهته العقبة ليمتدح هذا الشريف باشعاره لينال الجزاء الأوفر اما عشيرة تافيج فإنها تعيش في بلادها كعادتها تتذكر ابن زعيمها الذي فارقها غرة عنها فيأسفون لفراقه ويحزنون لغيابه وقطعوا كل أمل في وجوده او ايجاده ويتلهفون على وجود من يبشرهم باخباره يبذلوا له كل غال ورخيص بشارة له وبما انهم لا يعلمون بان الدهر سيدور دورته ويجيء اليوم الذي من يأت لهم باخباره وان يصدق ما قاله "طرفة"

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وذات يوم عند غروب الشمس وهم جالسين في الشق اذ نزل عليهم ضيف آت من جهة الشمال معتلياً ظهر ذلوله وزيه غيرب عن هذه البلاد وبعد ان ناخ الذلول لديهم استقبلوه بكل حفاوة وتكريم واجلسوه على فراش يليق به وبعد مناولة طعام العشاء جلسوا جميعاً للسمر وقد بدأ الشاعر يقص عليهم اخباره ويعرفهم بنفسه وقال:

اعلموا ايها الكرام باني من عرب الجزيرة ومن عربان ابن مجلاد وشاعرها الوحيد وقد سمعت باخبار الشريف فيصل وما يبذله من البر والاحسان لكل قاصد يقصده وقد جئت لتحيته ومدحه على هذه الانتصارات التي احرزها على طرد الاتراك من بلاد العرب بقصيدة من اشعاري لا يمكنني ان اسمعها لغيره وقد قدمت من عشيرتي المخيمة في سهول تدمر الزباء على ظهر ذلولي ومررت بطريقي على الازرق ومنه على هذه البقعة من الأرض وقد وجدت نزلكم فاردت ان اكون لكم ضيفاً بهذه الليلة وغداً ابدأ سفري من هنا الى معان ثم العقبة لاحظى بمقابلة قائد الثورة وسيد البلاد.

ومن دأب البدو عندما يردهم غريب عن بلادهم يمطرونه بالاسئلة عن اخبار العربان والبلدان التي اتى منها فسألوا هذا الضيف بمثل هذه الاسئلة ليكون سمرهم بهذه الليلة مقتصر على الأخبار والحوادث الخافية عنهم.

فاجابهم على طلبهم حيث طلب الحديث والسمر معهم وقال:

لنرى قصة جرت في عشيرتنا واريد قصها عليكم وهي ان عشيرتنا تركت بلاد العراق وجاءت الى اراضي تدمر الزباء لكثرة كلائها وجيد مناخها ونقي هواءها وسهول مراتعها ووجود المياه الغزيرة في ابارها وبركها ونزلت في سهولها ولم تمض مدة قليلة على السكنى فيها اذ خطر لابن زعيمنا الشاب سعدون ابن الشيخ محسن ابن مجلاد الزعيم الاكبر لهذه العشيرة ان يغزوا بلاد النبك من جبل قلمون لان له ولع في الغزو والكسب مع ان عشيرتنا ليست بحاجة الى حلال غير حلالها وكان والده نصحة ان يعدل عن هذه الغزوة وبترك اهل البلاد امنة مطمئنة ببلادها فشاء القدر ان يقوم سعدون بهذه الغزوة سراً عن والده واخذ معه خمسين فارساً من فرسان العشيرة الأشداء وغزى غزوته التي صمم عليها ونام ليلة بالقرب من الموقع الذي به المغزى عليهم وفي الصباح بعد طلوع الشمس اغار هو وفرسانه على اغنام الحضر هناك في موقع يقال له الدير وقد ساق جميع نعمها وشائها وعاد بغنيمته عائداً وبدلاً من ان يعود من طريق السهل والواسع عاد من طريق الثنية الشرقية لان هذه الطريق اقرب للموقع المخيمة فيه عشيرته غير حاسب لاصحاب هذه النعم حساباً.

ولما بدأت هذه المواشي ورعايتها يخرجون من الثنية في الجهة الشرقية الا وانقض على رجال الغزو فارساً لا يتجاوز الواحد والعشرين عاماً من عمره وبخدعة استعملها تمكن من صرع بعض الفوارس ومن جملتهم عقيدهم سعدون فاخذوا اسرى واخيراً سلم الباقون نفوسهم وسلاحهم وخيولهم الى هذا الفارس والرعاة الذين كانوا مع الأغنام وعاد بالأسرى والمواشي والرعاة الى بلاده سالماً ومنصوراً.

وبعد ان تصالح هذا الفارس مع الغزاة وعشيرتهم قام زعيمنا والد سعدون ودعاه هو وبعض رجال قومه الى زيارة العشيرة وضيوفاً عليها فلبى الطلب وجاء الى العشيرة هو ورجاله فاكرموا اكراماً زائداً. ونتيجة لهذه الزيارة فقد حصلت المصاهرة فيما بين هذا الفارس والشيخ محسن وقد انعم زعيمنا على هذا الشاب بان يكون لعشيرتنا صهراً فتزوج بليلى المجلادية التي هي ابنة الزعيم واخذها لبلاده وهما الان يعيشان في بيتهما المرفوع على اربعة اعمدة في كل سعادة وحبور وعندهما من الأغنام والابل لا يحصى له عدد وفوق ذلك فان الحكومة اسندت اليه رتبة محافظ البادية وزودته بسرية من

الجنود باسلحتها وذخائرها حتى صار في هذه البلاد قوياً ومرهوب الجانب وكل ذلك بفضل شجاعته وحنكته وقوى ساعده وما لازمه الله به من التوفيق.

ثم زادهم حديثاً عن كرم هذا الشاب وجودة وابان لهم ما فهمه عن حالته في بدء امره وما لاقاه من الضنك والتشريد وكيف ان الدنيا ضاقت بوجهه ولولا العناية الربانية قد احاطت به لما حصل على ما حصل.

فلما سمعوا هذا الحديث اكبروا هذا الشاب وارتاحوا لذكراه وصاروا جميعاً يدعون له بالخير دون ان يعرفوا اسمه ومن اي بلاد هو لكنهم كل ما فهموه من هذا الشاعر ان هذا الفارس هو من الحضر ولا يتصل الى البداوة بقليل او كثير فرغبوا ان يقفوا على اسمه والبلاد التي اتى منها وطلبوا من هذا الشاعر دوام الحديث عن هذا الفارس فاجابهم:

وان يكن ان هذا الفارس هو اقرب بخلقته وخلقه وشهامته الى البداوة واني استبعد كل البعد بان يكون من الحضر الا ان نصرته الى هؤلاء القوم الذين لا يعرفون عن احواله شيئاً وانتصاره على سعدون ورجاله واعادة مواشيهم اليهم جعلوه زعيماً اليهم واطلقوا عليه لقب فارس قلمون لان البلاد التي يسكنونها تسمى بقلمون وان اسم هذا الشاب الطيب هو تافيج ابن حمد الجبوري ويقال ان له عشيرة في الجنوب لا اعرف عنها ان كانت حضرية او بدوية.

واذ بهم قالوا بلسان واحد تافيج ابن حمد الجبوري وهل انت متأكد من هذا الاسم فاجابهم اني متاكد تمام التأكيد بان هذا الاسم هو اسمه وان كان لكم عليه دم او بينكم وبينه عداوة فتأكدوا ايها القوم بانه في حرز مكين ولا يمكنكم لا انتم ولا غيركم ان تطولوه في بلاده وعشيرة ابن مجلاد تنصره عليكم وعلى غيركم ولو اعرف ان هذا الاسم قد اقلق راحتكم لما اظهرتكم على اسمه واملي بكم ان تقلعوا عن افكاركم وخلوا الرجل آمن في شأنه وعزه وكونوا امنين من قولي الذي أقوله لكم او انه يريد لكم العداء لاصحبكم بجيش لا تقدرون على تعداده واخذكم اخذ عزيز مقتدر.

فما ان انتهى من هذا الحديث والا قاموا جميعاً وصاروا يقبلونه بوجهه ورأسه واعلموه بانهم اهله وذويه وانهم ما قالوا كلمة تافيج ابن حمد الجبوري عندما سمعوا ذكر اسمه الا من اجل ان يقفوا على الحقيقة لانهم كانوا قد قطعوا الامل من وجوده لفراره وتركه نزلهم وهو صغير لا يتجاوز الاثني عشر عاماً وبعد ان استوثق منهم بان اعطوه موثقاً من الله فقد استأنس بهم وانس جانبهم ونام ليلة مستريحة.

وفي الصباح اراد السفر فمنعوه وجددوا اليه الاكرام وعملوا له وليمة فاخرة ثم جمعوا له مبلغاً من المال وقدموه اليه بشارة عن ما بشرهم به بوجود ولدهم حياً يرزق فقبله منهم وبات ليلة ثانية وسافر متوجهاً نحو العقبة ومعان.

بعد ذهاب هذا الشاعر تشاور الجميع بالكيفية التي يريدون بها جمع شملهم بولدهم واذ بابني عمه سعد وسعيد ولدي جرو اللذين كانا حاضرين المجلس قد قاما على اقدامهما وعيونهما تذرف بالدموع وقالا يا اعمامنا واهلنا وان يكن ان والدينا قد غرهما الطمع في كسب المادة والرياسة وفعلا ما فعلا فقد تولاهما ربهما وخالقهما وجازاهما الجزاء العادل الذي يستحقانه ولكننا نرجوكم سرعة العمل على استرجاع اخانا وسكناه بيننا وهذا ليس عليكم بعزيز.

ولما سمع رجال العشيرة هذا القول اخذتهم النخوة العربية على تنفيذ هذه الفكرة واخيراً تم رأيهم على ارسال وفد من كبرائهم وعظمائهم من الحل والربط وذوي الفهم وقوة الحجة واختاروا ما اختاروا منهم على ان يكون سعد وسعيد مرافقين لهم وقاموا يعدون العدة للسفر.

بعد يومين من هذا الاجتماع انهوا ما قد يلزمهم في سفرهم من الزاد والماء وامتطوا ظهور اذلتهم الحرة متخذين جهة البادية الشمالية الى وجهتهم نحو موقع اراضي الدير ينامون احياناً عند العربان الي يجدونها مخيمة في طريقهم واحياناً في البرية وبعد سفر ثلاثة ايام اشرفوا على البلاد التي يريدون الوصول اليها.

وبما ان تافيج رغم ما كان يرسله من القوة الموجودة لديه للتجوال والحراسة كان لا يتأخر احياناً من ركوب فرسه ويرافقه عبده فرج للمشارفر على مراتع ابله والمواشي التي تخصة واغنام عشيرته وصيد بعض الغزلان اثناء تجواله وباليوم الذي اشرف به وفد اهله على منازله وكان الوقت قريباً من الظهر اذ به يرى الاذلة بركابها آتية من الجنوب فقال لعبده هيا

يا فرج اذهب لمقابلة هؤلاء القوم واكشف لنا خبرهم عساهم ان يكونوا ضيوفاً لان قلتهم لا تظهر لنا عداءهم فاطاع العبد امر سيده ومشى على ظهر جواده مسرعاً وباقرب وقت وصل اليهم وسألهم عن وجهتهم ولمن ينسبون الى العربان. فأجابوه قائلين اننا من عربان الجنوب ومن عشيرة فارس هذه البلاد الذي يسمونه تافيج بن حمد الجبوري وقد سمعنا به واتينا اليه ضيوفاً وزائرين ونحن من اقربائه وذويه.

فلما سمع هذا العبد الامين اقوالهم وفهم ان هذا الوفد هو اقرباء سيده فانه ارشدهم الطريق لجهة المخيم وتركهم في سيرهم ثم عاد الى سيده معلناً اياه بهذا الخبر فلما سمع تافيج هذا الخبر طلب الى عبده ان يعود اليهم ويأتي بصحبتهم وهو ذاهب الى البيت ليكون متهيباً لاستقبالهم.

رجع العبد لجهة الضيوف وتافيج عاد مسرعاً لجهة المنزل وحال وصوله امر بفرش الفرش وتجديد القهوة وما ان اتم ذلك واذ بالضيوف قد وصلوا واناخوا ركابهم وترجلوا عنها فاستقبلهم تافيج خارج البيت بما هو معهود فيه من البشاشة والترحاب وعندما رفعوا اللثام عن وجوههم تعارفوا ومن صدمة هذا التلاقي بعد ذلك الفراق هجم السرور عليهم حتى ابكاهم وتبادلوا القبل والتحيات وقد نسوا انفسهم في هذا الموقف الذي كان مسراً ومحزناً في آن واحد.

ولم ينبههم الى ما هم فيه من الغفلة والجمود الا نداء زوجته ليلى من داخل البيت تقول اليه: يا تافيج والله يا بن الكرام قد ظلمت ضيوفنا بهذا الوقوف وجعلتهم عرضة لحر هذه الشمس المحرقة فلا تعرف بان لنا حقاً بهم وحصة لمشاهدتهم كي نناجهم ونقدم واجباتنا اليهم فانتبه لنفسك وادع اعزائنا للدخول ليستريحوا من العناء والتعب الذي صادفوه في سفرتهم ولا تبخل علينا وان الايام طويلة وستشبع نهمك وتروي ظمائك.

انتبه تافيج من غفلته حيث خجل من ايقافهم بالشمس كل هذه المدة فدعاهم للدخول الى البيت وقد دخلوا فعلاً وجلسوا على الفرش التي فرشت اليهم وبعد تقديم التحية من جميع الحاضرين قدمت اليهم القهوة فشربوها بكل لذة وقدم اليهم الدخان فصاروا يدخنون ويسمرون وهم بين مصدق ومكذب بان الدهر قد جاد عليهم بلقاء حبيبهم وانهم في حضرته وفي بيته جالسون.

وبعد اخذهم قسطاً من الراحة جاءت ليلى ودخلت عليهم فوقفوا اليها اجلالاً وتعظيماً وقدمت اليهم تحياتها وهنائتهم وزوجها بهذا اللقاء بعد ذلك الفراق الطويل فشكروها على هذه التهنئة وعادت الى خدرها.

وبالحال نحرت الجزر واولمت الولائم ودعا اليها وجوه القوم وكبرائهم وجاء الأهالي والمجاورون للسلام والتهنئة وتجددت الأفراح وتوالت سبعة ايام بين دعوات وسمر في الحديث. وفي اليوم الثامن جاء وفد عشيرة ابن مجلاد يرأسه الشيخ محسن ومعه ولده سعدون للسلام والتهنئة لتافيج ووفد عشيرته على جمع الشمل وقد مكثوا في ضيافة صهرهم ثلاثة ايام يتعرفون فيها على رجال الوفد واخبار بلادهم والثورة العربية القائمة في الجنوب.

ثم قام الشيخ محسن يدعوه صهره تافيج وضيوفه لزيارة عشيرته ليتعرف الضيوف الى رجال العشيرة واهلها فقبل تافيج هذه الدعوة اكراماً لاصهاره واحتراماً لاقاربه واشترط على ان لا تتجاوز مدتها ثلاثة ايام فقبل منه هذا الشرط. وفي اليوم الرابع سافر الشيخ محسن ورجاله يصطحبون معهم تافيج وضيوفه وهناك في عشيرة ابن مجلاد استقبلوا احسن استقبال واكرموا اجمل اكرام وبعد انتهاء هذه المدة عاد تافيج وضيوفه الى اهله مسرورين.

وثاني يوم وصولهم من الدعوة بحث الوفد مع تافيج امر مصالحته وعودته الى دياره وقد رجوا منه ان يغفر لعمه الذي صار اعمى حيث جوزي من مولاه على فعلته وان يحسن الى ابني عمه ويجود على عشيرته بالعودة اليها وتنفيذ ما وعدها به حيث كان قال لرجالها في تلك الليلة المشؤومة "ساجد واجتهد واجمع المال والحلال واعود الى العشيرة" وها انت بفضل الله قد انعم عليك وقد وصلت الى مبتغاك وحصلت على الذي كنت طالبه ويكرروا الرجاء اليه بان يمنحهم رضاه ويعود معهم ولا يرجعهم خائبين.

فقال لهم: والله اني لا احمل لعمي ولا لغيره ضغينة ولا حقدا واني سامحته على فعلته وظلم زوجته اكراماً لاخواني سعد وسعيد وانتم ايضاً والعشيرة جميعها معاً. وثقوا ايها الاحباب باني احب عشيرتي من كل قلبي وانني اشتاق اليها ولمشاهدتها والاجتماع بافرادها وازيدكم ايضاحاً باني احن لبلادي حنين الناقة لولدها ويصعب علي ان افشلكم ولكن قد عرفتم بهذه المدة التي مكثتموها في بيتكم هذا حب جماعتي الي واحترامهم اياي وانهم هم الذي اووني وبخيرهم غمروني واسعدوني. ويصعب علي فراقهم دون رضاهم حتى لا ينسب الي عدم الوفاء ونكران الاحسان والجميل واني لا أرضى ان تتبدل سعادتهم بحزن وفرحهم بمكروه. فأرى من اللائق واحتراماً لهذه الاقوام الطيبة الكريمة ان تتوجهوا بانفسكم اليهم وترجونهم بالسماح لكم في اخذي منهم بالرضاء وطيبة الخاطر فاذا وافقوا على ذلك فاني اكون لكم اطوع من بنانكم.

ولما وجودوا انه مصيب بطلبه تركوا الحديث حيث قرروا فيما بينهم ان يذهبوا بالغد الى النبك ويجتمعوا بوجوه الأهالي بواسطة النضوري ويعرضون عليهم ما هم آتون من اجله ويرجونهم ان يكونوا معاونين لهم في اقناع تافيج للعودة الى العشيرة معهم.

وفي الصباح الباكر ركبوا اذلتهم ورافقهم العبد فرج على متن جواده وجاءوا الى بلدة النبك ونزلوا ضيوفاً في دار النضوري وبعد ان اخذوا مجلسهم عرضوا الأمر عليه ورجوه المساعدة فاوعدهم بانه سيكون عند حسن ظنهم الا انه استمهلهم بينما يرسل خلف وجوه القرى لاقناعهم في هذا المطلب ويأتون جميعاً الى تافيج ويبذلون كل ما يطيب له خاطرهم وبعد هذا الحديث وتناول طعام الغداء في داره عادوا راجعين وكلهم آمال بنوال مطلبهم.

اما النضوري فانه قام من ساعته وارسل رسلاً الى كبراء ووجوه القرى التابعة لمركز النبك داعيهم للاجتماع بداره ليعرض عليهم عرض غاية في الأهمية من اجل المصلحة العامة ومكث ينتظر مجيئهم باليوم الذي عينه لحضورهم.

اجتمع النضوري والوجوه وعقدوا مجلساً في داره واذ بالنضوري يقول:

اعلموا ايها الأخوان ان رجال عشيرة فارسنا تافيج وذوي قرباه قد زاروني في داري ورجوني ان اتوسط اليكم للموافقة على اخذه من هذه البلاد ويصحبهم الى بلادهم لأنه غير موافق على طلبهم ما لم تسمحوا له انتم في هذه البلاد وارى ان الرجل يعتز بكم ويؤثر مصلحتكم على مصلحة عشيرته حتى لا تنسبون له عدم الوفاء ونكران الجميل ولهذا ارجوا ان تتشاوروا مع بعضكم والبت فيما ترونه مناسب بهذا الشأن.

ثم تكلم آخر من الحاضرين وقال تعلمون ولا شك ان الرجل وان كان يعز عليه مخالفة ارائكم ويجد ممانعتكم عن التسليم به فانه يعز عليه مطالب عشيرته الأساسية واعادة وفدها خائباً ومثلما تحبون بلادكم وتشتاقون لرؤياها اثناء غيابكم عنها كذلك فان فارسنا لابد وانه يشتاق لبلاده ورؤية افراد عشيرته فارى من الواجب علينا ان لا نكون حجر عثرة في سبيل عودته يرافق الوفد الذي جاء اليه.

وبعد اخذ ورد ومشاورات تم الاتفاق على ان يذهبوا جميعهم الى تافيج وينصحوا له السفر برفق اقاربه برضاء منهم وطيبة خاطر.

وباليوم التالي سافرت جموع الوجهاء لأرض الدير وهناك نزلوا في بيت تافيج فاستقبلهم استقبالاً يليق بهم وجلس كل واحد في الموضع الذي خصص اليه وتبادلوا الأحاديث وقد اولم لهم ولجميع من حضر والضيوف معاً وليمة للغذاء وبعد تناول الطعام والانتهاء من رفع بواقيه دار الحديث في الشأن الذي جاءوا لأجله فقال كبيرهم بالاصالة عن نفسه ونيابة عن الباقين قائلاً:

انت تعلم يا بني ان اقاربك قد جاءوا الى دار النضوري واخبروه بانك رفضت موافقتهم على ترك هذه البلاد والرحيل عنها الى عشيرتك اعتزازاً بنا وعدم تألمنا فاننا لهذا الرفض الذي جابهتهم به لشاكرون اليك هذا الصنيع الذي اضفيته علينا واقرنته بافعالك الحميدة التي لا ننساها واعلم يا بني باننا ما اوفيناك معروفك ولو بعض الشيء منه إلا لانك الشخص الوحيد الذي حميتنا من شر الغزاة واستردت الينا مواشينا واسرت المعتدين علينا وجعلت منهم ومن عشيرتهم

اصدقاء بعد العداء واخذت عليهم وعلى جميع عشائرهم العهود والمواثيق على ان يكونوا لنا عوناً على كل من يريد لنا السوء ولا من الممكن ان ننسى هذا الفضل والعز الذي بسببك اتانا وقد تشاورنا مع بعضنا وجئناك برضائنا راجين منك ان لا تخذل اقاربك واهلك وسر معهم الى بلادك لأنهم يحبونك ويشتاقون اليك كما نحن نحبك ونشتاق لمرأك.

فاجابهم بقوله: اعلموا ايها الأهل ان ما قمت به نحوكم كما ذكرتم ليس لي به فضل انما الله جل وعلا هو الذي اعانني ونصرني على المعتدين وحصل ما حصل كله من حسن نيتكم الطاهرة فارجوا منك نسيان الماضي وعدم ذكره. اما بلاي وعشيرتي وتشوقهما الي فانه لا ينكر والشاعر يقول:

بلادي وان جارت علي عزيزة واهلي وان ظنوا علي كرام

لكن هذه البلاد العزيزة علي واهلها الامناء المحبوبين لدي الا ان قلبي لا يطاوعني تركهم وارحل الى بلاد بعيدة عنهم وتقطع العلاقات بيننا لبعد المسافة وخلو الطريق من السكان الأهلة ثم ان عشيرتي بامكانها ان تعيش مع بعضها بكل عز وسعادة ولكن انتم هنا فاني اخاف عليكم من تقلبات الزمان فارجوكم ان تعفوني من الرحيل عن جواركم وامكث بينكم مدى الحياة.

اننا يابني لا نقول باننا نعلم علم الغيب والأمر بيد الله يفعل به ما يشاء ومع اننا لا نريد رحيلك عنا ويصعب فراقك الينا وقد صرنا بين امرين فاننا نرى ان نهمل امرنا ونسعد اقاربك وذويك بلقياك وقد قررنا السماح لك بمرافقتهم الى العشيرة التي تنتظر اوتيك تلظى كأنها على جمر من الفضاء فنرجوك الموافقة على هذا القرار ولا تخذلنا جميعاً.

حينئذ لم يسع تافيج الا الموافقة على ما طلب منه وودعوه عائدين لقراهم واهلهم على ان يأتوا مرة اخرى لوداعه عندما يأتي اليوم الذي سيسافر هو واهله والوفد به. فانشرحت صدور رجال الوفد لهذه النتيجة السارة ومكثوا ينتظرون اليوم الذي يسافرون به.

ثم ان تافيج استصحب عبده فرج الذي يعتمد عليه بمرافقته وسافرا بيوم الغد صباحاً الى الشام فوصلاها عند الغروب ونزلا ضيفين على والديه على اغا الكردي وزوجته وناما في داره تلك الليلة وبالسهرة اوقفه على ما جرى والقرار الذي تم بشأن عودته الى عشيرته فسر لهذا الخبر وفرح هو وزوجته لما صارت الحياة الرغيدة لولديهما والسعادة التي نالها وما اعطاه الله من النعم والخيرات وشاورهم في امر هذه العودة فوافقاه عليها ودعاهما ليرحلا معه الى البادية فاعتذرا لعجزهما وعدم مقدرتهما على المعيشة البدوية وانهما يرغبان بالبقاء في الشام حتى يقضي الله اجلهما ويدفنا في مقابر الأولياء الصالحين وشكرا له هذه الاريحية وزوداه بالدعاء الى الله ان يحميه ويجعله من الموفقين.

في الصباح المبكر بعد ان تناولا فطور الصباح وارفقتهما الوالدة بزوادة الطريق من الطعام سافرا الاثنين تافيج وفرج الى اهلهما ووصلا سالمين عند الغروب. وبعد ان استراحا تلك الليلة سافرا بالصباح الى اراضي تدمر الزباء ووصلا عشيرة ابن مجلاد ونزلا في بيت صهره الشيخ محسن وباثناء السهرة اعلمه مع رجال العشيرة عن مفارقته لهذه البلاد والرضوخ لطلب الوفد الذي اتاه من عشيرته وموافقة رجال قومه على العودة الى بلاده ليعيش مع اقاربه واهله وعشيرته فوجد منهم الموافقة الكاملة وشوقوه على عدم ترك بلاده خالية منه ثم قال محسن:

اعلم يا ولدي بان الغريب وان طالت مدة غربته فلابد له من العودة الى دياره وبما اننا قد اشتقنا لبلادنا وخيراتها ولولا وجودك في هذه البلاد لما كنا بقينا هذه المدة في هذه البلاد مغتربين عن اوطاننا ولرحلنا اليها من زمن بعيد ولما كنت عزمت على الرحيل فاننا سنرحل ايضاً عن هذه البلاد وسنكون امناء محافظين على عهودنا التي تعهدنا فيها اليك باننا سنبقى اصدقاء لأهالي هذه البلاد ونحافظ على كيانها واموالها من كل معتد أثيم واننا سوف نزورك في بلادك في يوم ما وبشر قومك بهذا التعهد الذي اسوقه اليك مرة اخرى ليكونوا سعداء في بلادهم آمنين مطمئنين وسنأتي اليكم في ارض الدير تصحبنا والدة ليلى وبعض النسوة من الاحباب والاقارب وسعدون ورجال العشيرة لنقوم بوداعكم وذلك في اليوم الثالث من هذا اليوم فقر عيناً وتوكل على الله.

ومن ثم قام تافيج والعبد فرج ودخلا الى المحرم وقدما تحياتهما لوالدة سعدون وليلى واعلماها بما تم الأمر عليه فقبلتهما بوجناتهما لأن تافيج زوج ابنتها ويعد ولداً لها واما فرج فهو العبد الذي تربى في بيتها وتركن اليه مثل ما تركن الى سعدون وبعد ان اتما الحديث والأسئلة عن ليلى واحوالها تركاها وعادا الى المضيف حيث اشتركا في حديث الرجال.

في الصباح ودعا الشيخ محسن وزوجته وسعدون ومن كان حاضراً في الشق بعد تناول الفطور وسافرا وقد وصلا الى اهلهما وابلغا ليلى واقاربه بما اجراه.

مكث الجميع ينعمون في السمر والحديث وفي اليوم الثالث وصل الشيخ محسن ومن معه من الرجال والنساء واستقبلوا في بيت صهرهم فدخلت الأم والنساء المرافقات اليها الى محرم النساء والرجال مع الشيخ محسن الى مقر الرجال ضيوفاً مكرمين ومعززين.

ثم صارت وفود القرى تتوارد على هذا النزل واشترك باستقبالهم وتقديم الاطعمة اليهم والى من سبقهم من قبل جميع أهالي النزل حيث صاروا يقدمون الذبائح والسمن والوافدين من القرى يأتون بالأرز والقهوة والسكر معاونة لفارسهم مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الأخير جاء القائمقام وبمعيته جميع الموظفين للوداع ايضاً.

وقد انتخب رجل من الرجال القوة ليخلف تافيج في محافظة البادية وسلم اليه كل ما كان في عهدته من رجال ومتاع واسلحة وعتاد وقام الشيخ محسن ورجاله بتجديد العهد والميثاق على ما كان عليه في العهد الأول وبات الجميع في هناء وسرور ولم يهجعوا الا بأواخر الليل.

وعند الصباح الباكر قام الجميع من رقادهم وبعد شرب القهوة كالعادة جلبت الركائب وحمل البيت مع جميع المتاع على ظهور البعض منها وجيء بجمل قوي الجسم والسواعد وركب فوق ظهره هودج ليلى الذي عمل لها يوم عرسها واسدلوا عليه الستائر الحريرية وجمعت الأبل والمواشي وسلمت الى فرج لحراستها مع الرعاة وحصل الوداع لتافيج وذويه وليلى وعند هذا الوداع تبدل مرح الوافدين بالبكاء والعويل على هذا الفراق الأليم.

واخيراً سافر تافيج ومن معه ووجهتهم البادية وبلاد الموقر مسرورون والمودعون عادوا الى ديارهم وقراهم محزونون.

بعد سفر ثلاثة ايام في الطريق الذي اختارها الوفد وصلوا مساءً الى مشارف البلاد التي يريدونها وناموا تلك الليلة في البرية كعادتهم في هذه السفرة وفي صباح اليوم الرابع ثابروا المسير وقد ارسل الوفد رسولين منهم ليبشروا العشيرة هذه البشرى وعودة تافيجهم اليهم وما ان قرب المسافرون الى اراضي الموقر حتى قابلهم جم غفير من رجال العشيرة على الخيول والأبل وعند رؤيا بعضهم بعضاً ترجلوا عن خيولهم وابلهم وقد قابلهم تافيج ورفقته بالمثل وتصافحوا وتبادلوا القبل والسلام وركب الجميع وبدأت الأهازيج والحداء تصدح في الأفاق فرحاً بوصول هذا الفارس اليهم.

وعند وصول الجميع لقرب منزل العشيرة من الشمال طلبوا الى تافيج ان ينصب بيته في هذا المحل الجديد حتى يؤتى في بيوت جميع العشيرة لينزلوا عليه اكراماً له ولزوجته التي هي بنت ابن مجلاد تلك العشيرة العظيمة فقبل منهم شاكراً.

انيخت الجمال التي تحمل احمالها وقام جميع الرجال الموجودين لبناء هذا البيت فرفعوه على اعمدته في هذه السهول الخصبة وادخل اليه الفرش والمتاع واوقدت النار وعملت القهوة وما مضى اللا النذر اليسير من الوقت الا وجاءت العشيرة بخيمها واثقالها ونزلت بجوار هذا البيت الكبير من جميع جهاته شرقاً وشمالاً وغرباً وجنوباً وبعد الانتهاء من السكن جاءت النساء الى ليلى وسلمن عليها واكرمنها بالتحيات والتعظيم.

بعد هذا جاء العم جرو يقوده ولده سعد وخلفه زوجته سلمى تعرج فساعدها على المشي عصاية من العود الصلب ودخلا الشق وما ان دخلا حتى قام تافيج من مجلسه واستقبله مرحباً قبلاه وسلما وهما يبكيان ندماً على ما قاما به نحوه من

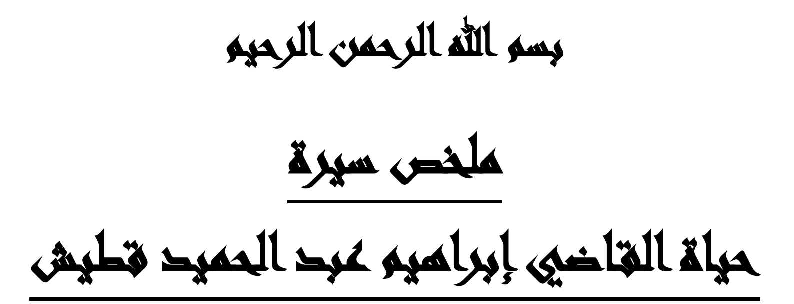
الافعال المسيئة فطيب خاطرهما وسامحهما قائلاً: لا تثريب عليكما الآن والذي مضى فقد مضى فاسأل الله اليكما المغفرة والعفو فكونا براحة بال واطمئنان.

ثم قامت العشيرة بعمل الولائم والفراح لمدة عشرة ايام الى ان جاء يوم فانهم اجتمعوا اليه وانبأؤوه بانهم قرروا النداء به زعيماً على الشعيرة كما كان ابوه من قبله وها قد جاء ومن الوعد الذي وعدهم به لاسيما وقد صار متكلماً وعالماً وقد خبر شؤون البدو والحضر وكرر الرجاء بالموافقة على القرار وتنفيذه بدون اعتذار.

ولما شاهد ان لا مناص من قبول عرضهم رضخ اليهم وقبل الزعامة عليهم وسار سيرهم وعاشوا جميعاً بسلام.

النهاية





ولد القاضي ابراهيم عبد الحميد قطيش الفاعوري عام 1304هـ الموافق 1886م في مدينة السلط، توفي والده وهو في الرابعة من عمره تاركا له شقيقتان ومنزل من الطين والحجر القديم، تزوجت والدته فعاش في كنف عمه، أنهى دراسته بتفوق وعرض عليه دراسة الحقوق في سوريا لكنه

لم يتمكن من ذلك بسبب ظروفه ومعاونته لعمه في أعمال التجارة، وحين بلغ من العمر الذي يستطيع أن يعتمد به على نفسه سافر ليعمل خارج الوطن ولكن بلغه نبأ وفاة احدى شقيقاته فعاد للاستقرار في الوطن حيث ضم شقيقته الاخرى وسكن في بيت والده القديم.

عين كاتب ضبط للبدايه في مدينة السلط عام 1328هـ الموافق 1910م، ثم رقي لوظيفه رئيس كتاب البداية في كل من الطفيلة ومعان عام 1336هـ الموافق 1918م، ثم عين رئيس كتاب الحاكم المنفرد في النبك عام 1337هـ الموافق 1919م، وفي نفس العام نقل لرئيس كتاب الحاكم المنفرد في مدينة السلط، وفي تاريخ 1925/1/1م عين قاضيا لمحكمة جرش الصلحية، وفي 31 من آب 1925م عين قاضيا لمحكمة جرش وعجلون والطفيلة ثم اضيفت الكرك ومادبا لقضائه ايضا.

و في 26 من تموز عام 1931 م أصدر رئيس الديوان العالي الاراده المطلعة على تنسيب سماحة قاضي القضاة بانتداب قاضي صلح الطفيلة السيد ابراهيم قطيش لأداء وظيفة القضاء الشرعي في الطفيلة أثناء غياب فضيلة قاضي الطفيلة الشيخ طه البردويل بالإجازه وخلال هذه الفترة ايضا بلغت المسامع الكريمة للمغفور له بإذن الله الملك عبد الله الاول ما أظهره قاضي صلح جرش ابراهيم بك قطيش من الكرم والطيب للافادة بالتقدير، وذلك بتكريمه بزيارته مع الأميرعلي في منزلة تقديرا لجهوده وخدمته لوطنه وأمتة ومنحه في 12/14/ 1933 م كتاب شكر وتقدير.

وفي 1938/11/1م عين قاضيا لمحكمة عجلون الصلحية وبقي في هذا المنصب حتى 1940/12/19م ثم انتقل الى محكمة عمان البدائية حتى تاريخ 1942/2/28م وفي 1942/3/1م احيل على التقاعد.

حصل على اجازة المحاماة بتاريخ 1942/4/23م حيث زاول مهنة المحاماة في مكتب أقامه لنفسه في مدينة السلط، وفي عام 1944م عين عضو في مجلس بلدية السلط حيث كان رئيس البلدية السيد عبد الحليم الحمود طيب الله ثرآه وبقي حتى عام 1947م.

ثم عين مرة اخرى عضو في المجلس البلدي لمدينة السلط عام 1947م وحتى عام 1950م حيث كان رئيس البلدية السيد سعيد باشا الصليبي طيب الله ثرآه.

انتقل الى الرفيق الاعلى في يوم 1971/9/27م حيث وافته المنية في مدينة الكرك وتم دفنه في عمان...